المشروع القومى للترجمة

ليل إفريقى

« إيمان »

تأليف الكاتب الإسبانى
رامون خوتا سندير

ترجمة وتقديم
محمد أبو العطا

المجلس الأعلى للثقافة
٢٠٠٠

هذه هى الترجمة الكاملة لرواية

IMAN

AUTOR:
RAMON J. SENDER

PRIMERA EDICION, ED. CENIT, 1930
EDICIONES DESTINO,
COLECCION DESTINOLIBRO,
SEXTA EDICION, 1997

مقدمة

رامون خوتا سندير (١٩٠١ ـ ١٩٨٢) روائي إسباني كبير وغزير الإنتاج (نحو ٩٠ مجلداً معظمها أعمال سردية). وهو من أهم رواد التجديد في السرد الإسباني في القرن العشرين. تتقاطع حياته وانتماءاته الفكرية وعدد من معايير التصنيف والتجييل، فهو في طليعة «الرومنطيقيين الجدد» الموازية لجيل لوركا-جيين الشعري؛ وهو من أهم كتاب المنفى بعد الحرب الإسبانية، إلخ.

من بين أعماله الكثيرة: "أمن عام" (١٩٣١) و"سبعة آحاد حمراء" (١٩٣٢) و"ليلة المائة رأس" (١٩٣٤) و"مستر ويت في الكانتون" (١٩٣٥) و"منزلة الإنسان" (١٩٣٩) و"الدائرة" (١٩٤٧ ثم ١٩٦٩) و"الملك والملكة" (١٩٤٩) و"كتب آريادني الخمسة" (١٩٥٧) و"قداس على روح فلاح إسباني" (١٩٥٣ ثم ١٩٦٠) و"وقائع الفجر" (١٩٦٣) و"مغامرة لوبي دي أجيري الاستوائية" (١٩٦٤) و"في حياة إجناثيو موريل" (١٩٦) و"النظرة الساكنة" (١٩٧٩) و"حظر تجول" (١٩٨٥).

أما المجلد الذي بين يدي القارئ فهو أول عمل روائي للكاتب، نشر في عام ١٩٣٠، بعد ست سنوات من انتهائه من أداء الخدمة العسكرية في المغرب، وفي وقت أصبح فيه معروفاً بجريدة "الشمس" المدريدية. وقد لاقت هذه الرواية في الحال ترحاباً من جانب النقاد، بل ظل الكثير منهم أميل إلى الاعتقاد أنها أفضل ما كتب، على الرغم مما له من روائع أخرى، لما تنطوي عليه من رؤية تجديدية في تقنيات السرد، وكذلك من صدق ونزاهة، فضلاً عن

منظور وروح عالميين مناهضين للظلم والنزعة العسكرية، وصنف من الكتابة التشكيلية والغنائية الرفيعة.

في حالة رامون خوتا سندير هنالك توازٍ شفيف بين شخصيته أو أسلوب حياته وبين أسلوبه الأدبي. فهو في حياته وفي أعماله الأدبية "طبيعي"، بسيط، مباشر، غير متكلف؛ وجميعها صفات وراءها حيوية خلاقة، مقتحمة، بلا اصطناع، بلا تنازلات. وأول ما يلاحظ عليه من الخارج شخصيته القوية، انضباطه الواضح – البارد والمتنائي شيئاً – في الإيماءة، في الكلمة، في تفصيلات تلمح إلى نبله الخشن، الريفي، نبل أهل الأراضي العليا لإقليم أراجون الإسباني وقوة شكيمتهم في مواجهة طبيعة خشنة، باردة. أما من الداخل، عن قرب، فيتجلى من بين ثنايا شخصيته الحنو والرقة والتفهم والتعاطف مع كل ما هو إنساني. وفي أعماله الأدبية يظهر هذا الملمح الأساسي – المباشرة، البعد عن التكلف، الخشونة، العنف – أولاً، ثم تخف من حدته تباينات توقيعية وإيحائية وفكرية، وذلك بتناوب عناصر غنائية وكنائية ولحضور نفس روح التفهم والتعاطف مع مخلوقاته المتخيلة. وهذا بالفعل هو الملمح الثاني والجوهري في تعبيره الفني، والأصيل أصالة الملمح الأول، والذي قد تجده أحياناً مهيمناً على عمل بأكمله، مثلما في روايته "وقائع الفجر" المتضمنة الكثير من سيرته الذاتية. بيد أن الغنائي والأليجوري وروح التعاطف الإنساني غالباً ما يجيء منصهراً مع الملمح الأول في توتر متصل، هو إحدى السمات العامة لأسلوب المؤلف، ليضفي على نثره مجملاً من التباينات الواضحة: جملاً وعرة، مبتورة، محذوفة، وأخرى طيعة، طليقة، رخيمة. وهذا التراكب المتناغم من المتضادات التعبيرية علامة أسلوبية تحمل نحواً من رؤية

المؤلف للعالم؛ فهو لا يعتقد فى إحادية النظرة إلى الواقع.

وعلى المستوى الثيماتي تظهر نفس التباينات فتنعكس أولاً على الشخصيات الرئيسية فى رواياته: فإلى جانب الأنماط الخشنة والعنيفة تظهر عادة امرأة صغيرة السن تجسيداً للبراءة والرقة.

وثيمات رواياته عامة متراوحة بين الخشونة والعنف الواقعى بكامل وحشيته ("ليل إفريقى"، "منزلة الإنسان"، "مغامرة لوبى دى أجيرّى الاستوائية") والتأمل الفلسفي - الحياتي ("الدائرة") والتمثيل الأليجورى أو الكنائى ("ليلة المائة رأس"، "الملك والملكة") والصفاء الغنائى (الجزء الأول من "وقائع الفجر").

ومن أظهر صفات أسلوبه الأدبى البساطة الرصينة التى تبلغ أقصى تعبير لها فى "قداس على روح فلاح إسبانى". فقوة الإيحاء الكامنة فى أفضل نصوص رامون خوتا سندير تنبجس من اقتصاده التعبيرى الشديد، من انضباطه الأسلوبى الانتخابى الرصين. وهو لذلك يتطلب من القارئ انتباهاً مضاعفاً لتلاحق وكثافة الفكر فى القليل من الكلمات. وفى نثر سندير، البساطة والوضوح صِفتان أوليان؛ كما أن الحيوى والمباشر سابقان على التراكب والزخرف.

فهو يستحدم دائماً صيغ الفعل المباشرة والواضحة، متجنباً أن يكون للكلمة حضور خاص أو أن تكون اللفظية غاية فى ذاتها؛ بل يسعى إلى كل ما هو تعبيرى شفيف، إلى كل ما هو طبيعى.

أما غنائية نثر رامون خوتا سندير فتنبع أولاً من سياق السرد وليس من اللغة نفسها، غنائية مبثوثة فى نسيج المناخ والحدث والشخوص والثيمة، كامنة فى ترتيب النص.

فى تصدير الطبعة الأولى، ١٩٣٠، يقول المؤلف إنه كان يحتفظ بمخطوطة الكتاب منذ ثلاث سنوات وإن فحواها "ملاحظات غير مرتبة، جد مسهبة أحياناً، وأحياناً بلا شكل أدبى، جمعتها خلال خدمتى العسكرية فى المغرب، فى أعقاب نكسة ١٩٢١". مع ذلك، ينأى هذا النص عن التباسات المبتدئ؛ إذ إن أسلوب الرواية ومعمارها الفنى يبلغان مبلغاً بعيداً من النضج، فهذا نص طموح أدبياً وجمالياً.

وكان المؤلف أدى الخدمة العسكرية فى المستعمرة الإسبانية بالمغرب بُعيد نكسة "أنوال" التى منيت بها القوات الإسبانية على يد المغاربة. وهو هنا يعيد بناء الأحداث بنحو من المعرفة الدقيقة بمسرح العمليات وطبيعتها. وربما كانت الأحداث المسرودة انعكاساً لتجربة الكاتب نفسه لأنه اشترك فى بعض فصولها الأخيرة.

تبقى ملاحظتان أو ثلاث أنهى بهما هذه المقدمة الموجزة:

(١) تتفق زاوية النظر فى هذه الرواية وما انتحاه المؤلف من تجديد وحرية فهنالك ثلاثة أنماط من الرواة تتناوب الحكى:

أ) راوية – شاهد يحكى فى ضمير المتكلم.

ب) راوية "كلى المعرفة محايد" مطلع على الأحداث على نحو جزئى، فهناك أشياء لا يعلمها مخلفاً بذلك مساحات من السرد لخيال القارئ.

ج) راوية كلى المعرفة تقليدى.

والغرض من تعدد أنماط الرواة وتناوبهم هو بالطبع الفكاك من هيمنة الراوية التقليدى المطلع على كل شىء.

(٢) توسل المؤلف كذلك عدة وسائل لكسر السياق الزمنى التقليدى باستخدام تقنيات العودة إلى الوراء واختصار زمن الحكى والزمن البطئ والمناجاة الذاتية، إلخ... وقد يكون مهماً بيان البنية الزمنية للرواية، وهى كالتالى:

مضارع القص	ماضى القص
١- الفصول من ١ إلى ٤ - راوية شاهد يحكى فى زمن المضارع - المكان: المعسكر	
	٢- الفصول من ٥ إلى ١٢ - عودة إلى الوراء - راوية كلى المعرفة محايد - المكان: موقع R، الفرار (٧ أيام)، مليلة، المعسكر حيث لقاء البطل بالراوية - الشاهد
٣- الفصلان ١٣ و١٤ - راوية - شاهد يحكى فى زمن المضارع - المكان: المعسكر ٤- الفصل ١٥ - نفس الراوية - الشاهد - المكان: ثكنات الجيش فى مدينة مليلة (بعد ستة أشهر). ٥- الفصل الأخير - راوية فى ضمير الغائب تقليدى - المكان: إسبانيا، عودة البطل إلى قريته.	

(٣) وسندير روائي معروف ببنائه المتميز لشخوصه فعدد كبير منهم لا ينسى. وهو مبدع واع للشخوص الثانوية أيضاً بحيث ينهضون فى أعماله بمهام بنيوية محددة. فى "ليل إفريقى"، هنالك عدد كبير من الشخصيات الثانوية ("الشخصيات الخاطفة") التى تظهر للحظات قصيرة فى حياة البطل الهارب من الموت، والتى يبدو أنها لا تتمكن إلا من تأخير النهاية المحتومة. والبطل يعى أنهم جميعاً فى طريقهم إلى الموت. هاجس ما يؤكد أنهم على شفا الموت؛ وهم جميعاً يلقون حتفهم بالفعل، لأنهم ضمير الهارب، وعيه بموته هو. هؤلاء الشخوص، رغم أنهم لا يحتلون مساحات كبيرة فى السرد، يكملون الرسم النفسى للبطل، كما أن ظهوراتهم المتقطعة لا تنى تسوط وعينا وتتنبأ بعاقبة الهارب. فثمة إذن مساران متوازيان: تطور شخصية البطل والظهور المتصل للشخصيات الثانوية. الأول ممتد والثانى قصير، خاطف، كونتربوينتى، مباشر. وكلاهما ملتحم بالآخر، ليعززا معاً درامية النص؟

د. محمد أبو العطا

تصدير الطبعة الأولى، ١٩٣٠

كنت احتفظ بهذه المذكرات منذ ثلاث سنوات. ملاحظات غير مرتبة، جد مسهبة أحياناً، وأحياناً بلا شكل أدبي، جمعتها خلال خدمتي العسكرية في المغرب، في أعقاب نكسة ١٩٢١: والآن طلبتها منى دار نشر "ثنيت"، وأسلمها إياها على حالها تقريباً. كان دور الخيال فيها ضئيلاً، أو هو لم يتدخل في الحقيقة. وأي جندى من بين المائتي ألف الذين مروا من هناك فيما بين ١٩٢٠ و١٩٢٥ بوسعه أن يوقعها. وبالطبع يمكن تعرف بطلها في السواد الأعظم من العمال والفلاحين الذين ذهبوا إلى هناك بلا أفكار خاصة بل كانوا يلبون دافعاً لا يخصهم، ومأخوذين بالأبطال الذين تنشر الصحف صورهم. والكتاب ليس له مغزى جمالي أو أفكار أدبية مسبقة. بل هو بسيط وصادق، يسعى إلى حكى مأساة المغرب كما كان شاهداً عليها أي جندى ممن شاركوني الحملة. إليهم أهدى هذه المذكرات التي كتبت أيضاً حينئذٍ وصوت الطبيعة الإفريقية يتردد في الأذن.

رامون خوتا سندير

ليل إفريقى

المعسكر

(١)

أربع ناقلات جنود تدخل المعسكر عصراً. صخب معدنى متذبذب فى رسوخ الصمت. تجلب الجفاف الجيرى للبطاح المحيطة بالموقع وتسد المنظور بلا شجرة، بلا طائر.

قبيل ذلك وصلت كتيبتان تسبقهما الغربان، الطليعة المرتجلة للجيوش. تسعون كيلومتراً فى ثلاثة أيام. تلك المسيرة قمنا بها نحن أيضاً حتى هنا. شمس أغسطس تلفح الوجه في الصباح، منذ الفجر، ثم الوجه والظهر مع تقدم اليوم. ثلاثون كيلوجراماً من الأحمال، الكتفان متسلختان من أثر حك الأربطة والعرق، باطن القدم متشقق، وجير الطريق في الشقوق. نحو منتصف النهار نبصق وحلاً رمادياً. والماء، وإن يكن ساخناً، ربما صار متعة عظمى لولا أنه نفد بعد أول عشرة كيلو مترات. ثمانمائة رجل، صامتون، بكم، خطوهم اللاإرادى مستسلم. مخلاة من يسير إلى الأمام تسد كل الآفاق. لا نعرف إلى أين، ربما إلى غير مكان، أو إلى نهاية العالم. قد تكون مهمة المرء منذ ولد السير أزلياً. يمحو الغبار الحاجبين، يضع قناعاً رمادياً على كافة الوجوه فلا يتعرف بعضنا بعضاً. خمسون مظروفاً على الظهر، تنغرس فى النخاع. ونحمل مائة وخمسة وخمسين أخرى، فى جُرُب أخرى. البطانية مائلة، حقيبة الإسعاف، "كعب" الزمزمية، "كانتين" الطعام، جراب مرتبة من الخيش مشدود إلى الظهر، المخلاة وبها طقم الشتاء وثلاثة غيارات، حذاء الميدان، المعطف المبطن، الثقيل مثل زي راهب، ثم الأحزمة المثبتة عليها خزائن الطلقات كاملة، مدية من طراز حديث، البندقية.

التعب له فعل المخدر. لا نحس بالقدمين أو بالأثر الغائر للأربطة التى تتقاطع عند الصدر أو بالحر. لو أن بمستطاعنا تنفس هواء نقى أو نلقى بأحمالنا! يبدو أن هاجساً غريباً يثير قلقنا. سنسير دائماً، وذلك أفضل لأننا لو توقفنا لسقطنا على الأرض كالخرق. لا نفكر فى شئ أو نرى شيئاً. والكيلومترات الأخيرة، حين يمتزج التعب بأول ظلال المساء، يشوبها شئ من الكابوس. منذ ساعتين والمعسكر يلوح فى متناول اليد، لكن شبحاً شيطانياً يبعده. فى نهاية المطاف، حين ندخله ربما كنا سنجتازه ونواصل السير كالنائمين لو أنهم لم يأمرونا بالتوقف ليصطف الطابور ولنحمل البندقية جيداً –الدبشك إلى الخلف!- لطابور القائد وغناء النشيد الوطنى. الكتيبتان اللتان قدمتا اليوم أنشدتا هما أيضاً نشيدهما. وقائد الموقع، الجالس أمام كوب جعة، حانق دائماً لقلة حمية الأصوات.

تسعون كيلومتراً. تعب وحشى على الوجوه، كمن حكم عليهم بالأشغال الشاقة. أشغال باطلة: اليوم ننقل إلى هنا الحجر الذى يجب أن نعيده غداً إلى هناك. وعليها جميعاً تقريباً نظرة قاتمة هى فى بيانثي نظرة ذهول بعيدة ورمادية. وأكثر من الذهول مما يحيط بنا، تستشرف، إزاء الحالة التى بلغها أى منا، شعوراً بالمباغتة، وهماً متلهفاً إلى إمكان أن تتلاشى إلى الأبد تلك الحياة التى ما لبثنا أن بدأناها.

أفدنة من الثيران الشقر والبغال، القمح الأخضر، خشب الورشة العطر، نار الحداد البهيجة، مع لهاث الكيران كالسعال، المعدن الأزرق والأحمر المتقد. كل هذا ينتمى إلى حياة أخرى لم يبق منها سوى فكرة مبهمة كالحلم. ذاك كان العمل الذكي، الذى ينفح الوجود معنى والذى بفضله يمكن الانزلاق فوق هذا الوجود بأغنية بهيجة فى الصدر.

حين يشرب يفكر بيانثي دائماً فى هذه الأمور التى، إذ يهدأ، ينساها بإرادته. يشعر فى النشوى بيأس عذب يتعزى منه بنحو من الشفقة على

نفسه. أحيانا يفتقر إلى الوعي بحقيقة وضعه، حتى إنه ليباهى ببعض التوافه كأن يقول لرفاقه بشئ من التعالى :

– أنا لست سوى "روتين" !

في المعسكر، أعراض عمليات. من المؤكد أن يصدر الليلة الأمر العام بلغة من صنف "يمين التشكيل"، ليحدد تشكيل القتال: "النسق الثالث سيتكون من كتيبة N وسرية الرشاشات التابعة للكتيبة المذكورة وسرايا R وX. ومن كتيبتي N وF، ومعهما مجموعة الالتحام 112 النظامية، ومدفعية 92 الخفيفة والمدرعات 7 و8 و15، ومجموعة "سان بيثنتي" للقنابل اليدوية، وطابور 15 ألوثيما وسرية الرشاشات التابعة له".

العمليات. أين؟ حامل أوامر غرفة القيادة يعرف كل شئ. رغم أنه دائم الكذب، نسأله كأنما سيقول الحقيقة. ثلاثة أيام دون أن يدخل الدعم X. ثمة قصف منذ بزوغ الفجر وتسطع إشارتان شمسيتان فوق الآكام الزرقاء. "كادوا يصيبون الكتيبة 35". لكنها تصدت لهم.

حركة بين جنود الإشارة. القادة يذهبون ويجيئون من العيادة. ثم تصل أولى شاحنات قافلة الخسائر. ولما كان المساء يحتضر ولا وقت للوصول إلى المدينة، ستبيت الحافلات هنا. خيام إضافية حول العيادة.

الضوء الأخير ينفعل في زجاج النوافذ، تحت الهواء الوادع والمتوتر. يحمل الجرحى بطاقة معلقة في العروة، كبطاقة في بازار: "جريح. تمزق، جراحة وخياطة. فصد". "كسر عظمة فخذ. ضمادة. خارج الخدمة مؤقتاً". "جمجمة راحة. سد. غسيل حولها. عيون. أعراض وعي". "جرح...

نقا . . . تسا . . . غسيل داكين كاريل" .

رائحة شاش بالفنيك. سترات ممزقة ودم في جليد الضمادات. هذا يلعن حين ينحرف السرير النقال وذاك، المصاب "بعيارحظ" ، يضحك لدى مروره ويغمز بعينه من سريره: "إلى المدينة وتصريح بشهرين إجازة فى إسبانيا" . على شبكة الحافلة تتكدس الجثث التى انحسر عنها غطاء من قماش خيمة. صباط، أطفال تقريباً، وجنود. دم في جداول صغيرة ينساب حتى أسفل النوافذ. يقول جندى فى قتامة مبهمة:

– الكل سواء.

فى دائرة قريبة يسمع حديث حامل أوامر مركز القيادة :

– ما ذنبى أنا إذا كنت لا تفهم؟ الجيش الثالث هو نحن!

إخلاء الخسائر رتيب ومضجر، فيذهب الجميع تقريباً إلى "الحانة" :

– ما هذا ؟

– مدرعات. أحضروها لتحمى خدمة النظافة.

– لا فائدة. هناك الكل يفر.

ذكر الخدمات الميكانيكية يمحو مؤقتاً أى قلق آخر. نتملص من العمل فى التحصينات وإحضار الحجارة، وقبل كل شئ، من المقشات. الفرقة المختارة فى كل نوبة تتفرق فى اليوم التالى قبل الخروج بنصف ساعة. ولكن إذا استخدم أى حكمدار هراوته، حينئذ نتطوع جميعاً للعمل. الخدمة شاقة، والقائمة تتكرر كل يومين. وأعمال الخندق الجديد لا تنتهى. كما أن خدمة السلاح والحملة قد تمنحنا فاصلاً من الراحة لولا جنون النظافة. نكنس من التاسعة إلى الحادية عشرة، حتى صعود الفصائل إلى مواقع المدفعية. خلف سيارات الإسعاف الطبية تصل قافلة دواب بخسائر جديدة. السهول الصفراء، التى تموج ربوعها كأنها بحر عاصف، تنحنى اغلبيتها فوق النهر، والقافلة تخط فوقها خطاً أحمر من الدم. ليست هذه حرباً

تراجيدية أو نحسة، بل عودة من رحلة قنص. المعسكر نفسه غارق فى سلام شفيف وصاف، لا تكاد تعكره زوبعة الطيران البعيدة. الدبابات وعربات الإسعاف والهواجس الغريبة تضفى على المساء هيئة مبتذلة ومتالقة لعيد. بعض الجثث يتدلى فوق البغال وتتارجح أذرعتها فى توقيع. هذا من الكتيبة 35. والآخر أيضاً. لكن هذا الأشقر من 61. وآخر من 35. تمر البغال مؤرجحة رؤوسها، غبر مبالية، بحمولتها الطازجة. وهذا ؟ من أية فرقة هذا الذى تغطى سترته رأسه؟ يقول بيانثي من الخندق:

– اذهب و انظر، فلن ياكلك!

يقترب الجندى ويرفع قطعة من قماش الكتان: بغتة، يتركها وينفض يده الملوثة بالدم. يضحك بيانثي منحنياً فوق فوهة البندقية.

– من أية فرقة هو؟

من يحملون السترة على هذا النحو قطعت رؤوسهم.

– ليتهم فعلوا ذلك! على أية حال فيم يفيدك رأسك!

بغمغم الجندى المستجد فيما يمسح يده فى سرواله وبيانثي يوبخه:

– لا تسب جدك أيها الجندى!

الوساوس عنيدة فى المعسكرات. ويحملنا تعذر أن يحيا كل شخص حياته إلى تهوسات ملحة. وبيانثي عليه مهمة الكنس غداً. فريق النظافة فى حالة مزرية. روث وغبار فى الأسمال.

– لو نفضت الكاكي لدفنتك حياً!

يطل المرفقان من الشقوق، ويتراص البق مكان الخياطة: لحية محتضر

تحت القبعة الزنخة. القذارة تطبق على أنفاسنا. أنا أغتسل صباحاً بقهوة الإفطار. يقول لنا القادة إن كل هذا غير مهم. إذ يعنى تحمله إظهاراً للروح العسكري. ويعنى الإبقاء على الأرض التى تحتلها الكتيبة أنظف من موقع البطارية المجاورة إعلاءً لروح الانتماء. يهمهم الجندى المخضرم بين أكياس الرمل. مضى زمن منذ أن أقلع عن تفسير أمور الخدمة العسكرية. "من الأفضل اصطناع الجنون". بعد ذلك، يديم النظر إلى ظل أوتاد سور السلك الطويل.

وحدة جندى الحراسة ثقيلة وخشنة، ويزيد التأمل من فداحتها. وهاد بنية اللون، رمادية. وإلى وحدة المرء تتداعى فى اكتمالها وحشة الريف والسماء، السماء الأعظم رحابة وبرودة فى هذه الصحارى. نهاراً، يسمع فى المعسكر همس الفراغ المحبط. وفى قيظ المساء، أكياس الرمل التى تؤلف نصف دائرة خارج حد الخندق، حول الديدبان، تلفحه. وتلفحه البندقية القريبة منه. وحين يطل فأر من بين أكياس الرمل –فئران ضخمة، ولها أرجل أرنب، وبها بقع صلعاء–، يعطيه بيانشي "التمام" فلا يفر. للقبعة سلك يلف حافتها التى تلتهب هى أيضاً فى الشمس. والجمجمة، المحمومة، لا تحيل وحشة التنائى حنيناً بل تحبسها فى متاهة مرعبة من المستحيلات. لا طائل وراء الفرار من نفسه بالتأمل، لأنه يلقى بنفسه من جديد فى تلك المتاهة ولا شئ يعدل عذاب البحث عن مخرج. والتعريج على السياسة حتمى فى الجنود المثقفين. لكن، فيما عدا هذا الحل الذى يعزز وطأة القلق لما يثيره من حفيظة فى الضمير، يشعر المرء امامه وخلفه، فوقه وتحته، بخواء خانق.

بين الخيام والعنابر الحجرية، التى دمرها القصف خلال الهجوم الأخير ثم سدت بأكياس الرمل، يصطف فى المعسكر خمسة آلاف رجل هم قوام الفرقة وبطاريات المدفعية. نصف رغيف خبز تحت الإبط وطبق من الصفيح

في اليد، يتدلى عند الفخذ. تفوح رائحة إطار محترق (سجق خنزير زنخ) ونشا قمصان لوثها العرق (أرز). ولدى عودة كل قطاع: كسرولات وأوعية سودها السناج. "انتباه!"، "تمام!"، "حسن، تقدم!"، "انتبااااه"، "سرية"، "انتباه"، "للأمام"، "توزيع"، "لا أحد يخرج عن الصف"، "كل ثلاثة معاً!" "أتريد مزيداً من البطاطس؟ ربما، إذا أخذت مكانك في نهاية الصف"، "تأكل كالمنشار!". بعد "الوجبة"، يسمع في كل مكان صوت حك الأطباق في الحجارة. يتقاطر صوب "الحانة" آخر الجنود. يهمهم جنديان لدى مرورهما بالجثث:

– الويل لنا لو اختارونا ضمن نوبة الحراسة الإضافية! سيضطرون إلى إقامة أربعة مواقع لحراسة الجثث.

– أتعتقد أنهم سيحرسون الجثث كما لو كانت أسرى؟ هي لن تفر، هذا ما أقوله.

– ليس هذا ما اعنيه، بل إن هنالك دائماً سفلة يسرقون أحذيتهم أو أي شئ يجدونه. لأن أي ميت قد يحمل ساعة في يده. وكل هذه الأشياء لها قيمتها: رغيف شهي، عملة ورقية.

– هراء! أيقولون إننا سنتحرك غداً؟ حسنّ، سأنفق الآن كل ما معي من نقود، فلا أحد يعلم الغيب. أعتقد أن أي شخص سيفعل مثلي.

ينفد صبر بيانشي في موقعه. تأخر تغيير نوبة الحراسة. يرى الوهدة، حالكة الآن في القاع وخضراء فاتحة في السفوح: ويرى الطريق الأبيض المسطور بظلال عدة مطبات والعصي المتشابكة لسور السلك الذي يسد

المعسكر على الطريق. تلتمع زرقة الآكام ناحية النهر الميت والراكد بين الحجارة الرملية. سهول دراوشة تكتسي حمرة. إلى اليسار، قمم تازة، كالإبل، تتشوف القمر بين أسنمتها، بلا جدوى. ففي هذه الليلة لن يظهر قبل الثانية صباحاً. تضيء نجوم حمراء وتجتمع في القيعان؛ ثم تأتي بروق طويلة تجر نفسها على السهول. ثم طلقات المدفعية المتلاحقة.

بوق القيادة يدعو إلى الصلاة وتلبى نداءه، كالديكة في الحظيرة، أبواق الكتائب وبطاريات المدفعية. وبيانثي، القائم على نوبة الحراسة، بسمته الشارد ذاك الذى يخلف فيمن يراه شعوراً بالتنائي وعدم الاكتراث، يردد كلمة السر ما إن يسمعها:

- "لدى البنت الجميلة" (الخامسة عشرة مشاة). "اللعنة، ما أكثر الفئران" (سلاح المهندسين). "لنر، من فقد الفتيل" . . .

هذا النفير الأخير طويل ومنغم، كأنه تيمة أوبرا. يستند بيانثي إلى أكياس الرمل ويغفو. غفو أرنب، لا يكاد يغمض عينيه، ويصيخ السمع. أى صوت مباغت يوقظه، بيد أنه لا خوف من أن تقلق نومه الأصوات المعروفة. الدورية - "تماما" - وورقة يهزها النسيم على السلك الشائك. أى مستحد كان سيطلق النار. لكن السفح ينهض الآن كموجة، آخذة في الانتفاخ. قدماه تنزلقان فى القش الذى يغطي الأرض لتجنب الطل ليلاً. لكن الطين أسوأ، فى الشتاء. وفي السرية . . . إذا كانوا لا يقدرونه فلا يهم: يجهلون كم كان عاملاً ماهراً فى ورشة الحدادة بقريته. معلم حداد. ستة أعوام من إشعال نار الكير منحته، بعد المحن والجوع، خبرة لا خلاف عليها. كان يجذب الفولاذ إليه كالمغنطيس. كم كان سخيفاً ذلك العجوز الذي اعتاد أن يقول له ذلك! غير أنه كان يحمل ندوباً تؤكد قول العجوز. بحرفته كان فى وسعه أن ينهض بعمل نافع فى مستودع سلاح الفرقة فى المدينة، دون حاجة إلى الخروج والزحف على

بطنه فى البطاح: لكن، في الورشة، كان هنالك أحد عشر مصاباً أكثرهم خبرة كان يعمل من قبل نادلاً فى حانة فى برشلونة. لكى يصبو إلى مثل تلك الأعمال لا يكفي المرء كونه ماهراً فى حرفته: عليك أن تتعلم كيف "تتفاهم". لو عرفت كيف "تتفاهم" فسيكون لك شان آخر.

مازال النعاس يغالبه. تسير سريته على أكمل وجه منذ أن قدم ذلك الرقيب الهمجى بناموسيته الوردية وهراوته. أما بقية الرقباء فلا يحتملونه. أمر طبيعى. ومع ذلك، إذا أصابك إصابة مباشرة يمنحونك ثلاثة أيام راحة من الخدمات. "لقد سقط"، والطبيب يشيح بوجهه عنك، لأن ضرب الجنود محظور، وكذا السرقة. لذا يقولون إنه "عوقب" و"أصاب نفسه".

بخار كثيف من دخان البترول فى حانة "بلانكا"، ووجوه محتقنة من أثر الشمس والكحول. يجلس عشرون أو ثلاثون جندياً على الأرض، يحتسون زجاجتين كبيرتين ويغنون ويصفقون ويخبطون على الألواح الخشبية. الأغنية هزلية وتتحدث عن شخص يدعى فيليبي، من هواة قضاء الليل خارج المنزل، يعود إلى منزله صباحاً فتضربه زوجته. لكنهم يغنونها فى جدية صارمة، بأصوات لزجة وعميقة، ولهذه الأغنية -ولا أدرى ما السبب- سطوة دراميه تمزق القلب. فى ناحية أخرى، هنالك من يلعب البلياردو على منضدة قديمة بدون غطائها الأخضر، والكريات المهترئة تتدحرج قفزاً فترتد مرة أخرى. وبلاط الأرضية غير مستوٍ حتى إن اللاعب ليختفى تقريباً فى دورانه حول المنضدة.

- أية "علقة" تلقتها الكتيبة 135!

يمدح العسكرى المغربى الكتيبة على طريقته:

– لديهم قلوب مكان الأحشاء!

يوضح النظاميون (من المغاربة):

– لولانا نحن الذين مددنا لهم يد العون ما نجا منهم أحد. والمدافع الرشاشة –تاتاتاتاك– تطلق نيرانها على بعد شبر من مجموعة الالتحام. خمس عشرة بطارية. ومدافع الهوتزر التابعة لسرية الاستطلاع، وعلى الجانب الآخر من الجبل، السفن الحربية. ومع ذلك، عاد أفراد سلاح المهندسين دون أن يثبتوا وتداً واحداً. اطرق، اطرق، ثم الفرار. والعساكر المغاربة، المنبطحون أرضاً، ليس هنالك من يجبرهم على التقدم خطوة.

يقول عسكرى مغربى:

– آه، يا أخى. أنا أحارب مثل فار. الحكومة الإسبانية ترقي علياً عريفاً وعليٌ لا يشترك قط فى العمليات. شخص مثلى، ثلاث وعشرون طلقة ثم لا شئ. من قبل كنت أحارب ورأسى فى السماء، والآن مثل فار، حجارة، حجارة، فإن لم تكن هنالك حجارة، أبقى ساكناً.

– والدبابات، أتشترك مع جيشنا ؟

– أى حياة هذه! الدبابات تمضى إلى حيث يأمرونها.

– تسير فى الجبال كما تسير فى الطرق؛ انتبه أيها الجندى، ثم تحطم المنازل.

لدى دخول الحانة، يعثر البعض فى قوس الباب فيرتج العنبر كله ويصدر صرير عن الخشب والصفيح. فالحانة أقيمت من بقايا صناديق وصفائح البنزين المحطمة، من خرق الخيام والعلب الواهية. بعض أجزاء من القنابل –مثل زجاجات فولاذية ضخمة– تؤمن السقف ضد الريح. وصاحب الحانة رجل أعرج له هيئة غريق فى أوبريت إسبانى، ولاأحد يعلم يقيناً هل هو والد بلانكا أم زوجها أم هو يستغلها. أما هي فلا تكاد تخرج من وراء الطاولة، حيث

تقوم فقط على خدمة أفضل العملاء. ويذهب الأعرج ويجيء بين الأركان المعتمة، يقرب الصناديق من الجماعات المتفرقة على الأرض ويقدم لها النبيذ. وهو يضبط إيقاع حركاته مع عرجته: أى أنه يذرع الحانة ويداه محملتان بالأكواب دون أن تنسكب قطرة واحدة. لكنه يزدرى الجنود الذين يذهبون بأكوابهم فى طلب نبيذ بريالين. وأحد دواعى زهوه أن لديه مشروبات راقية من أجل السادة الرقباء والضباط. الحانة مكتظة عن آخرها.

– من يشترى طابع بريد؟ اللعنة! لما كان البريد مجانياً على أن أخفض ثمنه، ومع ذلك لا أحد يشتريه.

تقبل جماعة أخرى. فى المقدمة، جنديان يحملان الطعام فى الطبق، يحفظان توازنهما كي لا ينسكب.

– أحصيت سبعة وأربعين قتيلاً، كلهم من الضباط تقريباً.

يرد الآخرون وهم يهزون مناكبهم:

– ياالسوء طالعهم!

يتناجى جنديان بالقرب من الطاولة ويومئان برقة دبلوماسية:

– لا أسير حافياً. نصف نعل من القنب وقطعة من جوال. يجب أن نفهم أن الخدمة العسكرية هى الخدمة العسكرية. ذهبت إلى ضابط الصف لأن حذائى انتهت مدته منذ ثلاثة أشهر.

– ثم ماذا ؟

– قذفنى بمسطرة فى رأسي. من حسن الحظ أننى كنت أقف بباب الخيمة. أنا أعتقد أنه لا يريد توزيع الأحذية الجديدة لأننا سنخرج غداً. لأنه –ضع فى اعتبارك– من يضمن له أننى لن أصاب بعيار؟ فإن أصبت فهذا معناه ضياع زوج من الأحذية.

– بالطبع. هذا يحدث!

-ثم طلب منى أن أعيد إليه المسطرة.

– وهل ضربك ؟

– كلا!

– أحبب بضباط الصف من هذا النوع. أما أنا فيجب أن يعيش حذائي خمسة شهور كاملة، ويمكنه أن يدوم لولا أن يجانبني الحظ وأطأ روثاً، حينئذ يحترق النعل.

ت قبة الألواح الخشبية المقلقلة، الهواء كثيف، حار. والعرق يتألق في أمام قنديل غاز يشيع فيما حوله ظلالاً قمرية. نهدا بلانكا المنتصبان إن الطاولة ويستقطبان رغبة الجنود المشتتة كأنهما قطبان كهربيان. ، الحانة والسور تمر دوريات الحراسة. وعند الباب، تتحاور جماعة نقسيم البزيتات الخمس، مرتب الجندى فى خمسة أيام. يدخلون يغيروا النقود. فى أحد الأركان، يغنى جنود الفصيلة أغنية بإيقاع نحو وبكلمات ارتجلت فى يومها ثم ذاعت، وتشير إلى حادثة أودت ة قائد الفصيلة فى ظروف بطولية. الموسيقى خابية وحزينة. كول" ، جندى الفرقة الأجنبية، ينظر إليهم شزراً، نافد الصبر، يشرب ق حين يمر الأعرج بالقرب منه، يطلق سبابه ويضيف كأنه صحا من

- أيها الأعرج، سوف أكسر رقبتك!

-أيها الإسباني الوقح!

ثم يوزع الأعرج النبيذ مردداً، في حنقه على جندي الفرقة الأجنبية:

– نزهة صغيرة في سيارة، هذا كل ما أرجوه له!

يقصد السيارة الجنائزية، لكنه يجب أن يفسر مقولته لأن أحداً لا يفهمه من الوهلة الأولى. من هو قائد الطابور الثالث؟ يُسمع اسمه. يرد أحد الجنود النظاميين:

– لا أحتمل هذا الرجل، بيده في خاصرته يعتقد أنه يحي ويميت. رغم كل هذا الصلف أعطاه "بوراحي" التمام في الطريق. رأى سيارته تقترب مسرعة فأمر المغاربة بالتوقف واقترب من الكولونيل:

" – تمام يا افندم، حارقة (ميليشيا) بني سعيد الحليفة.

– شكراً، إلى أين تذهبون؟

– إلى أحد الجيوب، كمين.

– حسن، استمروا.

– تمام يا افندم! "

يسأله آخر :

– وهل كان "بوراحي"؟

– "بوراحي"؟ كان هو الجيب كما قال، وهناك قضى على عميد فرقة ثيرنيولا الذي ذهب إلى هناك لتأمين طريق السيارات.

بعد صمت طويل، يغرق في الضحك فتى أشقر كان ينصت إلى الحديث، بمنأى عن الجماعة:

– ياللسخف: تمام يا افندم!

بدأ الأعرج يتناول الشراب بدعوة من جندي الفرقة الأجنبية الذي لا يدفع بالطبع. كل يوم على هذه الحال.

– اللعنة، الإسباني الوقح!

بيد أن كل شئ يتبدل مع آخر حسوة في الكأس الرابعة. يهتف الجنود

لصاحب الحانة، الثمل الآن، والذى إعتلى منضدة البلياردو وبدأ فاصلاً فى رقص الفلامنكو. يأخذ الأعرج الأمر مأخذ الجد، يقسم أنه كان أفضل راقص فلامنكو فى مقاطعة "المرية"، ويتابع إيقاع التصفيق متحرراً من عرجته. يثب "كراكول" خلفه ليصاحبه. صالحتهما الخمر. يرقصان معاً. يؤدى الأعرج دور المرأة و"كراكول"، مقلداً شخوص الرقص، يدور حوله ويلاطفه ويغازله. ثم تتفجر البهجة حين يقرصه "كراكول". تتقارب الوجوه، الحمراء من أثر الشمس، والملتحية، والحليقة، وتزأر بين حشرجات الضحك. من يد إلى أخرى تمر الكؤوس حتى تبلغ الراقصين. بغتةً، أعيرة طلقات نارية فى المقدمة. يقول الأعرج متوجساً، كالعادة:

– كانت قريبة من هنا.

يثب من فوق المنضدة ويتجه صوب الطاولة، خائفاً.

– لقد قلت ذلك لقائد الموقع: إذا كان سيدى لا يريد أن يضاعف مواقع الحراسة عند المتاريس فليعطوا العاملين بالحانة فى هذا القطاع بندقية، ونحن، بمعرفتنا، سنقيم نوبات حراسة كل ليلة. فالمرء يجيء هنا ليكسب كسرة خبز ولكنه منكشف ككلب. ليست مسألة خوف يا سيدى الكولونيل قائد الموقع، لكن لاحظ أنهم دخلوا من هذه الناحية ثلاث مرات.

خلف الأسوار، يشعر بيانثي بالسأم. يود تأمل نفسه: لكنه لا يستطيع. تضيع منه الفكرة كأنما يريد استكناه أصل العالم. يشعر بخواء عاطفى. لا انسجام له إلا انسجام النبات مع الضوء والماء والأرض. والكراهية؟ آه، نعم! يكره ضابطاً، ولكنها كراهية سابقة على انضمامه إلى الجيش، فضلاً عن أنها كراهية مركزة، يطهرها لهيبها نفسه. يكره ديات

أورينيا بلا أمل فى الانتقام ولا حتى رغبة فى إحياء هذا الأمل. من هو دياث أورينيا؟ لكن، أليست هنالك أية ميول أخرى فى نفس بيانثي؟ أليست هنالك عواطف؟ تعكس نظرته "لا نهائيةً" موحشة ورمادية عبر ذلك الذهول الدائم والأصيل. ينظر إلى صفوف السلك الشائك الثمانية أو العشرة المتشابكة، ثم إلى الطريق الذى يتوارى عند منعطف. تعاوده ذكرى دخول كتيبة المستجدين لدعم الموقع. مرتبات من إسبانيا مقابل خدمات الحراسة ونقود جديدة. سيغش فى القرعة على نوبات الحراسة الليلية ثم يبيع نوبته –التى ستكون الأفضل بالطبع– لأحد "أولاد الذوات". فى المرة الأخيرة باع نوبة حراسته لذلك الصيدلى الذى يلبس نظارة بعد أن سلبه إياها. هذه الليلة أيضاً يقوم بنوبة حراسة. إنها الخبرة. بلانكا، فتاة الحانة، التى لم تعد تقرضه، حين تراه يخرج بزيتة من المؤكد أنها ستعاود إقراضه. تحت لحيته الخفيفة، يضحك ضحكته البعيدة. عيناه الخافتتان والغائرتان تستدعيان الفتاة ويداها فى خاصرتها تغنى دون أن تنظر إليه حين يطلب منها نبيذاً بريالين على الحساب:

"حين أقبض، سأسدد، أسدد،
/ حين أقبض، سأسدد، أسدد"

عبارة غبية طاردته فى كل مكان كلما حضروا إلى هذا المعسكر. كتيبة جديدة، أعيرة نارية طوال الليل. لا أحد يغمض له جفن فى الخيام القريبة من المتاريس. لكن بيانثي يغفو. يغفو واقفاً أو سائراً، طالما هنالك شئ يستند إليه. أحياناً، تكفيه البندقية. أما إذا كان سائراً فيكفيه ذيل بغل، وإن كان عليه أن يأخذ حذره لأن بعضها تثيره دغدغة ويضرط. "وتغيير الحرس؟" الآن يتضح أن الدورية التى كانت تقترب ليست دورية الحرس، بل خدمة الليل التى تتجه صوب مقدمة الموقع. يبرز برج المراقبة فوق الأكمة

ويهيمن على المكان حيث ينبسط الجرف فوق النهر. يسيرون بأربطتهم فوق عباءاتهم المبطنة يضحكون ويمزحون. ويُرى مسدس الطلقات الضوئية الضخم الذي يحمله العريف في خاصرته. فجأة، يصطفون.

– صمتاً! في "قطارين" ! جنباً سلاح! "سقاطة" الأمان في مكانها!

يصمتون في الحال. بعيداً، يعبرون السلك الشائك ويتلاشون داخل برج المراقبة. وبيانثي، دهشاً، ينظر إلى السفح المقابل. فارس وثلاثة جنود.

– قف! انبطح!

-أنا الرائد أنسواجو، أيها الأولاد...

لا يهم –يفكر بيانثي–، هذا "المنحوس"، لقد انقضى موعد دخول المعسكر.

هو يعرف أنسواجو جيداً. اعتاد الخروج حتى النهر للهو. إلى هناك تذهب عجوز مع فاطمة، التي تقبض خمس بزيتات. وذلك ما يسميه هو الخروج تحت الحماية المدنية.

– قف! انبطح أرضاً! عريف النوبة!

-أيها الغبي، أنا الرائد!

لكن الحارس يصر، لا يتراجع. ويراه أنسواجو متاهباً لإطلاق النار، يتذكر أنهم منذ وقت قريب قتلوا زميلاً له بنفس الطريقة: يترجل عن الجواد ويستلقي على الأرض مطلقاً اللعنات. والآخرون أيضاً، في صمت. بيانثي، عاضاً نواجزه، يصوب بندقيته نحو الجماعة، يهمهم بحنق غير مفهوم. يصرخ الرائد:

– ساهشم قرنك!

فيجيبه بيانثي بصوت خفيض:

– بل قرنيك!

يصل العريف:

– ماذا هنالك؟

والحارس يتكهن بعاقبة ما فعله. لكن، على أية حال، ذلك الشخص يستحق ما فعله.

– أوامر سيدى الرائد، تمام الحرس الجنوبى!

-أبدل هذا الحارس وليتقدم إلى مكتب الضابط.

يدخلون. يدنو العريف من بيانثي:

– أوقعت نفسك فى مأزق!

-كان بوسعى أن أفتح عليهم النار دون أن "أثبتهم"!

-ولكن، اللعنة!، لم تقدم على مثل هذه الحماقات؟ أعتقد أنك تفعلها بالفطرة!

يهز منكبيه. مخضرم! أربع سنوات فى الخدمة العسكرية -إذ يقضى مدة إضافية إثر محاكمة- تمنحه شيئاً من الخبرة. شاء لو اتخذ سمتاً متعالياً بيد أن العريف لا يرى إلا قناعاً من الغباء.

– تنتابك نوبات جنون!

يشرب أنسواجو كل ليلة وفى أحايين كثيرة يعن له أن يمر على الخيام ليفاجئ الحرس الاحتياطى:

– كم جنديا...؟

لا بد من الإجابة بلا تردد. يسجل الرائد الرقم فى دفتر.

– عدد البنادق ؟ ... والمرضى ؟

ثم يدخل الخيام ويتأكد بنفسه. يسجل فارق الأعداد ويجمعها ليعطى الجندى جزاءه من الضرب بالعصا بعدد الخطأ فى الأرقام التي ذكرها. أحياناً يصل إلى أربعين أو خمسين. أقسم أن ينتقم من بيانثي. اعتاد أن يقول له وهو يضربه، متذكراً المحاكمة:

– ضائع، فوضوى، ذاك أنت!

بلغ الأمر بالجندى حد الشعور بالرعب من سوط الرائد : لكنه اعتاد الخوف، ومن حين لآخر، كما حدث الآن، يسعى إلى الانتقام. غير أن فكرة المسؤولية تأخذ بخناقه هذه الليلة أكثر من أى وقت مضى. ولكي يستعيد سمته غير المكترث، عليه أن يلقى بنظرة على الخيام التى أودعوا فيها الجثث وأعلى إحدى الشاحنات التى مازالت الجثث مكدسة فوقها تحت الغطاء الواقى من المطر. حكمدار الخدمة يحذره :

– يتم تغيير نوبة الحراسة الآن، ما إن تجرى القرعة على الخفرات. بعد ذلك، تمثل أمام الضابط. أنت محروم من "التعيين" . وتنحصر خدمتك بين أقصى موقعين فى المقدمة.

ثم يضيف قبل أن يذهب :

– مجنون!

(٢)

ثعبان طويل ضارب إلى السواد يزحف إلى جانب المتاريس. الدعم الليلي. إلى جانب كل حارس أربعة رجال. تنطلق نوبة الرجوع. فى النهاية، يقول بيانثي ككل يوم منذ أربعة أعوام:

– ذهب يوم وجاء يوم!

تنبح كلاب فى قلب الليل، فى الوادى الموحش. وقريباً من السلك الشائك تعوي أيضاً بنات آوى، تتشمم النفايات. لا أحد يراها مع أن نحيبها –الذى يفوق نحيب البشر– ينبعث من العتمة القريبة من المعسكر. وليس من الغرابة فى شئ أن العرب، فى أساطيرهم، يربطون بين هذا العواء وبين خرافة الأرواح الضالة. هذه الناحية من المعسكر غير مأهولة تقريباً ويلفها صمت خرب. والركن غير المأهول له وجه شبه بمنظر قمرى: فوهات بركانية لحلقات من خيام متهالكة تشع بياضاً مشرقاً تقريباً.

تأتى التعزيزات وتجرى القرعة. ولا تحول مراقبة العريف دون فوز بيانثي بالنوبة الأخيرة، الأفضل، لأنها تتجنب مهمة استكشاف الأرض المحيطة عند الفجر. يبيعها للصيدلى، لكن هذا لا يدفع له أكثر من ريالين. بعد انتهاء نوبته يرسله العريف إلى مكتب الضابط المنوب الذى يعيده بدوره إلى مقر الحراسة ثم يرسل ملحوظة إلى الرقيب إريارتي. أما بيانثي فيذهب إلى حانة "بلانكا"، معتمداً تكتم العريف. الانضباط ثقيل فى الظلمة الباردة ويجبر المرء على التسلح بالحذر من ناحية المقدمة. يرتفع صاروخ ويشتعل فى السماء كزهرة الماغنسيوم. يدوم عدة

ثوان ويعكس فى نقاء ظل الخيام. طلقات نارية فى الجرف. ولكى يتجنب لقاء قائد الموقع، الذى اعتاد الوقوف بباب مركز القيادة، يحيد عن طريقه ويمر تحته عريش طويل من الأغصان الجافة. يفلسف جنديان جالسان على الأرض، فيقول أحدهما وهو يحك صدره:

– ماذا ينتظر من أرض كهذه، ليس بها عصافير؟

يتعرفان ببانثي بعد مروره:

– إيه، يا أخي إلى أين؟

– اللعنة

– لا تصرخ!

– لم تحن ساعة الصمت بعد!

– تبحث عن المتاعب!

يضحك ببانثي ضحكة خالية من التعبير:

– لقد وقعت في المحظور بالفعل! وأفضل ما في هذا الأمر أنك لا تحاسب عليه مرتين!

– ليتني كنت في الحراسة، حدث تراشق بالعصي هنا في الداخل فخرجنا من تحت الأرض كالسحالي.

يحرر الرقيب خطاباً فى خيمته فينقلب المصباح (معلبة طعام بها بترول). أما شعلته فرباط حذاء من القنب يطل من أعلى المعلبة شبه المفتوح.

– هيا، اذهب إلى الجوار وأحضر ضوءاً!

يذهب جندى المراسلة إلى الخيمة المجاورة. ثلاثون أو أربعون جندياً

يمزحون ويغنون بعد العشاء. يظلم المكان، وعلى الرغم من الوعد بإعادة الضوء، يتأخر الرقيب في الانتهاء من خطابه. شرع جندي يغني: "في بلدي... لا ضوء هنالك، منذ أن جئت أنت إلى هنا". والرقيب يرفع بصره عن الورق وينصت ويدمدم:

– أولاد القحبة يطلبون تسلية! لن تبقى عظمة سليمة!

في نهاية الأمر، ينهض ويضغط الحزام في تؤدة مرعبة.

– ياولد، أحضر الهراوة!

يحمل إليه جندي المراسلة عصا غليظة بها عقد ويحتفظ بها الرقيب دائماً إلى جانب السرير، تحت الناموسية الوردية الأنيقة. بعد ذلك، في الظلام، تضرب الرقاب والمفاصل:

– خذوا ضوءاً، أيها الخنازير.

همهمات متسارعة، صيحات مختنقة. بعد عدة ثوانٍ، وعلى الرغم من أن الرقيب يسد باب الخروج، لا يبقى أحد في الخيمة. تسلق ثلاثة جنود العمود الخشبي ولبثوا هناك معلقين من القرص الخشبي في نهاية العمود.

يلومه إرياتي:

– ذاك أمر مؤسف!

– على العكس بالطبع! ترى لم تسير السرية كالحرير؟ بسبب هراوتي. وأنتم تجدون كل شئ على ما يرام ثم تصطنعون الإنسانية فيما اضطر أنا لضربهم.

يهز بيانثي منكبيه:

– ياسوء حظكم! إذا كسرت ذراعك فلا تستخدم عكازاً بل رباطاً، فهذا أنسب!

يستأنف سيره وعندما يعود من الخيمة يلتقي جندياً بالغ الشحوب، مغطى من قدميه إلى رأسه ببطانية ومستنداً إلى سياج الخيمة. على حاله هذه، منكمشاً تحت العباءة القذرة وغائراً رأسه الضارب إلى الصفرة في الطوية المدببة للبطانية، يبدو في السبعين من العمر. أصيب بحمى الملاريا ولا يريدون إعفاءه من الخدمة، ترتجف يداه. يبدو أن الحمى تمكنت منه. لا يكاد يسمع. على الأرض، الطبق المنبعج والصدئ به قليل من اللبن.

– ماذا تفعل هنا؟

يأخذه بيانثي من ذراعه ويقوده حتى الخيمة، لكن المريض يقاومه، يغمغم من بين أسنانه. يقول له الجنديان الآخران:

– دعه! ليست هنالك وسيلة تجعله يدخل. أصابته الهراوة مرتين أو ثلاثاً ويعتقد أن الرقيب لم يزل في الداخل.

يتردد بيانثي، وتتقد عيناه بتعبير غضب يبدل سمته. لم يعد نفس الشخص، بل الرجل الذى كان بوسعه أن يكونه، وربما الرجل الذى كانه. لكن، كلا. لم يكن بيانثي على هذا النحو مطلقاً. والآن يساوره القلق بشأن أصغر الأمور، تلك القريبة منه، وذاك واحد من مبررات حيرته أحياناً، حين يفكر في السنين السابقة، سنوات الوداعة والإقدام. في مثل هذه الحالات، لكي يعي أمراً طارئاً أو عارضاً، كان يرسم صوراً عامة، تقترب من الكوني والأزلي. كان يعايش الابتذال دون أن يراه أو يستشعره. والدقائق لم يكن لها ثمن في حساب عمره. كان بوسعه أن يحسب الزمن بالقرون وحالته المعنوية بقوانين الطبيعة. أما الآن فيثيره أقل رسم في كل لحظة: الوجه المحموم للمريض بالملاريا يسبب له ألماً شبه جسدي. يلعن ويكتفي بأن يقول له بنبرة بين لامبالية وأبوية:

– تشجع يا أخي، إنها الخدمة العسكرية!

ثم يذهب متعجباً من أن تلك الزوبعة لم تباغته وهو في قلبها. فمن

المعروف أن أية ضربة طائشة تكون من نصيبه. ففي إسبانيا، حين كان يعمل حدّاداً، كان صاحب العمل يقول له مرتين أو ثلاثاً يومياً:

– ماذا هنالك ياولد، أأنت ممغنط؟

لا تسقط "كماشة" إلا حين يكون تحتها. وتطير شظية لتستقر في وجهه. فيغضب صاحب العمل، ابن صاحب العمل، ويقذفه بالمطرقة في ساقه. وحين كان صاحب العمل يطلق عبارته المقدسة "امسكوا من هنا" كي يخف إليه الجميع ويحملوا عنه الدعامة الفولاذية، كان هو آخر من يدركه، غير انه يصل دائماً في اللحظة المواتية ليتلقى لكزة من أحدهم. وعلى سبيل المزاح، راحوا يلقبونه بالمغنطيس. فلم تكن هنالك قطعة من الفولاذ في الورشة لم تصطدم بعظامه. لذا، ربما كان نصيبه نصف دستة من ضربات هراوة الرقيب لو وجد هناك، وهو في الحقيقة آسف لعدم تلقي الضربات بدلاً من الجندي المصاب بالملاريا. في أعماق نفسه، كان يشعر بنحو من الرضى. لكن... من يدرى؟، ربما وقع تحت سوط الرائد انسواجو! من حياته الفتية، العفية، ومن النقاء والاندفاع الفطرى القديم، لم يتبق له سوى الخوف من العصا.

يصل إلى الحانة محدثاً رنيناً بريالية. في لحظة دخوله يصطدم بجماعة تخرج متعثرة. ينتحى جانباً وخلفه الدورية:

– هيا، يا رفاق، فالعقيد لا يريد أن يرى واحداً منكم!

سوف تنطلق نوبة الصحيان مع وشاكة الفجر. وبيانثي، الذى يرتدى احزمته، يختلط بالدورية ويدخل:

– هيا، هيا، أيها الكسول!

يغمز بيانثي بعينه:

- فى حياتى الثالثة ياولد!

الحانة الخاوية تتشح بعري بائس لخيمة فى سوق: كرسى مقلوب، قنديل يحتضر، ظلال تترصد في الأركان. يدندن الأعرج من بين أسنانه بأغنية غير متناغمة تتردد فيها دائماً كلمتا "مدية" و"يأس". بعد ذلك، يبصق ويضع كوبين إلى أسفل ويقول:

- ما أحقر الحياة!

يعود ركضاً إلى مقر الحراسة. ترجّ خزينتا الطلقات اللتان يحملها فيتذكر بيانثي ذلك الرجل الأندلسي الذى يرقص الرومبا مستخدماً مثل هاتين الخزينتين كأنهما نهدان. ظلال بالقرب من خط المتاريس المتعرج، وكشاف جيب يصب رقعة واهية من الضوء على الأرض. ضحكات مكبوتة. من أحد الأركان يصدر صوت مكتوم:

- تمام يا افندم!

طلق نارى على بعد خمسين متراً إلى اليسار. تتواصل الضحكات. انطفأ الضوء. وبيانثي، دون أن يكف عن الركض، يحاكى صوت العيار النارى البعيد: "إينتاااكوووا". وحين يصل عنبر الحراسة يرى الرقيب إريارتى ماثلاً أمام الضابط:

- أية نوبة تقوم بها؟

- الثانية.

- الجندى الذى أمرت بإنهاء نوبة حراسته عليه أن يسير طوال الليل مع الدورية. سيسلمه رقيب النوبة الأولى وأنت إلى النوبة التالية.

- من هو؟

- يدعى بيانثي، جندى أحمق!

يفر بيانثي. يقول دون أن يتمالك نفسه من الضحك:

- نعم، أحمق، لكننى باقٍ فى منزلى.

ثم يدخل الحفرة التى هى مقر الحرس، إلى جانب المتاريس. بعد ذلك بقليل أصل أنا. ألا يوجد أى عريف هنا؟

– الدورية الأخرى هناك، فى قطاع المهندسين.

فى الليل، الحالك الآن، لا أحد يتعرف الوجوه. ونغمة النفير الحادة، التى تعلن بداية نوبة الصمت، طويلة وجارحة. يشير بذقنه:

– هناك، يقول إنه رأى ضوءاً ناحية نبع "مدوة" . أطلق النار ولم يعاود رؤية شئ.

أمر على المواقع. يبدو قصف المدفعية بالغ الاختلاف. دفقات ترج الهواء وتكثفه.

– وبيانثي؟

– تمام، أيها الرقيب!

-كما تعلم، لا تفارق الدورية.

– بلى، يا سيدى.

ثم السؤال المعتاد عندما يكون النظام عسير الهضم:

– ماذا فعلت؟

يفسر العريف الأمر. ولما كان الجميع يعرف بيانثي، لا أحد يتعجب لذلك الانتقام الذى ليس له معنى.

– وبندقيتك؟

– بما أننى خارج الخدمة، ولست سوى مسجون...

حسن. هكذا يتخلص من حمل عدة كيلوجرامات. يهز العريف رأسه فى حسرة فيما يلصق ورقة دخان فى نشنكاه البندقية ليتمكن من رؤيته فى الظلام. يقول جندى:

– من الأفضل طلاؤه بمادة متفجرة!

نسير فى الاتجاه المعاكس. المعسكر هاجع. يرقد خمسة آلاف رجل

أسلموا أنفسهم إلى تعب يوم مقبل. تترك غالبيتهم الخيام -التي يتكاثف فيها خليط من الروائح الخبيثة- وترقد فيما حولها، في الهواء الطلق. هنالك مخبأ تتشعب عنده المتاريس في متاهات. وعلى مقربة من جندي الحراسة، الذي يلوح في العمق، يرقد أربعة آخرون متراصين تماماً على الأرض ورؤوسهم فوق أول صف من الأكياس الرملية وحوامل بنادقهم تلتف حول أذرعهم والأربطة وخزائن الطلقات فوق صدورهم. تنفحهم أفواههم الفاغرة ولحاهم المهملة وألق العرق صرامة باردة كأنهم جثث.

– ماذا هنالك؟

– تمام يا أفندم!

والأربعة النيام، من أعماق اللاوعي، يجيبون أيضاً. وتنتقل عدوى آلية الأقدام والنظام إلى الروح: "تمام يا أفندم"، "...مام يا أ...ندم"، "...م يا...ندم"، "ميانم".

نسير في الظلام، نرفع أقدامنا عالياً، ونتعثر مرةً في الحفر، في ثقة وسرعة هزليتين. هنا، خيام الخدمة الطبية الإضافية. يغطي الجنود رؤوسهم بالبطاطين اتقاء للطل، ويصطفون في صمت رقادهم. ومن هذا الذي يقترب؟ آه، إنه القس ومعه جندي حراسة. يتحدث مع شخص فيجيبه:

– كل هؤلاء، حتى الخيمة الثانية.

أقترب منهما. يوقدان جزءاً من شمعة يقربه الجندي من كتاب الصلوات. طقوس الموتى. هؤلاء موتى إذن. يخرج حارس من الظلال القريبة ويعطيني التمام. يحرس الموتى. يردف:

– ثلاثة من الفرقة الأجنبية يحومون حولهم.

– إن لم يغالبك النعاس فلا بأس.

يجثو القس على إحدى ركبتيه ويقرأ عباراته اللاتينية ويمسح على الأول. لكن الجثة المذكورة تسحب قدمها، وتفركها فى فخذها وتنهض.

يصرخ الجندى الذى يحمل الشمعة وعيناه خارج محجريهما:

– آه، اللعنة!

يبتعد الجندى، الذى لم يزل نائماً، وهو يجر البطانية على الأرض مغمغماً دون أن يعى شيئاً مما يحدث:

– ألن تدعونى أنام؟

يمر بجوار الحارس الذى يوضح:

– يبدو ثملاً تماماً، لقد شممت رائحة نَفَسه.

ثملاً أم لا، يبدو أنه رقد إلى جوار الموتى ظاناً أنها الكتيبة. تُستأنف الطقوس الدينية الآن بلا مفاجآت. وكلما توقف رجل الدين، ينظر إليه الجندى مرتاباً ثم يقول "آمين" بسمت بالغ الصرامة. ويبدو أنه يفكر: "قضى كل هؤلاء نحبهم كى آتى أنا وأساعد رجل الدين". والجثث جميعها تقريباً لضباط. ستطالب أسرهم بها، وحتى إن لم تفعل، لا بد من دفنهم فى مقبرة المدينة بغصن الغار منقوشاً على شاهد القبر. بغض النظر عن فظاعة القتل، وعن هالة البطولة المعتادة، ما أطهر وأجمل الموت شاباً وفتياً، بلا احتضارات قذرة، بلا خورس من العجائز النائحات. ونحن بدورنا، الذين لسنا ضباطاً، من حسن طالعنا أنهم يدفنوننا عادةً فى العراء، على حدود المعسكرات، فى تلك المقابر الجماعية المحددة بمستطيل من الحجارة والتى يكون زخرفها الوحيد طلقتان قديمتان من عيارات المدفعية يبلغ ارتفاعهما نصف المتر، طلقتان فارغتان غالباً ما تحفظان أسفلهما قليلاً من ماء المطر، قليل جداً، لكنه يكفى لكى ينعكس عليه ومض نجم.

رجوعاً من القطاع الشمال الغربي، إلى جانب مطابخ الضباط، ثمة ملجأ به أعشاش المدافع الرشاشة يطل على المنحدر الذى يهبط حتى الطريق. فى هذا المكان، اعتاد حامل أوامر القيادة التجول، محتال كبير من محبى السهر. على سطح الملجأ، المشيد من الألواح الخشبية والخيش، يرتفع قائم خشبى، وفى نهايته طائرة خشبية بديعة تدور مروحتها مع الريح.

ـ طابت نوبتك أيها الرقيب. وإن كنت لا أعتقد ذلك، لأن الطابور سيخرج فى الثالثة، كما سمعت. إذا لم تنظموا "القول" فلن يستطيع ذلك أحد. فنحن هنا نرى أن قيادة الخامسة والثلاثين كانت سيئة فأبادوها.

إنه بالفعل حامل أوامر القائد. خمسون عاماً من العمر وثلاثون فى الخدمة. وهو فى حكم ضابط صف وفقاً لما يردده كلما سنحت الفرصة. حين يعلم أننى أقوم بنوبة حراسة يخرج للقائى قرب الخيمة، حيث نسير الآن. يمسد شاربه فى عصبية. يتشمم رائحة النبيذ. وبعد دخول الخيمة، ينعم النظر إلى إريارتى الذى يرقد على جوال من القش.

ـ إذا أصيب غداً بعيار آخر، فلا فائدة ترجى منه!

أصيب إريارتى بطلقة فى رأسه. دخلت من صدغ وخرجت من آخر. اعتبروه فى عداد الموتى لأنه كان فاقد الوعى ثم لأنهم عاينوا مسار الطلقة الواضح. لكن الطلقة اخترقت الكتلة الدماغية وغيرت مسارها فى الداخل لتلامس سقف الجمجمة وتخرج من الجانب الآخر. لكنه لم يتلق علاجاً مناسباً. وتحت الجلد تُرى دائرتا الجرح اللينتان، فإذا ضغطت إحداهما برفق يبرز جلد الأخرى. والآن، يعانى الرقيب صعوبة فى اتساق حركاته، فمن العسير عليه، مثلاً، أن يلتقط أى شئ، إذ لا تتجه يده قط إلى حيث ترسلها رغبته وعليه أن يصحح الحركة مرتين أو ثلاثاً. فى نومه يصرخ ويتنفس فى حشرجة مخيفة ويتكلم، يتكلم بلا توقف ثم لا يتذكر شيئاً. يمسح العريف على شاربه بشدة حين يرانى أنحنى فوق

حفرة في الأرض وأخرج زجاجة جعة.

ـ من قبل، شربت نبيذاً، ثم عرقاً، والآن جعة. قد تقوم الساعة، لكن لا يهم، ففي الليل لا يهمني أن أفقد رباطة جاشي.

في الخيمة أربعة أسرة، لثلاثة رقباء وضابط صف. أكثرها راحة سريري: فراش من قماش الخيام به بقع دم سوداء. ورغم ضيقه ـإذ لا أستطيع التقلب على جانبـ هو أفضلها لأنه لا يجتذب القمل أو البراغيث وبوسعي أن أرقد بنصف جسدي الأعلى عارياً. تركض الجرذان فوق السياج وتصدر صريراً معدنياً خفيفاً. أما في الليل فتتسيد الخيام. من لديه شئ يؤكل يعلقه في حبل رأسي، في الهواء. أثناء النهار، تمر ركضاً بين أقدامنا، وأثناء الوجبات تجلس على مقربة منا في انتظار الفضلات. إذا أومأنا بأننا نلقي إليها شيئاً، تومئ هي بدورها كأنها تفر، بيد أنها لا تتحرك. وغدوت أنا أكن لها بعض الود، وثمة جنود يستأنسونها في حب. وحين أقول إنني "أحبها" يفهم العريف ذلك على طريقته ويأتي بإيماءة ترفع:

ـ أنا في الحقيقة لم آكلها قط، على الرغم من أنني أعتقد أن صغارها لذيذة الطعم، والفرقة كانت تعد من قبل بعض الشواء منها.

يرتعد إريارتي في فراشه:

ـ آه، لـكـن...لـيـس مـن الـعـــــــــــــدل لأن...لأن....آآآاه!

ودائماً...الانسحاب، بالطبع!

مع آخر كلمة يبدو كأنه يختنق. يشعر العريف بالقلق. يريد إيقاظه لكنني أمنعه: "عليه أن يقوم بنوبة الحراسة الثانية، ويعلم الله متى سيعاود النوم". مصباح بترول صغير يعكس ضوءه الواهي. وتتكاثف العتامة فوق مخروط الخيمة وتحدبه نحو الداخل. طلقات بعيدة، قريبة. أطلقت النيران على أربع دفعات متتالية، وبحساب الوقفات، لابد أن جندي الحراسة هو الذي أطلقها.

قضاء الحاجة يكون هنا، خارج التحصينات، ومنبطحاً. حين يلج العريف العراء يتقهقر بحذر ويحيد عن طريقه نحو الداخل معتذراً. حين تعتاد العين الظلمة يتراءى سور السلك بأوتاده المائلة. ألف عين مجهولة تنظر من أحشاء الظلمة الشديدة الكثافة في الجرف، بين الرتم والزعتر. أصل إلى جانب الجندي. الجرف مشحون بالخطر. "أأنت أطلقت النار؟".

من المقدمة ينطلق صاروخ. وهذا القمر الزائف، الذي يكاد يعشي البصر، يسكت بنات آوى ويغطي بكفنه الطبيعة الميتة. ننبطح على الأرض. على بعد خطوتين يضيء -بجلبابه البني ومفرجاً رجليه- جسد مغربي. سيفه القصير الذي كان يحمله بين أسنانه شق خده لدى سقوطه ليكشف عن صف مزدوج من الضروس في ضحكة مشؤومة. لو أن الرعب تخيل غرضاً يثير الذعر لما وجد ما هو أنكى من ذلك. "منذ نصف الساعة وهو هناك عند السلك، يقذفني بالحجارة ليتيقن من أنني نائم. وكلما أطلقت المقدمة أعيرة ضوئية اصطنعت النوم، فاطمأن وراح يقترب زاحفاً. ولما كنت لا أرى شيئاً، انتظرت حتى ينهض كي أصوب نحوه ولا أخطئه، وحين نهض أفرغت الشحنة. كان آتياً نحوي. الشحنة الثانية أخطأته، لو كنت أخطأت الشحنة الأولى..." مازال الصاروخ في السماء ونحن منبطحون. "هل مات؟". يمكننا أن ننتشله لكي يعالجوه. ينظر الجندي ذاهلاً: "لكي يعالجوه، ما كان عليّ أن أتجشم عناء قتله إذن! فضلاً عن أنه ميت تماماً. دخلت الطلقة الأولى رأسه، لقد باغته منبطحاً". وحين يتلاشى الضوء يتقدم في ثبات نحو الظلمة ويجر الجثة حتى السور -حوالي عشرين متراً- ويشدها إلى وتد بحزامه. ويعود ركضاً. "ما أثقل وزن الميت، ترتخي كل أطرافه...". ثم يردف: "لقد تركته هناك كشرك. سيأتون من أجله".

الاقتراب من هذه الناحية من السلك ضرب من الجنون. ما انفك الجندى يفكر بصوت مسموع: "لكن إذا تمكنوا من انتشاله سأفقد الحزام وسأحاكم بسببه". يتردد هنيهة ويعود إلى السلك منحنياً، فى وثبات طويلة، ويحل الجثة ويعود ومعه حزام قديم انتهى عمره الافتراضي ولا يساوى ثلاثين سنتيماً. شد ما أثارت حيرتى مثل هذه البطولة غير المنطقية. أقول له: "ما أشجعك" فيرنو الجندى إلىّ متعجباً. يهز منكبيه ويجيبنى: "أى شخص فى مكانى سيفعل ذلك".

أى شخص سيفعل ذلك. محتمل. "فى مكانى"، البحر أمامكم والعدو خلفكم، من سيسمح للخوف بان يقضى عليه أو للمغاربة بأن يغرسوا سيفاً بين ضلوعه؟ يردف الجندى: "لا شجعان هنا". بالفعل، فالشجعان الحقيقيون ربما وجب عليهم أولاً ألا يجيئوا إلى هنا. فجميعهم جاء بذلك الجبن غير المفسر الذى يشير إليه الجندى والذى ينبغى أن نتناساه هو وأنا. أنصحه بالحرص وأذهب لآخذ "التمام" من كل حكمدار خدمة وأعطيه للضباط.

يعود القس ومساعده. يحمل الأخير زيت الطقوس مائلاً. المسحة الأخيرة. استدعاء الطقس المسيحى المقبض يضفى على الخطر امتداداً قدرياً وخرافياً. يتحدثان، ولصوتيهما، فى الليل، أصداء مدنية. حديثهما غريب على المكان:

– وهؤلاء...؟

– الحق أن أرواحهم نالت الخلاص.

– حسن، لكن المؤكد أنهم قتلوا بعض المغاربة، هذا ما أقوله.

– لا يهم. فعلوا ذلك دفاعاً عن الوطن.

– هذه الأرض... أهى وطننا أم وطنهم ؟

– هى بالفعل وطنهم، لكن أى مكان ينبض فيه قلب مسيحى هو وطن الله وعلينا أن نحميه من الكفار.

بعد وقفة، يضيف الجندى:

– آه، وهذه الحرب، هل دعا إليها البابا ؟

– كلا، بل الملك.

– ومن يطع الملك يدخل الجنة؟

– أجل، لأن للملك سلطة إلهية.

– كيف؟

– لأنه يمثل سلطة الله في وطننا.

– حسن، لقد تخيلت الله دائماً ملكاً.

– بالضبط.

– لكن لدي سؤال.

– إلي به.

– تقول إنه إذا أصيب شخص بطلقة فى الاشتباك وتلفظ بعبارة بذيئة ومات يدخل الجنة؟

– أجل.

– لأنني سمعت كثيرين يجدفون وهم يسقطون.

– رغم كونها عادة سقيمة، لا يهم فالرب لا يلتفت إليها.

– وخلال المعركة، فرضاً، إذا تحدثت ضد الملك كما يتحدثون هم ضد الرب ثم يضبطونني، هل يعدمونني؟

– يقيناً.

– وأدخل الجنة؟

– مطلقاً، إلا إذا تبت توبة خالصة.

– إذن، لا افهم، فطبقاً لذلك، ارتكاب الإثم ضد الملك أكبر من ارتكابه ضد الرب.

يصمت القس برهة، متردداً. بلغا خيمته. يربت على ظهر الجندى ويدعوه إلى كاس. يشكره الجندى لكنه يرفض. عليه أن يسرع ليتخذ موقعه، فاثناء الليل يجرى تغيير الحرس بدقة شديدة، ولنفس السبب تكون نوبات الخدمة على جانب كبير من الخطورة. يقول الجندى وهو يبتعد:

– أى حرج أوقعت فيه ذلك الأحمق!

(٣)

السكون وظلمة الخارج يوقظان أنواراً وأصواتاً داخلية. وتترى الاستدعاءات فى موكب متألق. للذكرى لغة مغايرة. بين الحديث فى المضارع والحديث فى الماضى يكمن الفارق بين الواقع المفروض وواقع تلاشي بالفعل وأعيد خلقه فى الشعور وليس فى الخيال. والحياة فى المعسكر ليلاً لها نبرة أشد حميمية.

أحلام فى اليقظة أو فى المنام. فى الخندق، والبندقية فوق أكياس الرمل أو بين ركبتيك، تحلم أيضاً. تتذكر وتحلل كلمات الخطاب الأخير الذي يصدر حفيفاً تحت الحزام، فى جيب السترة: وأحياناً، نجد للكلمات معنى غير منتظر. لكن الاستدعاءات تشتد فى موقع (حظيرة خنازير) الحراسة الرئيسى، فى حفرة إلى جانب المتاريس. فى الخارج، السماء والليل الوادع والعتامة اللانهائية تشدنا إلى الواقع. نستشعر الحرية ونجتهد التركيز خشية الضياع، التلاشي. ومع ذلك، يشوب موقع الحراسة نحو من الشعور بالحبس وكل شئ يدفعنا نحو الفرار إلى الذكرى بعد أن سدت الأمل مخاطر الغد. معلبة -القنديل المعروف- تشع على استحياء ضوءها الأحمر القلق. وتتألق الوجوه تحت قناع من الغبار والعرق. فى العراء يرقد عشرون أو ثلاثون جندياً: من استيقظ لتوه ليدخل الموقع، ومن يعود منه مشدوداً إلى أربطة العباءة المتربة. يتحدث شاب شاحب يلبس نظارة وينحني لئلا تصطدم هامته بالسقف:

- أقول لك إن أكل فار أو التهام زوج من الذباب لا يضر بالصحة. ففى

كل يوم، لدى تناول القهوة، تأتي ذبابتان أو ثلاث وتحوم حول الطبق فى وقاحة. إذا لم تذهب بعد ثالث مرة أهش عليها، أقابلها من الجهة الأخرى وبغتة "بلاف!"، بالملعقة. أغرقها فى الطبق، فى القهوة، ولتذهب إلى الجحيم. مسألة كيمياء. لا يختلف ما بأي حشرة عما فى أنسجتنا وعظامنا.

إنه الصيدلي الذي يجد لكل شئ تفسيراً علمياً. "بتطهير الأربطة من الحشرات"، بإمكانك الاستلقاء على الأرض والنوم. ينهض حكمدار الخدمة ويربط حزامه:

– أيهـــا الأولاد! ستة عشر وسبعة عشر وثمانية عشر وتسعة عشر وواحد وعشرون.

من بين من ينهضون، يفتش أطولهم قامة فى جرابه الجانبى وينظر إلى السقف وهو يعض نواجذه، يهمس:

– تثق فيهم ثم.. .لا هي زمالة ولا هي شيء! لا يهتم أحد إلا بأمر نفسه.

– أنشط! كان يجب أن تكون واقفاً الآن! ماذا تقول؟

ينهضون فى تكاسل. ويكظم الجندي احتجاجه بتراخيه الهامس المتمهل. سعال، تثاؤب صاخب.

– واحد وعشرون! ما أسوأ أن يكون رقمك واحداً وعشرين دائماً!

لا اصطفاف ولا أوامر. يخرج العريف وفى إثره خمستهم. يلكز الصيدلي –شبه النائم– زميله بحزامه:

– اسمع، اشتريت من بيانثي النوبة الأخيرة بريالين، والآن يتضح أنه ليس فى خدمة حراسة المتاريس.

– اشتريت منه ماذا؟ – يهمهم الآخر بلا فهم.

يحك الصيدلي صدره في غضب وتتقلص عضلات وجهه ويدور

نصف دورة جهة الحائط:

– بديهي!

ثم يعاود الرقاد. "واحدة ماذا ؟" . لا أحد يدرى. يرفع أحدهم إصبعه إلى صدغه، يحتج آخر معروف بغرابة أطواره:

– ليس لأحد أن يقول عن أحد إنه مجنون، لأننا جميعاً مجانين. وإلا، يجب أن ترونا على حقيقتنا فى بلادنا: فهناك، يكون المرء على طبيعته. أبإمكانك انت أن تنبش فى بلدك جثة على هذا النحو؟ لا أنت ولا غيرك! لان ذلك اقدس الأشياء. لكنهم هنا، نبشوا جثة مغربى مسكين للمرة الرابعة، وإذا قمت بمهمة الاستكشاف هذا الفجر ستجده على حافة الطريق ممزقاً. من نبش جثته؟ سيقولون لك إنها بنات آوى. وأنا أقول لك: اللعنة! ولا أود أن أتحدث أكثر من ذلك، أفضل.

كل الجنود تقريباً شاهدوه بالفعل، ويغرقون في الضحك.

– ما لا يعرفه هذا الأبله أن قوافل الشاحنات تمر فوقه لأنهم القوه على الطريق ولا مفر من ذلك حتى لا يضيعوا الوقت.

يستلقي المفسر ويروح في النوم. ثم أصل أنا الكشك المجاور –كشك الرقباء– وأتهالك فوق صندوق ذخيرة. المكان معتم. صرير معدني على الأرض، تلامس ناعم وهارب في نعال القنب. ليس لدي ضوء. أخرج واذهب إلى خيمتي.

كنت جندياً في نفس سرية بيانشي، ثم رقيت فراح يعاملني بنحو من الريبة، على الرغم من أنني قلت له ألا يحدثني بصيغة الاحترام، مثلما كان يفعل من قبل. فاعتبار "الأشرطة" يحول دون ثقته بى ويعوقها. في الخيمة، أتينا على زجاجة. فى رأى بيانشي، الحبس بامر الرائد يساوى أربعين أو

خمسين كيلومتراً، السير حوّل المعسكر طوال الليل، تصعد وتهبط، تتعثر وتسقط في الظلام، تبدد آخر قواك فوق ذلك النعاس الوحشي والثقيل والشديد الوطأة على النفس كأنه مرض. في الخيمة قد يستريح شيئاً. وأنا وددت لو قص على بعضاً مما عنده. وددت لو سبرت سر تجرده البارد والواهي من شخصيته في الوقت الحالي والذي يظهره بمظهر المتنائي عن نفسه. لكنه يستهل حديثاً متلعثماً، تائهاً، ويحاول اتخاذ سمت حاد لا مبرر له. بيد أن ابتسامة خامدة تكذبه. ما أريده أيضاً هو أن يحدثني عن ملابسات حياته العسكرية، لكنه يصر على تذكر سنوات عمله في ورشة الحدادة. ويريني ست ندوب على الأقل في زهو صامت. طلقات؟ كلا: آثار عمله الشاق في الورشة. اثنتان أصابه بهما صاحب العمل، لكن بيانثي يذكره بلا حقد، كمن يذكر من علم المرء العمل وكسب لقمة العيش.

– عامل آخر في ورشة الحداد، فرانتشو، وأنا كنا أشهر الحدادين في كل الناحية. كنا نفتح الورشة مع طلوع النهار ونخرج السندان الصغير إلى الباب. وما أجمل شدو الكيرا أشاهدت مرة كيف تقوم دوامة على الأرض؟ هكذا تكون بؤرة النار وسط الفحم. كنت أعمل لقاء الأكل واثنتى عشرة بزيتة في الشهر.

أعيتنى الحيلة لتجنب حديث بيانثي عن تلك الفترة. أنصت إليه وأنا أفكر في أنه يجد في ذلك متعة فريدة. ثمة إطلاق نار في الخارج. وبيانثي يلتفت برأسه:

– هؤلاء الجنود أجبن من قطيع ديكة رومية.

ثم يعود إلى ذكرياته، بقفزة أخرى إلى الوراء. ذكريات قرية مجدبة تحيا على الزراعة. والده ظل أربعين عاماً يحرث أرض الدوق دون أن يرى محصولاً جيداً. وكل خمس سنوات أو ست كان يحصد ما يكاد يكفي لتحمل غضب مدير الإقطاعية الذي لا يلتفت إلى مبررات.

- كنت في الثانية عشرة من عمري وأسير خلف المحراث من طلوع الشمس إلى غروبها. كان علي أن أضع نير المحراث فوق كتفي وأحياناً كنت أتعثر وأسقط ويغطيني طمي الخط. كانوا يدفعون إلي بنصف رغيف ورأس ثوم مقابل العمل طوال النهار، وكانت أمي تقول إن ذلك لا يكفي. في الثلاثين من عمرهما بدا أبواي في الخمسين، متيبسين وهزيلين. كانت أمي تبكي دائماً، وأبي، مذعوراً، كان يقربنا إليه ويقول: "لا تبكوها، فقد يكف بصرها من كثرة البكاء". قد لا تصدق هذا، بيد أني لم أرَ والديّ يضحكان قط.

- والأخوة ؟ كم أخاً أنتم؟

- في ذلك الوقت كنا ثلاثة. أخ يصغرني وأخت، لو عاشت لبلغت الآن عشرين عاماً. وهو ستة عشر: لكنه أصيب بمرض في طفولته وأضحى معتوهاً بعض الشئ. من حيث العمل يعمل. لكنه، أعني أنه عندما يحاول تفسير أمر تفر منه الفكرة...

لا يريد الاعتراف بأن أخاه أبله، لأن الكلمة تناقض حنان ذكرياته.

- في الرابعة عشرة من عمري قلت لأبي: "لماذا لا نذهب إلى "ببشتر"، فهي مدينة بها قطار وأسقف؟ هناك ستعمل أقل وأنا على يقين من أنك قبل ستة أشهر ستتمكن من شراء بذلة جديدة". ففي صغري، كان يتملكني هذا القلق نحو أبي. فهو إذ لم يبتع سروالاً بائساً في ثلاثين عاماً، كان مظهره بالغ السوء: رقع من فرو الماعز ومن القنب وحتى من قماش الجوالات. لكنه كان يقول دائماً: "الظاهر أن الأرض ارتوت هذا العام وينمو القمح جيداً". في أحد الأيام، رحلت إلى ببشتر. كنت أستشعر ثقة أمي، ورغم أنها لا تقول شيئاً، كانت تلك الثقة ترضيني وتشجعني.

« في منديل، وضعت لي رغيفاً لدناً كانت اقترضته وقميصاً نظيفاً وستة ريالات يعلم الله من أين جاءت. أردت أيضاً سكين رحلات لكن أمي لم

تعطني إياها. قالت: "مادمت فقيراً لا تحمل سلاحاً أبداً. فذلك لا يفيد إلا الأثرياء". في الطريق، نحو المساء، التقيت أبي وكان لونه معتماً من القر، وعلى ظهره حزمة من الحطب المبتل. كان الطل يغطيه ويقطر من مرفقيه. في أيام الشتاء تلك، كان يذهب إلى الجبل ويعود بقليل من الرتم والجوالق كي نتمكن من إشعال النار ليلاً لندفأ ونسخن بعض الحساء. في وجود نار وخبز، كان أبي يتحدث ويبدو آخر. وكان دائم القول: لو سار الحول على مايرام سندفع المتأخر علينا ونشتري عدة أشياء وخنزيراً صغيراً. وكانت أختي تريد دجاجاً أيضاً، وكانت أمي تنصت إلى الجميع ولا تقول شيئاً، وأبي يقرب يديه إلى النار ثم يأخذ أيدينا ويضغطها بين يديه إلى أن نروح في الكرى. حين التقيت أبي في الطريق قال لي: "في رعاية الله. كن رجلاً شريفاً ولا تنسنا".

• في ببشتر، حالفني الحظ. قبل أسبوع عملت صبياً في ورشة حدادة، بلا أجر، لقاء الوجبة فقط. بعد عام كنت أتلقى خمس عشرة بزيتة في الشهر أرسلها إلى أبي. في النهاية كنت أكسب ستين بزيتة أرسل منها خمسين. وبعشر بزيتات في الشهر ما كان بوسعي أن أذهب إلى المقهى أو أتعرف إلى فتاة. ولما كنت "معلماً"، كان ملبسي يناسب درجتي، كما تعلم، وكان ثمن السروال ثماني بزيتات وثمن نعال من القنب بزيتتين. ثم حل عامان لم نحصد فيهما حتى البذور، حينئذ كنت أرسل إليهم الستين بزيتة. اشتد عودي. كنت أقذف قضيب الحديد إلى مسافة ستين خطوة من مكاني. لم تعوزني الصحة. لكن الحال لم تكن كذلك في المنزل. وفي أحد الأيام، كتبوا لي أن أمي مريضة. أخذت القطار حتى "بييران". وهناك بحثت عن عربة ذاهبة إلى القرية أو عن أحد يقرضني بغلة. كان الجليد يصل حتى الخصر في كل الناحية ولا تخرج أية عربة، كما أن أحداً لم يشأ أن يقرضني بغلته واضطررت إلى السير على قدمي. ست ساعات حتى

قريتى، كان كل الجيران فى المنزل ومضت خمسة أيام أو ستة دون أن توقد نار فيه. كان أبى جالساً فى المطبخ وعيناه ناشبتان فى نعليه، مازالت أراه. كانت أمى قد قضت نحبها. وقال الطبيب إنها استبقت الموت بشرب الماء البارد والنهوض عارية: وأبى، الذى كان يعرفها جيداً، كان يصدقه... فقد قال لى فيما بعد: "كانت تدرك أن لا علاج لها ولم تشأ أن نبذل فى الأدوية البزيتات القليلة التى ادخرتها بحرمان كبير لكى تشترى لأختك ملابس تسترها" . كانت الفتاة فى الخامسة أو السادسة عشرة من العمر. خلاصة القول إن أبى...

شخص ما يزيح قماش الخيمة.

– أأنت وحدك؟

– تقدم، تقدم!

-سامكث لحظة واحدة. كنت أبحث عنك ولم أشأ المجئ إلى هنا فى حضور الرقباء الآخرين. سنخرج غداً. أنبدأ النوبة؟

– ليس لدى عرق.

– أعطنى ست بزيتات وسأحضره أنا.

إنه جندى من مقاطعتى، من قرية زرتها فى العديد من المرات. أقرب إلى ببشتر من قريتى. يعرف بيانثي ولكنه لا يقول له شيئاً. يدعونى إلى خارج الخيمة:

– أتعلم؟ هذا المدعو بيانثي أمسى مترصداً وليس من مصلحتك أن ترافقه، خاصة وقد أصبحت رقيباً.

ثم بعد وقفة، يردف: "كان من أقوى شباب الناحية، لكنه الآن لن يعرفه أبوه الذي أنجبه" . يخرج ركضاً. من جهة المتاريس يسمع تنفس

متعب، حشرجة، ويتحدث شخص كأنما يحلم. أصيخ السمع. أتسمع يا بيانثي ؟

– منذ برهة. إنه مريض بحمى الثلث.

نخرج. مازال الجندي المريض بالملاريا مستنداً إلى السياج، مطوياً إلى الأمام، وقد انحسرت عنه البطانية والعباءة. عيناه هائمتان بأحد أركان المتاريس الضارب إلى البياض، وتعكسان حجارة متراصة وأكياساً رملية مبقورة؛ ووراءها، الليل البعيد. على غير وعي منه وطأ طبقه النحاسي فانسكب ما كان به من لبن عند قدميه. يرتعد نصفه الأعلى في وهن مع كل خفقة. ليست هنالك وسيلة تجعله يدخل الخيمة. زادته الحمى رعباً، إحساسه الوحيد إزاء ما يحيط به. كيف لا يرحلونه؟ يستعيد بيانثي ضحكته البعيدة:

– المستشفيات مكتظة بالمصابين، لا يوجد مكان شاغر. والأسرَّة حجزت لأبناء الذوات. ابن دوق قريتي يعيش في مستشفى "دوكر" كامير، يحلق ذقنه كل يوم ويتعطر بماء الكولونيا. المخنث!

نمدد المريض على الأرض ونطوي بطانية تحت رأسه ونبسط أخرى فوق جسده. بيانثي يتفحصهما ويقول:

– ستأتي عليه البراغيث ما إن تلفحهما الشمس.

يهذي المريض وتصطك أسنانه. وكلما أردت أن أكلمه قاطعني، باذلاً مجهوداً عظيماً في محاولة النهوض:

– تمام يا افندم!

يردد ذلك مرتين أو ثلاثاً على نحو مضطرب، ويبذل كل قواه في الحرف الأخير. لابد أنه تجمد من البرد. يرتعد، لكن يديه محمومتان. ليس في وسعنا أن نفعل شيئاً. نعود إلى الخيمة في صمت. يهز بيانثي رأسه ويتحسر في نفسه.

- إنه لهالك. حين تتورم أفواههم على هذا النحو وتتقرح أجسادهم لا نفع يرجى منهم. من الأفضل ألا يشربوا ماء.

بعد وفاة والدته، بقى ثلاثتهم، الأب والفتاة والأخ الأبله. كان فى وسع الأخير أن يعمل مع أبيه وتنهض الفتاة بشؤون المنزل، مهمة سهلة فى غياب ما يمكن عمله. تقبل الأب موت زوجته بقدرية غير مبالية، لكن بيانثي لم يستطع لفترة طويلة أن ينسى ظل جسدها الذى يعكسه على حائط الطوب اللبن ضوء القنديل المهتز. ولم تمر ثلاثة شهور على عودته إلى ببشتر حتى مرضت أخته.

- كما ترى ياسيدى، كانت بهجة أبى الوحيدة. هل تصدق أنها ماتت هى أيضاً؟ فى ذلك اليوم جن جنونى أبى. كان يؤدى واجباته نحو الكنيسة دائماً. مازلت أراه يذرع الحظيرة، شديد الصفرة، والسيد القس يعزيه: "إن الرب ليختبر إيماننا بألف طريقة؛ الصبرا" . فيصرخ أبى: "الرب، أهذا من صنع الرب؟ أين الرب يا سيدى القس، أين الرب . . . " .

حينئذ غدت وحدة الأب، فى بؤسه، أشد وطأة ومأساوية. وراح بيانثي، وهو يرى الأبله يستأنف بلا اكتراث حياة الحرث ويقارنه بأبيه الذى لا يزال ذاهلاً، يسائل نفسه ألا تكمن السعادة الحقيقية فى الغياب التام للحس، إلغاء الذهن؟ راحت مدخرات الأم فى علاجها ومصاريف جنازتها. لم يرد الأب أن يسمع شيئاً عن رحيل بيانثي عن القرية. وأضحى أفضل ما فى حياته "حبه" للمقابر. فيما عدا ذلك، لم يكن ظل الابن الذى ذهب الالتهاب السحائى بعقله ولم يكن ظله هو سوى أضغاث أحلام مبهمة. وحيت رآه مدير الإقطاعية مهزوماً على ذلك النحو أراد أن ينتزع منه الأرض لكن بيانثي حادثه، سيرسل إليه الإيجار من ببشتر.

عاد إلى ورشة الحدادة. وصاحب العمل، مشفقاً عليه تارةً وساخطاً أخرى، كان يدعوه إلى الشراب أو يرمى ساقيه بـ"الكماشة". ثم وقع له حادثان. سقط محور عربة على قدمه وطار إسفينان من المخرطة ليصطدما برأسه. "اللعنة، كأنك من حجر المغنطيس!". في أحد الأيام أعمل الفكر في تلك الكلمات ووجد أن لها مغزى أعظم وأرحب. كان بيانشي يستقطب الحديد -المصائب، العنف- حوله. لكنه لم يكن الوحيد، بل الكثير من الفلاحين والعمال من طبقته. كان يدفع الإيجار لمدير الزراعة ويرسل ما تبقى إلى والده، لكنه لا من الأول حظي بأقل تفهم -كان يقترض البذور أو يؤجل سداد الإيجار في السنوات العجاف- ولا استطاع أن يكفل لأبيه واخيه طعاماً أو حتى ناراً في المنزل. ولم يتلق أيضاً كلمة تشجيع أو رضى من صاحب العمل، رغم أنه كان يعمل اثنتى عشرة، أربع عشرة ساعة يومياً. لكن أية محنة لم تدخل اليأس فى قلبه إلى حد تحطيم الأمل تماماً. فستأتي سنون الخير ولن تكون ثمة حاجة إلى ما يرسله وسيدخر المال لكي يبتاع "عدةً" ويستقر.

ثلاث شحنات انطلقت في المقدمة. "الجنود فى برج الحراسة يتسلون". ثم تأتى الصواريخ التى يخترق ضوؤها قماش الخيمة فيخنق نار قنديل البترول حتى يطفئها.

ينهض إريارتي في عجلة مذعوراً:

– إيه؟ آه، كنت أظن...!

يطلب شيئاً يشربه. وبيانشي يناوله الزمزمية وبها نبيذ.

– أنت دائماً مستعد!

يهز بيانشي منكبيه:

– الخبرة، أيها الرقيب!
-أحان موعد خدمتي؟
– كلا . سأوقظك في حينها .
– كيف حال الليلة ؟ أثمة هرج؟
– دائماً!
-أي معسكر هذا! ثم يقولون إنه هادئ. حماية الطريق لم تعد .
– إيه ؟
– لا شئ يا رجل. لم أفق بعد . يبدو أنني حلمت أن حماية الطريق لم تتمكن من الانسحاب .

يعاود النوم. كان بيانثي متوتراً فيما كان إريارتي يتكلم. والآن يعود إلى طمأنينته السابقة .

حينئذ، وجد بيانثي فتاة شقراء حلوة كعنقود عنب مرصوص. صار خطيباً لها وأحس بحيرة الرغبة الأولى في المساءات الدافئة البهيجة. يتردد بيانثي: "دام وقتاً قصيراً. في أحد الأيام شاع همس..." همس أهاج قلبه وحرمه العيش في سلام. رأوا خطيبته مع الملازم ديات أورينيا –من جديد يتهدج صوته عند ذكر الاسم– ساعة المغيب، عند النهر، على الجانب الآخر من القرية. ظن بيانثي أنه سيجن، وتأخر في فهم أن تلك الحزمة من القلق والحيرة والهذيان والحقد لم تكن سوى الغيرة العادية والمبتذلة. أسأله هل ما زال يحبها فيجيبني، وقد أسقط في يده، أن نعم، وإن كان يتذكرها كأنما قضت نحبها.

دخوله في تمام رجولته لم يكتمل حتى عرف الحب. لم يفده في شئ أن يكون بطل الناحية في رمي القضيب –وهو امتداد لرياضة رمي الحربة التقليدية– أو أن يكون أفضل حداد في تلك الأرجاء. الحب كان يرقى به

إلى مرتبة البشر، وبدونه كان كل شئ مصطنعاً وزائفاً. وبهره انطباع الأيام الأولى المشرق، الذى جعله يحلم بحياة جديدة أكثر صفاء، ذات ملامح اشد عمقاً ورسوخاً. وتعززت وداعته الفتية السابقة على نحو أشد. تقرب إليه زملاؤه فى العمل، كل يطلب منه النصح فى شئون المهنة. وكان هو الذى تمكن من رفع أجر اليومية، بعد أن هزم عناد صاحب العمل الذى أقسم أن يقتلهم جميعاً قبل أن يسمح بذلك التراخى. وتلك الواقعة مع خصمه أخمدت قليلاً أحاسيسه. لكن وجب عليه أن يكافح، أن يدافع عن حبه، عن كنزه. عاد يبحث عن خطيبته. وفى نفس اليوم الذي تواعدا فيه أجريت قرعة الخدمة العسكرية، وحين علم أنه سيصبح جندياً تبدلت أفكاره فى الحال. زايله نفاد صبره بشأن التأكد من أنها تحبه ليذهب بعدها إلى دياث أورينيا و"يحطم رأسه".

ومنذ القرعة إلى التعبئة إلى التجنيد، لم يستشعر انصرام الأيام. كان يمقته إلى درجة القتل. ولولا حاجته إلى الحرية كي يطعم أهله لكان قتله. وفى فترة التجنيد، كان الملازم دياث أورينيا معلمه. وكانت تثقل عليه طاعته كجبل من جليد. كان ذلك أول استسلام. فهو ليس فقط لم يقتله بل إنه فى أحد الأيام تلقى منه صفعتين وقرر أن يدخرهما له. فقد وظيفته فى ورشة الحدادة. وأحس بمرور الأيام بأنه ينفصم عما كان يعتبره، على نحو مبهم، حياته.

– وأبوك، أكان ثمة محصول ذلك العام؟

– بدأ الربيع على نحو بالغ السوء. فى عيد القيامة سقطت اربع قطرات مطر؛ فقط حتى لا تخذلهم، فتلك الأرض مجدبة وغير نافعة. وأتى الجراد على المحصول الهزيل.

الرجل الذى من مقاطعتى يعود ومعه زجاجة ممتلئة حتى منتصفها. يناولنى إياها. "هيا، اشرب". اعتاد أن يقدمنى على نفسه فى الشراب. وأنا

اعتدت نسيان أن في عنق الزجاجة ثلاث دبابات أو أربعاً. أشرب ثم أنفخ فالصق دبابة في قماش الخيمة. أشاطر الصيدلي أفكاره. يتجرع بيانشي حسوة طيبة، والآخر، الذي يراقب بصبر نافد مستوى الشراب في القنينة، يحتسي ما تبقى -حوالي نصف اللتر- دون أن يتنفس. ثم يرمش بعينيه وتسقط دموع على خده وعلى لحيته القليلة. يتنحنح ويهز جسده كأنه كلب مبلول.

- حظاً طيباً، هه؟

يطلقون على ذلك "بدء النوبة". وأنا لا أعاود رؤيته إلا في اليوم السابق على المسيرة أو العمليات أو الكمائن أو النقل. يأتي في طلبي حتى لا يدع طقوس "المواطنة" تلك بلا اكتمال. يذهب لكنه، قبل ذلك، يسأل:

- ألديك من يستطيع رعاية قطة ربيتها أنا في قنادسة، لأنني لو تركتها ستأكلها الكلاب؟

يغمز لي بعينه بإيماءة بالغة القسوة. ويصر على تذكيري بنصيحته السابقة بشأن بيانشي. بالفعل. هو "مترصد". هذا ما يقال عمن حوكم لأية جريمة ارتكبها أو، ببساطة، عن أي جندي مراقب أو غير مرغوب فيه. لا يقال عنه "كذا" أو "كذا" بل تطلق عليه هذه العبارة الدقيقة المعبرة: "مترصد". لكنهم إذا ترصدوا الجميع لوجدوا في الجميع نفس الجرائم المحتملة. ومسألة التمتع بسمعة طيبة ليست إلا ضرباً من حسن الطالع. احرص على ألا يترصدوك لأنهم إن فعلوا فسيجدوا في أعماقك نفس التمرد الصحي ضد العبث.

ليلة صاخبة. مزيد من الطلقات. حول المعسكر الهاجع ترتفع بنادق جنود الحراسة في لعبة مرعدة ضد الظلمات.

يمقت بيانثي ذلك الرجل عبر أربع سنوات من النسيان، وذلك المقت هو وحده الذى لا يزال يضفى على كلماته وإيماءاته بريقاً إنسانياً.

– وأبوك ؟ ماذا كان من أمره؟

يتوقف، يفتش فى جيبى صدارته. يخرج ورقة متسخة متآكلة الثنايا، آخر رسالة تلقاها في أفريقيا، منذ ثلاثة أعوام. أحاول قراءتها بلا جدوى. أسفل السطور الأولى ثمة ثلاثة حروف كبيرة فى الوسط: "أ.د.ج.". ثم نتحدث عن أخيه، الذى يبيت فى الحظائر لأن الناس إذ يتذكرون أسرته الصالحة يقدمون له "سقف بيتهم". والأب؟ بيانثي يستعيد الورقة:

– لا تمكن قراءتها، لقد امحت من أثر العرق. عندما جئت إلى هنا توقفت عن إرسال إيجار الأرض لمدير الزراعة، وأبى، لئلا ينتزعوها منه، باع كل شئ وسدد العام الأول. فى العام التالى، وبعد محصول حقير –نضجت السنابل قبل أوانها ففسدت–، لم يحتمل. كان يعمل ليل نهار، ويذهب إلى الحقل ليرى هل اجتاح الصقيع الأرض أو غمرها الطل. كان يرفع بيديه كل حجر وينزع الأعشاب الضارة. لم يكن يأكل، ولم تكن هنالك نار بالبيت. اما أخى فرحل حين لم يجد خبزاً، فأعاده الحرس المدنى. فى مساء أحد الأيام، عثروا على أبى ميتاً عند تخم بالحقل. وكتبوا لى انه مات بمرض فى القلب، بيد أنه مات جوعاً.

لم يذكروا ذلك لأن من العار على قرية أن يموت أحد أبنائها على هذا النحو. فى ذلك العام فاض المحصول –يهز رأسه فى يأس–، سخرية الحياة!

بعد ذلك، يتحدث عن تلك السخرية بتجهم، كأنها سر لم يطلع عليه سواه.

فى قطاع المهندسين، خلف خيمة، ثمة ضوء وشخص يتحدث بصوت منخفض. يقامر جنديان، بورق لعب قذر. فوق ورقة، إلى اليسار، ثمة فأر ميت، ويضعان آخر من مخطمه على حافة ورقة أخرى.

- على هذا، كم تراهن؟

- ثلاث بزيتات والفأر الآخر كاملاً!

ثمة أعراض طاعون دملي، ويدفعون ريالاً لقاء كل فأر ميت يقدم إلى مقر الحراسة حيث يعدون قائمة بذلك. من قبل، لم يكن مطلوباً سوى إحضار أذناب الفئران، غير أن الجنود كانوا يزيفونها، أما الآن فيطلبون الفأر كاملاً. وثمة من يربيها، كما ظهر "الوسيط" الرهيب ومن يخزنها ويشتريها بخمسة عشر سنتيماً.

ويلجأ الجنود إليهم لأنهم في مقر الحراسة لا يدفعون إلا بعد مرور خمسة أيام على إحضارها. حين يريانني يخبئان الورق والفئران. وينهض أحدهما مذعوراً.

- ماذا تفعلان؟ أتلعبان؟

- كلا، ياسيدى.

أما الآخر، الأشجع منه، فيعترف:

- لمَ نكذب؟ لقد رآنا!

هما الآن واقفان، في وضع انتباه. يحملان باقة معتادة منها ويخفيانها بصعوبة خلف سراويلهما. جيب أحدهما منتفخ ويشى باحتياطى متوسط الحجم. يتواصل النباح بعيداً جداً، ولولاه لما أحسست باللانهائية التى يخلفها الليل.

(٤)

أتحدث إليه وأحياناً يتأخر في الرد أو لا يجيب. يتعثر أكثر مما يبرره تفاوت مستوى الأديم. بغتةً، في منعطف، يواصل السير في نفس الاتجاه ويسقط فوق المتاريس. يسير نائماً. يصل حكمدارات الحفرات ويقول له أحدهم إن عليه الخدمة في خيام العيادة. لم أزل إلى جانب المتاريس، مهموماً بنجاوى بيانثى. لو أننا تحرينا بقية الجنود كم قصة مشابهة سنسمعها. وذلك المريض بالملاريا ربما يعيش هو أيضاً خاتمة مأساة مبتذلة مثل بيانثى. هنا، تلبس المحنة زياً وللحزن برودة تثير الجنون. بعد نصف الساعة، في الجولة الثانية، أرى بيانثي واقفاً وسط الجثث ومستنداً إلى السياج.

– كيف الحال؟

– تمام ياافندم – يرد وهو يغالب النعاس.

ليس من الصعب تخيل ما يحلم به. فبسبب قلة النوم والراحة تتلاحق الكوابيس، وبعد ما قصه عليّ يحلم بيانثي بالطبع بالشئ الوحيد الذى لا يزال يربطه بالحياة: حقده على الملازم دياث أورينيا. هى تلاشت من ذكرياته، والحب البعيد وهن ويطفو كسحابة فوق حقيقة حقده. وكم باغتنى ذلك، فقد كنت أعتبر بيانثي رجلاً منفصماً عن الحياة، عن نفسه، ويتدلى منها بالكاد بإيماءة واهية، ذاهلة، بفعل نزوة من نزوات الطبيعة، مثل تلك الصخور التى يحفظها توازن عبثي: "لست سوى روتين"، "لم يعد ينقصك إلا أكل قليل من الخزاريف"، "احترم جدك"، "ما أسوأ

الحظ" . ثماني جمل أو عشر من هذا القبيل هي كل حصاده، يرددها منذ أربعة أعوام، حسب الحالة، بضحكة غريبة لا شئ تحتها.

في الحياة المدنية ربما نسى خصمه؛ لكن مسألة عدم رؤيته فقط لأنه جاء إلى المغرب حفرت في نفسه الحقد كوشم في القلب؛ والحياة العسكرية، الخضوع لضباط آخرين يتمتعون بنفس السطوة، كانت تثير سخطه وتحييه. يحلم بيانثي بأنه يلقى دياث أورينيا ويقترب منه ليقتله؛ ولكن، بما أنه يجذب الحديد، يطير مسدس الملازم نحو رأسه وكل "سونكي" في الكتيبة يطير في الهواء ويحاصره.

في الركن الجنوبي، إلى جانب ملاجئ المدافع الرشاشة، ينشط الليل بالف همس. إلى الخلف قليلاً، في العيادة، يسمع صخب مألوف. قد يكون المجنون في واحدة من نوبات سهاده المرعبة. مجنون "متعقل"، ينهض في منتصف الليل ويصرخ ويهذى. وعلى الجانب الآخر، في ملجأ، يلعب الضباط الورق. والرائد، الـ"دون جوان" الأرمل، الذى يكتب كل يوم إلى إحدى عشرة إشبينة، حاضر هناك أيضاً وكذا مقدم الكتيبة، الضامر، المعروق: روحٌ مدني في معناه الإيجابي.

يقلد المجنون نوبة انتباه للجنود:

– تاراتيتاااااه، تاراتا تيييبي، الكولونيل، بيان!

ثم نداءان أو ثلاثة معبرة، وبغتة، يبدو وكأنه يلتقط خيط تهويماته: نحن نمزق الكاكي زحفاً بهذه الجبال وأنتم تشربون جعة مثلجة وتلعبون الورق وتكتبون بيانات: "الفقرة الرابعة من البيان الأول! نحيطكم علماً بأن الرائد المذكور يستحق ضعف مرتبه مكافأة، لأن خمسين من رجاله قتلوا". ثم تنهال عليه الأوسمة. هوب، لليمين انتشروا. ثم الانسحاب قفزاً، مثل

أزيز الحصاد. ثم ترسل الإشبينة كعكاً وتكتب على ورق عذري. أوغادا سروالي انتهى عمره منذ عام، ويطلب البق غيره منذ فترة، لأن البرد يدخل من الثقوب. ولكي ينقلوك إلى المدينة؟ ألفا بزيتة بالتمام والكمال! لاتخفيض حتى لأبيهم الذى أنجبهم. وأبناء القساوسة وحدهم بوسعهم العمل في المكاتب. وإلى المستشفى؟ المستشفيات من أجل الموسرين. للخلف دُر...، وزنبور في الزمزية. وإذا كنت أبقيت الماء حتى الانسحاب فالويل لك، شربه نعلاك.

يجسد منادي منتصف الليل ذاك روح العدل في المعسكر. والعدل جنون في هذه البقاع. عيار ناري ثم أعيرة أخرى إلى أعلى، إلى أسفل. يصرخ المجنون:

– أطلقوا النار على ذيل الذئب! رررراب، رررراب! لا تدعوا ابن بغي واحداً من هؤلاء. رررراب!

– لنر، أين الممرضون. فليسكتوا هذا التعس. متى يرسلونه إلى المدينة؟

– إلى المدينة؟ –يصر المجنون– أعطهم ألفي بزيتة ويرسلونك إلى المدينة.

يزأر "الشاحنة":

– إن لم تسكتوه سأوسعه ضرباً بالهراوة.

– أنت "الشاحنة"، أليس كذلك؟ أطلقوا عليك هذا اللقب منذ نكسة أنوال، لأنك بلغت المدينة قبل أية شاحنة ودون أن نعرف كيف. أما من حيث موقعك فكنت في الخطوط الأولى، فلا تنكر.

ينهض الضابط ساخطاً. وزملاؤه، الذين ينفرون منه، يتكتمون الضحك بصعوبة ويظهرون له أن جزاءه كان جائراً. لكن "الشاحنة" لا يرحم. يتدخل أحد أطباء الجيش ويؤكد لهم أن المجنون سرعان ما سينام.

ويردف:

- إنه لبائس! فضلاً عن جنونه، لديه حروق من أثر الغازات الكاوية. فقد حملت إليهم الريح غازات من الخامس من يوليه في تازة وتقرحت تقريباً أجساد كل جنود أبراج حراسة القطار.

يقول شخص حاقد على الطيارين للمقدم:

- يا للحمق! إلقاء غازات في عكس اتجاه الريح.

خلف الظلام المتشابك وراء الملجأ تمر الدورية. وأحد الحراس، من مخبئه خارج نطاق الموانع، يقول لحكمدار النوبة بصوت خفيض ورخيم معاً، يأتي من وراء الظلال:

- تمام!

أعاود المرور بالقرب من العيادة. أخبر المجنون على الالتزام بالنظام. ثمة آخران: أحدهما يمضي النهار مصدراً أوامر ورأسه منخفض ومائل إلى الأمام إلى حد أنه يحفظ توازنه بصعوبة وبقفزات كبيرة. يصدر صراخات مرعبة وغير مفهومة -الأوامر- كلما توقف واستدار للخلف. ويسمع صراخه في أنحاء المعسكر، ولا أستطيع رؤيته في عناده الصارم دون أن أحس بأن احتجاجاً يائساً يصرخ في قلبه. أما الآخر، الصامت والمنزوي والخجول، فلا يضايق أحداً، ينظر في حذر إلى كل مكان ويحمل في يده دائماً نصف "قارورة" ماءً. يرقد وهي في متناول يده، وكلما نهض ليذهب إلى المرحاض، لقضاء تلك الحاجات الأخرى الشاذة المعتادة فيهم، حملها ولم يطلقها حتى يعاود النوم. الغريب أنه لا يشرب الماء، بل يكتفي بالتأكد من أن الماء مازال بداخلها كل خمس عشرة أو عشرين ثانية في قلق محموم. وللمجانين الثلاثة هيئة بالغة الصرامة، كأنما الجمجمة الحليقة وعظام الوجنتين والفك تمتص اللحم والجلد واللحية.

هنالك أيضاً مجانين متوسطون، لكن هؤلاء ليسوا في العيادة. أحدهم

شعره أبيض تماماً. ولا يغيب بالطبع ضابط الصف المصاب بجنون العظمة -تم حبسه وترحيله بالفعل- الذى بعد أن يستعرض على نحو مثير للإعجاب عملية شرائه سيارة "إسبانو"*، ومميزات العربة والصعوبات التى واجهها كى يحضرها إلى مليلة فى مركب، وبعد أن تسأله بنية صادقه عن ثمنها، يجيبك:

- ليست غالية، أربعمائة بزيتة.

مررت مسرعاً، محاولاً ألا يرانى أحد، ومتجنباً مضايقات الرائد الذى يتصور أنه ديمقراطي ويتحدث معى على مرأى من الآخرين ويضفى على كلماته بشاشة تبسُّط تضايقنى. كما أفر من النقيب "ن" الذى، حين كنت جندياً ثم عريفاً، كان ينادينى فى نبرة معينة بـ"السيد" أنطونيو. وأصل ذلك يرجع إلى واقعة طريفة. عندما كنا نسجل بياناتنا لدى وصولنا، كان الرقيب يسأل كلاً عن مهنته:

- وأنت؟
- صحفى.
- ممن يبيعون الصحف؟
- كلا ياسيدى. ممن يكتبونها.
- ولكن، أذلك تخصص أم مهنة؟
- كما تشاء.
- لكى نتفاهم، ألديك أية شهادة جامعية؟

وحين أجبته أن نعم سجل أمام اسمى كلمة "السيد". فلكونه يحترم اللوائح ويفى بواجباته لم يغفل هذه اللفتة مهما تكن صغيرة. وفى أحد

* سيارات فاخرة كانت تصنع فى إسبانيا في العقود الأولى من القرن.

الأيام، بينما يراجع القائمة أمام النقيب، ناداني الرقيب بتلك الصفة المتالقة. أمر النقيب التزام الصمت. قطب جبينه ونظر إلى الرقيب وتفقد الصف بعينين متحريتين. ثم قال:

– لنر، ليتقدم السيد أنطونيو خطوة إلى الأمام. أأنت السيد أنطونيو؟

– أجل، ياسيدى.

– لكن، لمه؟

– هى أمور تعن للرقيب.

– إيه؟ ماهذا؟ الرقباء لا تعن لهم أمور، ياعزيزى "السيد" انطونيو.

كان ذلك سخيفاً. فالرقيب –الذى كان يكن لى وداً لا يخلو من التسلط لكنه أيضاً لا يخلو من الاحترام– تحدث إلى النقيب فنظر الأخير إلىّ فى حزم. منذ ذلك الحين، كان على "السيد "أنطونيو أن يؤدى أردأ الأعمال وأقلها حفظاً لماء الوجه. وكان يامرنى بها دائماً النقيب ويناديني بـ"السيد". فيما بعد، ودون أن أحيط بالسبب، كف عن ذلك بل وأهدانى أشرطة العريف.

خط سير خفرات الليل ينحنى عند منعطف الموانع ثم يعاود الدخول ناحية الملجأ. ينهض النقيب ويخرج نحو غرفة القيادة مغطياً رأسه بقلنسوة العباءة. يذكرني بصورة لسان فرانثيسكو لا أتذكر أين رأيتها. الظاهر أن الأمر بات مؤكداً. سنخرج غداً. تستمر حركة جنود الإشارة فى الظلام. يخرج عريف هذا القطاع ورقيب خدمة المدفعية للقائى:

– أتدرى ماذا يحدث؟ لقد سحقوا قوة حماية الطريق. نصبوا كميناً لثلاثين رجلاً. والفصيلة؟ وسريتا الثامنة والتسعين؟ قضوا عليها. من المحتمل أن تدق نوبة الاستحضار فى غضون نصف الساعة.

ينتشر الخبر فى المعسكر فى سرعة. يصدق حدس إيريارتى. وحين أتذكر جراح مخه وأربطها بهذا الأمر ينتابنى ضيق مبهم. الجمجمة

صندوق عجيب. جمجمة إريارتي بتلقى رسائل من الظلال التي ترقد وراء السلك الشائك. من في الخدمة يتناقلون النبأ همساً. لم يعد أحد يشك فيه. القادة يذهبون ويجيئون، وهم يضحكون ويدخنون، بالغي الهدوء، بالغي الاطمئنان؛ غير أننا جميعًا ندرك ماذا يعني ذلك الاطمئنان.

الضابط يستدعيني. ليس موجوداً في مقر الحراسة، ولكي أراه يشعل ويطفئ الكشاف الكهربي. برفقته ثلاثة ضباط من سلاح الفرسان بعيدون قليلاً عن خط الموانع. يتحدثون عن الفصيلة، عما يمكن أن يكون حدث لها، لكنهم يصمتون لدى وصولي.

– أبلغ كل الحكمدارات أن يجروا تفتيشاً على ذخيرة الدعم ومن ليس معه خمس خزائن فليكملها.

في مقر الحراسة، ينظف جنديّ مسدس الطلقات الضوئية، يجربه ويصوبه مازحاً نحو جندي آخر. جمعيهم يتحدث في نفس الأمر. يغطي جندي مخضرم راسه بالبطانية: "بين الناموس والفئران والشائعات لا سبيل إلى النوم في مجموعة الحراسة". فضلاً عن الضوء وصخب تغيير الخفرات، ثمة نحو من القلق في الهواء، ضرب من التوتر العصبي. وبعد نصف الساعة من فهم ما يجري، يود جنود حراسة الموانع أن يقوموا بالهجوم في أقرب وقت، هذا إذا حدث وهاجموا.

تنتهي خفرتي، وما إن يتم غيار الحرس أدخل خيمتي. إلى الجحيم! جولة أخرى. لدى مروري بالحانة المغلقة أسمع صوتاً مميزاً. خلفها قليلا، الماخور وثلاث فتيات، واحدة منهن عربية. إذا كانت مثل هذه الأماكن –في المفهوم التقليدي– لها حضور في الجمهوريات المنظمة، فوجودها أشد إلحاحاً في معسكرات الجيش. وهو مثل الخصاص الأخرى، له حوائط من

الألواح الخشبية المسمرة، الموصلة جزافاً –أو بوحي من الشيطان– بألواح من الصفيح أو خرق من من الحصير أو قماش الخيام. في الداخل، ثمة عدة دواوين صغيرة كقمرات السفن، وحجرة كبيرة يسمونها الصالون. والأرضية هي نفس أديم المعسكر المليئ بالحفر. والأسرَّة، المتصلة بالحوائط الخشبية، تنقل إيقاع العمل إلى أنحاء البيت في طرقعة توقيعية تسمع ليلاً من بعيد جداً، وتخلف فيّ أثراً بالغ السرور.

في الموقع القريب يطلقون عيارين. أقترب.

– ماذا هنالك؟

– نفس الضوء السابق. شئ ما كالكشاف يلوح هناك فوق التل، ويتحرك، أطلق عليه النار فيتلاشي، لكنه سرعان ما يعود.

أحد أفراد الخدمة، شبه نائم، يتقلب على الأرض ويزيح خزائن الطلقات حتى لا تنغرس في ضلوعه، يتحدث بصوت أخنّ غافٍ:

– إنه مغربي معتوه يحمل المصباح الكشاف في طرف عصا يأتي كل ليلة ليرقص فوق تلك الأكمة. إذا أنصت جيداً ستسمعه يغني: "آه، مولاي، مولاي..." . مخبول!

ما إن ينتهي حديثه يسمع شخيره. وحين أقترب من موقع الحراسة الرئيسي يبدأ إطلاق الصواريخ. يصل رتل متحرك من الطريق المظلم، بشئ من الحذر. دخلت طليعته المعسكر ويقترب قلب التشكيل وجناحاه، سلاح الفرسان والمشاة، قوة تأمين الطريق. يصطفون في الظلام. ثمة سعال هنا وهناك:

– استرح!

يهدأ المعسكر وينام. والخوف السابق يمسي سخرية.

مجموعة الخمسة لم تزل فى نقاش خفيض. يرى العريف من واجبه أن يقدم تقريراً "مكتوباً". كانوا يقودون أسيراً لتسليمه فى "رأس فروين" بأمر من الرائد. اضطروا إلى الصعود مسافة أربعة كيلومترات وعرة والشمس فى كبد السماء وهم يحملون المعدات كاملة. ومرد هذا جميعه أنهم باغتوا "ذلك التعس" ومعه بندقية مشحونة وخطابات باللغة العربية. تفاهم العريف والجنود فيما بينهم بلغة الغجر. وقبل أن يقطعوا مسافة كيلومتر واحد اضطروا إلى التقدم دفعاً حتى يحيدوا بالأسير عن طريق السيارات. بعيداً، إلى جانب أكمة، أطلق عليه أحدهم عياراً عن كثب؛ لكن المغربى استجمع قواه وجرب الدفاع عن نفسه فانقضوا عليه بالسونكى فى اشتباك قصير وغير متكافئ. رقد فى الشمس ودمه يغلى فى جراحه، ففكوا مداهم وأغمدوها وحملوا بنادقهم فى وضع مريح واستأنفوا طريق العودة يمزحون ويغنون بصوت منخفض. الخبرة! وعند بلوغهم قوات تأمين الطريق أعطاه العريف التمام:

– تمام ياسيدى، أراد الفرار فأطلقنا عليه النار.

كان الرائد يدرك ما حدث:

– حسناً!

بيد أنهم الآن يتشككون. أيجب تقديم تقرير مكتوب؟ "فقط إذا كانوا سلموك المغربى بتقرير آخر، لكنهم فعلوا ذلك شفاهة. ليس من واجبك أن تفعل أكثر من ذلك. تمامه الآن مع الرائد". يقتنع العريف، ويخفى ندمه على طلبه مشورتهم فيأمرهم:

– نظفوا مُداكم قبل أن يلصق الدم بها. غداً، يجب أن تكون فى بريق صحيفة القربان.

من وراء خيام السرية الطبية، يخرج بيانثي.

– تمام ياافندم!

بيد أن ثمة خمس جثث حافية الأقدام، الجثث الخمس الوحيدة التى كانت تلبس أحذية برقبة. الأخرى تلبس أحذية من القماش، "من المعتادة"، المقوّاة فى أطرافها برقبة محكمة من قماش الخيام عند الكاحلين. والضباط الذين كانوا يرتدون واقياً للساق فقدوه أيضاً.

– ماذا فعلت يا بيانثي؟ لننتظر أن يمر الأمر بسلام. من ناحيتى، لن افتح فمى، لكن، إذا علم الرائد فسوف ينتقم منك .

ينصت إليّ فى أشد حالاته ذهولاً:

– من حيث النوم أنا لم أنم يا سيدى الرقيب.

– إذن!

-لا أصدق ما أرى.

– عليك أن تفسر ذلك.

يتقدم بيانثي صوب إحدى الجثث ويزيح عنها الغطاء. ينظر الميت بعينين زجاجيتين غبشتين. به بقعة دم صغيرة تحت ذقنه، كأنه قطع صغير نتيجة حلاقة ذقنه، وفى مؤخرة الراس، مكان خروج الطلقة، قطع ضخم.

– حسنٌ، ماذا ؟

– سخرية الحياة أيها الرقيب.

– أية سخرية؟

– دياث أورينيا، أيها الرقيب: سخرية الحياة.

أحدق فى بيانثي. خداها المعروقان يتغضنان نحو أذنيه ليكشفا عن أسنان قذرة. لا أجيبه. أمضى فى طريقى لتغيير خفرة الحراسة. يترنح بيانثي بين الجثث، يحاول حفظ توازنه حتى لا يطأها. قد يسقط ويرقد وسطها إلى الأبد. فحقده على دياث أورينيا، الشئ الوحيد الذى كان يربطه بهذه الحياة، أضحى بلا غرض.

(٥)

في اتجاه "أنوال"، يزداد الريف خضرة، والطبيعة متحضرة تقريباً. لم نصل بعد إلى هناك فنحن محتجزون وراء مرتفعات تازة الجبلية، حيث يتخذ "النسق" الأول مواقعه الآن.

بيانثي يشرح:

– تترك تلك القمم جانباً ثم تمر إلى يسار "بنيتث" بلا توقف، وبعد ثلاث ساعات، تلوح مخازن إدارة الإمداد والتموين البيضاء. حسنٌ، كانت ترى حينذاك، لأنها الآن أضحت خرائب. كان موقعنا أمام أنوال بفرسخين، منذ حوالى عامين. كانت نقطة ملاحظة متقدمة، و"الأرتال المتحركة"... لا أحد يعرف كيف كانت تتقدم –لحظة توقف كي يشرب جرعة ماء–، حينئذ كنا مائتي رجل نتحرك ونفعل كل شئ بحد السونكي. أما الآن فتؤدى العمليات بألوف الرجال ومئات المدافع والرشاشات والطائرات. من حيث الوصول كنا نصل إلى أى مكان، لكن الأسوأ كان الاستمرار. وكانت فرقتنا، الثانية والأربعين، في قلب كل معركة. كان المغاربة يقولون: "رجال سيرينيولا مثل بنات آوى". وبنات آوى لم نكن نحن بل مسيحيى القيادة العامة. فأولئك الأوغاد هم الذين أوقعونا فى مأزق.

كانت أربع فرق تنفذ كافة المهام، خاصة الفرقة ٤٢، إذ كانت أميل إلى خاصية الالتحام ولا تبشر بخير منذ أضحت لها سرايا نظامية. ولما كانوا يرسلون إليها مجرمين بعينهم –حكم مقنّع بالإعدام– ساد الظن بأن حياة رجال فرقة ثيرينيولا تساوى أقل من حياة بقية الفرق. ورغم أنهم فيما بعد

خلعوا عنها تلك الصفة الإصلاحية، لبثت زمناً طويلاً تكابد سوء السمعة الذى كان ينتقل بالطبع إلى الحانات والمواخير، لكننا لم نعدم فتاة حسناء تقول حين ترى الرقم على الياقة:

– عندما أرى الثانية والأربعين أحرز سبع متع!

ويضيف بيانشي:

– عندما رحلنا إلى R كنا قضينا وقتاً طويلاً فى أنوال، لذا سررنا، فقد كان الجنرال S رجلاً "فلكلورياً" ولا يدعنا نتنفس. كان دائماً يفكر فى وسيلة لإثارة القلاقل، وبعد تجشم عناء مضن للحصول على الماء، يحب تنظيم غارات على "الأدوار" فلا يذر دجاجة أو حيواناً، فكنا نقضى على كل شئ ونحرق المنازل: لكن المغاربة، فى اليوم التالى،، يرابطون من جديد قرب السلك الشائك. ويشبه أنوال هذا المعسكر إلى حد كبير، حتى أكداس تبن فرع الإمداد كانت مطابقة. سعدنا لرحلينا إلى R، فنقطة مراقبة ليست كالمعسكر، ثمة خدمات أقل ولا أحد يخرج عن السلك الشائك. لم نكن فى حاجة إلى الخروج للبحث عن الماء إذ كان يمدنا به "قول" كل ثمانية أيام. وأخذنا نفكر: هنا أفضل من فندق؛ لكن هيهات، كان ينتظرنا أول اشتباك. وليلة "الغيار" قضيناها جميعاً فى الخندق. تتحرك السريتان الثالثة والرابعة ومجموعة الرشاشات وجماعة من الشرطة المغربية الموالية. أما الأولى والثانية، وجماعة أخرى من المغاربة، فلم يكن بوسعها الخروج. وصلنا فى منتصف الصباح، وفى المساء كانوا لا يزالون هناك. منتهى العبث! إذ كيف كانوا سيعودون إلى أنوال إذا كنا نحن اضطررنا إلى الانتشار فى منتصف الطريق والانتظار منبطحين أرضاً فيما كانت المدفعية تخرج المغاربة من خنادق كانوا ينتظروننا فيها؟ فى ذلك اليوم علمت أن المغاربة يحفرون الخنادق بالعكس، فيلقون التراب إلى الخلف. ولكى يشقوا تلك الخنادق، يبحثون عن أرض تبدو منبسطة لكنها محدبة على نحو

طفيف، أفضل شئ يمكنه خداع من يطلق النار عليهم. فإذا أنت أطلقت عليهم شحنة واجتهدت في التصويب إلى أعلى من وضع الرقاد فلن تصيب سوى التراب دائماً. لابد أن تقف فوق رؤوسهم لكي تصيبهم. لكن أبناء البغي حين يحفرون الخنادق يلقون التراب خلفهم، وبدلاً من استخدامها كساتر يختبئون في الشق، إلى الأمام. كنا نحن والرشاشات نطلق النار على ما يرتفع عن الأرض والمدفعية على ما خلفه. وبالطبع، لا أحد هنالك على الإطلاق، لكنك فيما بعد تقترب مطمئناً فيقضوا على السرية.

الرائد B انتبه إلى ذلك قبل التحرك. كان هو أيضاً قد جاء كغيار. رجل شجاع في مسألة الخمر والنساء والمغاربة، بيد أنه متزمت في مسألة اللوائح. كان يحظر على الضباط لعب الشطرنج في مقر الحراسة لأنهم، على مايبدو، يطلقون عبارات ضد الملك والوزير. وكان يمقت الرائد X لأنه كان أشجع منه. غير أن كليهما لقي مصرعه في نفس اليوم. وأيضاً الجنرال S. في ذلك اليوم، حصد المغاربة حصاداً طيباً من النجوم.

ولما كنا حللنا محل السرايا المتمركزة في R، أراد أفرادها الرحيل. كما أقول لك، منتهى الفوضى! كنا نفذنا "الغيار" ولم ننفذه. والضباط في بالغ حيرتهم من ذلك الهرج. وذاك عيب!. لكنهم اضطروا إلى الرحيل. في تلك الليلة، الجميع وراء المتاريس. وحسب مقولة أفراد المدفعية والجرحى الذين مكثوا ينتظرون "القول"، لبثوا في تلك الحال مدة عشرة أيام. ومنهم من صار له ثلاثة أيام وثلاث ليال خلف أكياس الرمل. ونحن أيضاً، فيما بعد. بعضهم، بعد أن فقد القدرة على الاحتمال، كان يخرج ساقيه ليلاً ويضعها فوق الساتر حتى يصيبوه بطلق ناري فيضمدوا له جرحه ثم إلى الخيمة والنوم كأصحاب الأملاك. فضلاً عن أن حصته من الماء تكون أكبر. والطبيب كالمجنون: كيف يتأتى أن يصيبوكم في سيقانكم إذا كنتم لا تظهرون من الساتر سوى أنوفكم؟ فيقولون: "طلقات مرتدة". ثم أدركوا

الأمر فى النهاية وحاكموا المتقاعسين وانتهت الحيلة.

لم يكن الموقع صغيراً ولا كبيراً. وكانت المتاريس ترسم مستطيلاً أركانه مثمنة الأضلاع تحتلها المدفعية والشرطة المغربية الموالية. وكان يهبط منخفضاً شديد الانحدار حتى إن مستوى أوتاد سور السلك كان أفقياً تقريباً. هناك، كانت ثمة نقطتا مراقبة ومدفع رشاش. وفى الوسط، تمتد سبع خيام وكشك الهاتف وكشك احتياطى المؤن الذى حفر نصفه تحت الأرض. وبارتفاع متر فوق مستوى الأرض صنعوا له سقفاً من الحجارة وأكياس الرمل. وثمة كشك آخر لنقطة الإسعاف. وفى أحد الأركان، خيمة أفراد المدفعية وكوخ متهالك؛ وفى ركن آخر، خيمة الشرطة الوطنية التى كانت تقضى يومها فى الغناء وإعداد الشاى. أشغال ثابتة بلا حساب و"أحراس" فى الليل. خدمات كثيرة. لكن الموقع، بوجه عام، كان نظيفاً وبالغ الاتساع. فبين الخيام والمتاريس، من الجهات الأربع، من الممكن التدريب على حرب العصابات فى يسر.

من ناحية جبهة أنوال كان السهل يهبط فى انحدار بسيط؛ ووراء طريق السوق، على مسافة حوالى ستة كيلومترات، يعود ليرتفع حتى أنوال. أرض ضاربة إلى اللون البنى، تلوح كالرماد فى البقاع التى قلبها المغاربة وحفروها من أجل الحصار. لأن الموقع منذ اليوم التالى على الغيار كان محاصراً.

– منذ دخلنا R ورأيت وجوه الناس أدركت ماكان ينتظرنا. سمحوا لنا بقليل من الراحة ولكى نأكل "طعاماً بارداً" كانوا أعطوه لنا قبل تحركنا. كتب على ظهر المعلبات: "لحم بتلو وبازلاء"، لكنها كانت فاسدة. اي جديد في ذلك الغريب، بعد الصفقات الفاسدة بين الوزارات والموردين، الا تكون فارغة.

كانت بطاريات مدفعية أنوال قد أسكتت المغاربة؛ لكن المتاريس، في أول المساء، راحت تطرقع من أثر الطلقات العالية، من أحد الجوانب. كانت النار تحيط بكل المعسكر. لكن قناصي النوبة ظلوا ساكنين. وفيما كانت المدافع الرشاشة صامتة، أطلق المغاربة النار من داخل خنادقهم ومسار أعيرتهم يمر أعلى المتاريس في زاوية حادة. لم يكن في وسعهم أن يصيبونا، إلا في حالة طلقة مرتدة. وهي حالات كثيرة، ويمكن إدراكها من العواء الذي يصاحبها. فالطلقات تفقد غلافها في اصطدامها الأول ثم تأخذ اتجاهاً عبثياً، كتلك الألعاب النارية التي بدل أن ترتفع إلى السماء تسقط بين أقدام الناس، وتصدر صوتاً حلقياً تنازلياً. أخرج بيانشي قطعة بسكويت من الجراب الذي كان طواه فوق المخلاة المستقرة على الأرض. ولكن، لكي يأكلها كان يريد ماء، وقيل إنهم لا يعطونه لأحد. أكان عليه أن يواصل الصوم؟

- صدرت الأوامر بأن يمكثوا في الصف وألا يتحرك أحد. اطلب إذناً من الرقيب. هو المسؤول عن المؤن -ثم بعد تفكير، يردف العريف- اذهب أنت وقص عليه موضوع المعلبات. لكن إذا غضب فلا شأن لي.

يتحرك الرقباء جيئة وذهاباً ويتأكدون من أن كل شئ على ما يرام كي يوقع الرائد الجديد إيصالات "الغيار". حكمدار السرية الثالثة كان يتفحص برميل الزيت في قبو احتياطي المؤن. رفع الغطاء. كان الزيت يصل إلى الحافة؛ فالخمسون لتراً كانت هناك بالتأكيد، لكن من الصنبور السفلي لم يكن يخرج زيت، بل ماء. نظر الرقيبان كلّ إلى الآخر في وجوم. في الخارج كان دوي البنادق يصم الآذان.

- لن أتسلم هذا.

- اللعنة! لقد تسلمته أنا أيضاً على هذا النحو. أتعتقد أنني بومة وأنني شربته؟

- لا علم لي. سأسجل الواقعة في التقرير وعليك أن تفسر الأمر للرائد إذا سألك.

يمسح الرقيب المغادر على لحيته. ليست هذه زمالة. كم لتراً تنقص، عشرة ؟

- تسلم الزيت، وأعدك أنني إذا لاحظ من يأتي بعدك نقص الزيت سأسدد لك ثمنه من جيبي.

والرقيب المستلم، وهو ينصت إلى إطلاق النار بعد توقف وجيز، يهز رأسه مقتنعاً:

- لن تسدد شيئاً!

كان ثمة نذير شؤم في تلك الكلمات. أطل بيانشي على مدخل القبو ووقف "انتباه"، راسماً على وجهه أبلغ تعبير بلاهة ممكن. نظرة شديدة العبوس، ذراع ممتدة، أمر صارخ:

- إلى الصف! من أمرك بالمجيء إلى هنا؟ إذا نقص شئ في الخيام فستشتعل فروة رأسك!

يبقون على الصفوف لتجنب سرقة الجنود المغادرين الذين مازالت معداتهم متفرقة في الخيام: قمصان، علب سجائر مغرية. يعود إلى مكانه. وتنم هيئة الثلاثمائة رجل الجلوس أو المتكئين لتلافي ثقل المخلاة، تنم عن انضباط معرض. فهم يحافظون على الصف من قبيل المصادفة، في "قطارين" طويلين. إلى الخلف، أفراد الشرطة الوطنية المغاربة محتبون على الأرض، بمعزل عنا تماماً. ينتاب بعضهم فضول فيدعون أعينهم تجوب الموقع. وبعضهم ينظر، مهوّساً في الظاهر، نحو نقطة غير مرئية في الهواء. لكنهم لا يرون ولا يفكرون تحت وطأة التعب.

يمر جندى من السرايا المغادرة، يحمل كالدواب جوالاً من التبن وثلاث مخال تتدلى من ذراعه وثلاث بنادق.

– إيه، يا أخى، أتغير منزلك ؟

– إلى أين تذهب، للتصوير ؟

يصمت آخرون، ينظرون إلى السماء الزرقاء الصافية والعميقة، بلا طائر. عندما تترع الأعين بتلك الزرقة العذبة والطازجة والمنعشة لا يُحس بطلقات المتاريس ولا أحد يعلم لم يطلقونها. يطلب أوتاثو، جندى من مقاطعة "بيثكايا"، ناراً ليشعل نصف السيجارة التى يحملها في أذنه. من غير المعقول أحياناً الا تجد عود ثقاب وسط كل هؤلاء الجنود. يرى أمامه عريفاً يدخن:

– هيا، أعُطني ناراً.

– أرأيت المستجد؟ تعال هنا لتأخذها.

يفتقر أوتاثو إلى مفهوم التدرج القيادى والأعراف الاجتماعية. وهمجيته، لمبررات أخرى أيضاً، مردها سذاجة شرسة. يلازمه وجه لضبع دموى، فهو لا ينظر إلى الأمام مطلقاً ويسب قبل ان يتكلم. لكن الجميع يعتبره حملاً وديعاً، وعلى الرغم من أنهم لم يروه قط يضحك، يغرقون فى الضحك من سلوكه المضحك الرهيب. حين ينهض ويتقدم تجتمع كل النظرات فى ظهره. فمن المخلاة والبطانية المائلة ومن كم سترته نفسها يتصاعد دخان منتظم. ضحك هنا وهناك. يدنو أوتاثو، الساكن، من الرقيب:

– أعطنى ناراً.

يعم الضحك. وأتاثو، فى نصف التفاتة، يعلن:

– أهذا أيضاً يضحككم ؟ حسن، أقول إنكم ستضحكون كثيراً.

فى نهاية الأمر، يلتفت إلى الدخان:

ـ أيتها القاذورات، كان بوسعكم أن تنذرونى.
ثم يقول له أحدهم:
ـ احترقت خزانتك يا رجل!
فيرد وهو "يشفط" السيجارة:
ـ لقد احترقت من قبل فى منزلى بالقرية!
-وكيف كان هذا ؟
ـ أشعلت فيها النار بنفسى.
ـ لمه ؟
ـ لأن، اللعنة...، لماذا سيكون؟ لأن أبى ضربنى.
إلى الخلف، يتجادل اثنان، ويختم أحدهما:
ـ إذا أقاموا هذا الصخب نهاراً، البس ملابسك الثقيلة ليلاً.

يجرى التحضير للغيار. يخرج الرقيب.
ـ قف!
يشرعون في الوقوف معتمدين بنادقهم، وبعضهم يشد عليه المخلاة في عجلة مدخلاً ذراعيه في حاملي المخلاة كأنما يرتدي بذلة. ثم فوضى لحظية. فالعظام ابتردت بعد المسيرة وتثير المفاصل الألم. والرقيب الذي يغضن أرنبة أنفه بغتة يتفقد الصفوف بنظره:
ـ من أمركم بإنزال المخلاة؟ أأمرتكم بفض الصفوف أم ماذا؟
ثم بإيماءة كدرة يتجه إلى بيانثي، الذي لم يجد بعد حامل المخلاة الثاني، فيطلق عبارة غاضبة ويرفع يده ويساعده على حمل المخلاة فيما يشبه الأمومة. هنالك هدنة مباغتة عند المتاريس. ناحية المنخفض، أطلقوا رصاصة. في الخارج، يكتسي المساء صمتاً عذباً وغائراً. تداخلنا رغبة فى

وضع المخلاة فوق المتاريس والنوم. يخرج القائدان من كشك الهاتف وهما يزيحان خرقة من الخيش كتبت عليها الحروف الأولى من عبارة الإدارة العامة للاتصالات، ثم كتب تحتها بالعربية:

تلفن

أمام تلك الحروف العربية اعتاد أفراد الشرطة الوطنية المغاربة التوقف دهشة وقراءتها: "ترى. . .فو" أو "تلفن" ثم يستأنفون سيرهم. يبدو القائد الجديد في بالغ الضيق.

– عريف الإشارة!

والرقيب، الذى لا تفوته فائتة، ينظر إلى حكمدار السرية الأخرى وفى مداراة يشير إليه بإيماءة قطع شئ "بزرادية" متخيلة. يفهم بيانثى: "قطعوا خط التليفون" . يخرجون جهاز الإشارات الشمسية. حامل ضخم له ثلاثة قوائم ومرآة صغيرة مستديرة، مليح الشكل كلعبة أطفال. تجب الإفادة من آخر شعاع شمسى. يملى القائد والعريف يحرك عصا تستند إليها المرآة من الخلف، وبعد أن يدرجها يرسل النداء: "تاكا تاك تاك تاكا" . وهنا لا يرى سوى المرآة مترعة بضوء الشمس وذبذباتها الصغيرة. ينظر جميع الجنود إلى خط أنوال الذى يرتسم بعيداً فوق المتاريس. القائد يوبخ بإيماءة. فهذا الفضول الذكى فى الجنود يكون أحياناً عدم انضباط. وبعد نصف الساعة من الوقوف فى الصف، المؤلم ألف مرة أشد من المسير نفسه، يصدر أمراً جديداً:

– اجلسوا بلا خروج عن الصف!

فوق التل، يرى بيانثى نجماً أزرق كبيراً يضئ ويخبو ويغطى المتاريس. أنوال يرد. بعد وهلة يحفظ جندى الإشارة جهاز "الهليوغراف" ويأمـــر

القائد بكتابة الرسالتين -السؤال والرد- وتسليمهما له. الآن ثمة قرار رسمي. يعود الرقيب:

- انتباه، اخلع المخلاة. العدد!

ثم يقول الضابط:

- من واحد إلى خمسة عشر، خطوة إلى الأمام.

يجرى تغيير خدمات المواقع. خدمة بيانثي في أحد الأركان، إلى جانب ملاجئ الرشاشات. يحيط بالميدان بنظرة آلية. يشبه موقعه منبراً صغيراً وشاذاً شيد من الحجارة وأكياس الرمل، ناتئاً قليلاً. ثم ما يشبه المظلة من فروة متحللة بها بقع من الشعر: متصلبة وقائمة على حوامل عشوائية -عصي، حجارة- تترك فيما بينها منفرجات طويلة مكشوفة. ثلاثون متراً بلا حجارة، بلا عشب، وسور السلك تغطيه خرقة تؤرجحها الريح. يجب توخي الحذر منه حين يجن الليل. وبعد ذلك النسيج المتشابك من السلك والأوتاد، ثمة صليب على الأرض حطمت إحدى ذراعيه، راقداً تقريباً. ولما كانت طلقات القطع البحرية لا تصل إلى هنا فإن قرابين هذه المقبرة لا تعدو كونها أربعة فوارغ طلقات مدافع جبلية، كأربعة قراطيس حلوى طويلة. وخلفها، انحدار التل الطفيف وأكياس الرمل الممتدة بطول الخندق. يقترب حكمدار الحفرة ويترك له على الأرض دستة من قنابل يدوية متراصة.

- لي؟ من أي جهة بوسعي أن ألقيها؟ يبدو أنها من أجل الحفرات التالية.

دون أن يجيب، يلتقطها الحكمدار وهو يهز رأسه:

- اللعنة يابيانثي! سوف يعذبونهم!

-يعذبون من؟

- هؤلاء.

تصطف السرايا المغادرة. يهز بيانثي منكبيه.

يسكتهما دوى مدفع رشاش له صوت عادم دراجة نارية. إنهم المغاربة يتحركون في صمت. يعرفون أن القوات ستتحرك. عند خط الغبار الذى أثارته دفعات النيران يرى ظلالاً تركض جهة اليمين، مبتعدة عن الموقع. سيكمنون للسرايا المغادرة. وهؤلاء المصطفين الآن، ينتظرون وهم يرزحون تحت وطأة أحمالهم، وقد تقلصت صدورهم وتقدمت رؤوسهم التى ظهر عليها التعب كأنهم متسولون رُحل. ومنهم من نفحه النعاس والظمأ عينين ذاهلتين وتعبيراً مزكوماً أو كمن يحبس دموعه في أنفه. يخرج جنود المراسلة ثلاثة خيول. والضباط يغدون ويرحون ومعهم أوراق. ما زالوا يراجعون مرة أخرى لا أعرف ماذا.

حين نرى هذا الصمت، تلك الخطا الحازمة على نحو زائف والتى يظهر بها الضابط روحه العسكرى للنقيب والرائد، نفكر في أن كافة تلك المراسم، وسط القمل والبؤس والجوع والأسمال، ليست سوى مزحة ثقيلة لحفنة من المجانين. لا ينطلى ذلك على أحد في الواقع. لم يعد هنالك رجل واحد يعتقد في جدوى شئ من هذا. فضلاً عن أن الجميع يعلم ما ينتظره في الخارج. تنتابنا رغبة في الصراخ: "أليس في راحة الجميع أن نترك الصف وننطلق على أنفسنا الرصاص". يسلم الرقيب، حكمدارنا هذا الأسبوع، يسلم الضابط بعض الأوراق، وهذا يسلمها إلى القائد الذى يبسطها ويوقعها بقلم حبر دون أن ينظر إليها. ينتظر رقيب السرية الأولى نافد الصبر. أتحمل "التمام" على الهامش؟ هل تذكر الرقيب موضوع الزيت؟ لكن القائد يلقى عليها نظرة ثم يحفظها في صدره ويشكر زميله. ثم يقترب من المتاريس وينظر بمنظار الميدان في إصرار، دون أن يشرد لحظة.

لون الآكام البعيدة الأبيض يستحيل ذهباً. ثمة وحشة وصمت غريبان.

ربما في انحدار تلك السهول يركض نبض الموت الجليدي، الذي سيتفجر في صفير وخوار ريح الشمال ما إن يتركوا الموقع. يراود بعض الضباط المحبطين -الفاشلين- شعور بالتعاسة ليقينهم من أنهم سيموتون من أجل حفنة نقود شهرية، وبالغيرة إزاء ميتة الجندي النزيهة والرومانسية. يعاود المدفع الرشاش في تلك الزاوية إطلاق النار. وينتاب الجميع عصاب خفي. تأخر الوقت. لم يتبقَ من الضوء سوى ساعة ونصف الساعة.

الجنود، غير مكترثين، ينتظرون مرتفقين بنادقهم. ويهشون الذباب على أنوفهم وعيونهم بالمرفق. الأربطة تضغط الرئتين، ومع التنفس نكشف صدورنا لنتجنب شخيراً عنيداً أشبه بكير قديم.

– عريف البيارق!

يرفع العريف رأسه الصغير والضارب إلى الخضرة وسط أحماله، ويرفع يده نحو الكتف الأخرى.

– أبلغ الملازم "إسرنا" أن يعطوا الإشارة!

ويأتي هو بإشارة إلى أقدم النقباء، ويحتل الضباط أماكنهم. صمت جديد. يسمع وقع أقدام الخيل على الأرض. للمساء الآن لون العسل، وفي النسيان اللحظي لكل شئ -نسيان شديد العذوبة، شديد اليسر، غائر في تناغم السماء، الهواء، الضمير النقي- هنالك حنين إلى صوت جلاجل الريف الإسباني. وربما يسمعه بعض الجنود في عمق هذه اللامبالاة الدرامية التي هي تعب؛ بيد أنه ليس تعب ثلاث ليال مسهدة أو ثلاثة شهور تقريباً بلا ماء، بل تعب ألفي عام من الظلم.

يشرئب النقيب فوق كاحليه، ورسغاه ملتصقان بفخذيه:

– انتباه...!

ليس حفيفاً جافاً أو حاداً. بل احتكاك ملابس وجر أقدام طويل ومتغير. يصطفون.وتنتصب قاماتهم. بغتة، يخرج رأسٌ عن الصف ويخر

جندى على الأرض فى بطء إلى الأمام دون ثنى ركبتيه. تصدر جبهته لحظة اصطدامها بالأرض دوياً هائلاً، حاداً ورخواً. يأمر النقيب من مكانه:

- أخلوه، فكوا أحزمته وليلحق بالسرية الثالثة، مع الجرحى، حين يأتى "القول".

ثم يقول لضابط الصف:

- يجب أن يدرج فى قيد المصابين وأن ينتظر توجية الاتهام إليه!

فى الداخل، يسمع دوى طلقة "سر الليل". وفى الحال، تقصف بطاريات أنوال المواقع الخطرة بدقة كبيرة. تخرج دورية متقدمة، قطاعان ينتشران إلى اليمين وإلى اليسار. يركض الجنود مرة واخرى، يقهرون ضعفهم، حفيف الأربطة والأسرجة يذكر بجياد حلبات المصارعة. ومدافعنا تطلق قذائفها ايضاً قريبة منهم، وبعد عدة قذائف ترى أشباح تتحرك وتريد المدافع الرشاشة ان تحصدها. يدنو حكمدار المؤن من رقيبنا ويسحبه من يده خارج الموقع، فى المتاهة التى تبتعد عن باب الجحيم. يقول فى إصرار:

- شكراً لك يا صديقى! لو قال القائد شيئاً سادفع أنا ثمن الزيت.

مازالوا يخرجون. فيما يجاوزون الأسلاك، دون توقف، ينظمون خدمة الحماية، وفى طليعتها قطاع الشرطة المغربى. والشعور الحقيقى بالأمان لا تخلفه القنابل اليدوية التى يحملونها بقدر ما تخلفه مسالة أن كل هذا الصخب المروع يصدره رجالنا. بعد مرور آخر جندى يسد سور السلك من جديد. خرج ما يقرب من ثلاثمائة رجل. وبقينا حوالى الثلاثمائة. ويسير الطابور الصغير بلا عائق، بخطو نشط، متعجل.

جهة اليمين، يرى بيانثى الأرض تفور فى فقاعات كبيرة تحت قصف

المدفعية. وخلفها، فى السهل، يظهر ركب من فرسان صغار الحجم كدمى من رصاص. لا تبلغهم نيران الرشاشات، لكنهم فى أنوال رأوهم فتطلق المدفعية السريعة والفاعلة والرشيقة دفعة من القذائف. بين السحب البيضاء، تسير الخيل فى خط ملتو، تجمح وتنكص على قدميها الخلفيتين. أعلى الفرسان، لا تزال تتفتح سحب قطنية فى دفعات من أربع. والقذائف الجديدة تمزق السحب السابقة. والآن، يطلق مدفعا الموقع نيرانهما ويدكان الخنادق التى كانوا ينتظروننا فيها هذا الصباح. قذائف غائرة ورخوة، كأنما المدفع دفن فى حجرة من القطن. على ارتفاع متر عن الأرض، فوق الأخاديد التى تكشف عن الخنادق، فرقعتان واضحتان، حادتان.

ضوء المساء يخبو وتتيح الانفجارات رؤية النيران، الأشد بياضاً من الدخان، كأن القنابل متخمة بالفضة أو بشظايا من الزجاج. لم يزل الطابور يهبط ولا جديد، يبدو أنه يتقدم كثيراً، لكن السهل اللانهائى يحوطهم ويضمهم ويطويهم على نحو تدريجى فى تهديد صريح. الصخب شديد، بيد أن الطبيعة لا تفقد وداعتها الملغوزة.

ينظر بيانثى إلى الطابور. الآن، ينتشر قطاع آخر إلى الخلف، والجناحان يخرجان السونكى. "آه، الأوغاد! يتسللون وسط طلقات الرشاشات". ينتشرون فى سرعة وبوثبات كبيرة. يتعثر أحدهم، يسقط على وجهه، يعاود النهوض، يسقط من جديد، على جانبه هذه المرة، كأنما يود أن يشق بكتفه ثقباً فى الأرض. إنه خارج الطريق، فى مجموعة الالتحام؛ يدنو منه عريف ويفك حزامه ويخلعه ويحمل بندقيته وينضم إلى مجموعة الالتحام. يواصل الطابور تقدمه. تسقط القنابل الآن بالقرب من الطريق. ينهض الجريح وعبثا يحاول اللحاق برفاقه. ولولا دوى القنابل لسمع وهو يصرخ :

– أيها العريف! بوسعى السير، إنها إصابة طفيفة.

لكن الطابور يبتعد ويظل الجريح إلى الوراء تدريجياً. في المتاريس ثمة إحساس بضيق ثقيل. يتذكر بيانشي ذلك اليوم الذى سقط فيه فاقد النفس فى تقهقر بالخطوة السريعة. وكان القائد حينذاك هو العقيد:

– اسمح لى ياسيدى! أبوسعى أن أطلق النار على جندى من السرية الثانية لا يستطيع اللحاق بنا؟ لو تركناه هناك سيمثل به المغاربة.

فقاطعه العقيد غاضباً:

– حين لا نجد وسيلة أخرى. لكن جوادى مازال موجوداً. فليحضروه إلى هنا.

لكن ذلك العقيد كان معروفاً بين القادة بشاعريته، بفتور روحه العسكرى. الآن يعاود الجندى السقوط من جديد. تتسارع النيران إلى يمين الطابور وخلفه. تتدافع الأرض إلى جانب الجريح وتنفجر فى الهواء قنبلتان، واحدة إثر الأخرى.

لا يرى بيانشي الجريح مرة أخرى. لكن، إلى الخلف قليلاً، حول الطابور، يبدأ "نقر" الطلقات. ينطلق وابل حقيقى من مكمن ما لم تكتشفه بطاريات أنوال. ومدافعنا تقصف الآن أكمة صغيرة على الجانب الآخر من الطريق. تخف نيران البنادق، لكن الطابور ترك وراءه أربعة جنود آخرين فى الطريق. يتسمر بيانشي بغتة:

– ونحن ؟ نحن؟

منذ حضوره إلى المغرب يفقد بيانشي ثقته فى القادة للمرة الأولى. شهد فشل الجنرال S مرتين. لدى المغاربة وفرة من الخيل ومدافع رشاشة جيدة وقنابل يدوية أفضل مما لدينا لأن بها على الأقل كيلو جراماً ونصف الكيلو جرام من المسامير والشظايا التى يلتقطونها فى ميدان المعركة. والوضع لم يعد كما كان. كل شئ يهن ويفشل. أمس أسقطوا طائرة وطافوا بالطيار ميتاً ومرشوقاً فى عصا. يخفق الجنرال S فى طلب قوات

إضافية. يقول البعض إن مرد ذلك تورط الجنرال في التقدم من تلقاء نفسه ودون إذن من المفوض: ويقول آخرون إنهم لكي يرسلوا تعزيزات لا محيد عن مجئ كتائب من إسبانيا والحكومة لا تريد سماع أى شئ عن إرسال قوات بالبحر. ويقولون أيضاً إن المفوض يغار من الجنرال ويترقب فشله. يستوى الأمر.

وصل الطابور هناك، حتى منتصف الطريق. واشتد دوى القنابل. يصيب السعار مدفعى الموقع فيطلقان نيرانهما بلا هوادة، بلا تلك التوقفات الواجبة لالتقاط الأنفاس خشية أن تختنق المدافع وتنفجر. تهتز المتاريس. نفتح أفواهنا لا إرادياً لتسهيل إخراج الدوى. ألوية الغربان الأولى تغادر جروف أنوال تلبية لنداء المدافع وتنتشر على الأرض وتؤلف مجموعة قوات خاصة. ربما امست خبيرة بالخدمة العسكرية من فرط أكلها لحم الجنود. أعلى كل واحد من أعمدة الهاتف ثمة واحد منها. وجميعها سمين، متألق، يصرخ صرخات تخمة، كأنه يتجشأ. عدد طابورى الجناحين انخفض إلى أربعة جنود أو خمسة. من سقط من قبل لن يرقد وحده.

الضوء الآن كابٍ والانفجارات، الحمراء تقريباً، تُرى على نحو أفضل. وعذوبة الطبيعة ظاهر مخاتل. لأن الأفق، جهة اليسار، يحتشد بظلال زرقاء؛ وفى الرحابة المقفرة تستطلع القنابل الصمت وتتحقق مدى لا نهائيته الدرامية. من جديد يرتفع عدد أفراد مجموعتى الالتحام بالجناحين، ومن جديد يسحقونهم. وما هم الآن إلا نقاط سوداء متضائلة، نمل. انخفض عددهم كثيراً، نحو النصف. قائد الموقع يمر إلى جانب المتاريس حاملاً منظار الميدان فى يده، يقول للنقيب:

– كان عليهم أن ينتشروا جميعاً ويقاوموا. وبمساعدة خيالة أنوال كان بوسعهم النجاة. فقد الجنرال اتزانه ويعتقد أن كل ما يامر به لابد أن ينجح.

يأتى النقيب بإيماءة كأنه يشاركه السر ولا يريد أن يفرط فى الكلام.

بعيد ذلك، يصمت مدفعانا. من قبل كانا ينطلقان على فترات متباعدة. لا جدوى. تُستنفد الطلقات بلا داع وقد لا تكفى للدفاع عن الموقع نفسه. جن الليل، والطابور لم يعد يرى، وقذائف أنوال باتت نادرة وعشوائية. فى المعسكر، يخف الظلام قليلاً وما زالت الرؤية واضحة لأن الضوء الأخير لم يزل ناشباً فى قماش الخيام وفى الأرض الجيرية. وكلما تباعدت قذائف المدفعية أمكن تمييز صوت طلقات البنادق. ليس كثيفاً كما كان متوقعاً. ربما ثمة التحام بالسونكى. وأصوات "الغيار" تبعث الحياة فى هذا المحصن من الأسلاك وأكياس الرمل.

ينتهى الكون بالمتاريس. والليل يلف كل شئ فى قطن أسود، فى برودة متوترة، في سواد موحش وغائر. تم تنفيذ "الغيار"، كما حدث من قبل كثيراً. أولاً، فوضى من سيرحلون؛ ثم نفس الفوضى فيمن يأتون. ومع نوبة الرجوع، كل شئ فى ظاهره المعتاد، فى ضرب من ضروب ذلك النظام البدائي والمهلهل لمتسولين. ثمة حديث هنا وهناك. يقول أحدهم وهو يبسط البطانية على الأرض:

– أتسائل ماذا نفعل ؟ ندافع عن إسبانيا.

السرية الرابعة أتمت اتخاذ أماكنها داخل الخيام والجنود يتجولون بالموقع. هنالك دائماً ما يثير الفضول. والظلال وأدت الطابور فى الميدان. إنه حدث بعيد وخارج عن واقعنا، فيبدو أن الطابور تحرك منذ عام وأن الطلقات الآتية من الخارج طلقات عيد أو زفاف أحد الوطنيين أو شهر رمضان.

جندى وحيد، فوق "أكورديون" سراويله الذى لا يصدق، يدنو من ملجأ أفراد المدفعية. فى الأرض، رشقوا زجاجات جعة فارغة من أعناقها،

وصنعوا من قيعانها المقلوبة على مستوى الأرض فسيفساء مليحة على شكل شعار المدفعية ورقم الفرقة. بحركة ساقيه المنتظمة ورأسه المنكس يلتفت إلى تلك الرسوم مغرقاً في شروده:

– عمل متقن كهذا لن تجده في المدينة أو في أعروي أو قنداسة. وما تلك؟ دجاجة؟

يُرى نسر يتحرك. يضحك أحد أفراد المدفعية ويريه إياه في يده:

– ببغاء؟

يعاود الضحك ويبتعد جندي المشاة في ضيق. إطلاق النار الآن أكثر حدة. جهة مؤخرة الموقع يجلس ما يربو على العشرين جندياً خلف المتاريس. وتستلقي مجموعة منهم على أكياس الرمل وقوفاً نحو الخارج، ويحذر جندي من إقليم أشتوريس:

– ناحية هناك ليس ثمة سوى مغاربة متوحشين. إذا حانت لحظة الفرار، من أين تذهب؟... كلا يارجل، من هناك ستلقى بنفسك في المجزر. يجب أن نتعلم دائماً من أين الفرار. من هناك، إلى دراوشة. على أن تشرق الشمس دائماً عن يمينك وتغرب عن شمالك. إذا سرت على هذا المنوال ستصل رأساً إلى حانة "اللحن الثنائي"، في مليلة.

يضحكون جميعاً. يقول أحدهم:

– بنات طيبات في "اللحن الثنائي".

يصمتون. يمر الطبيب يرافقه جندي ومعه دفتر الفحص. إلى أعلى، السماء، بلونها الخبازي القاتم، تضيء موجة بيضاء من السحب، فتبرز لونها الداكن. لا أحد يعلم من أين يصدر ذلك الضوء الشمسي الساطع المنعكس على أعلى الخيمة.

تسترد اللحظة عذوبتها، السكون، النسيم العليل. مازالت بطاريات أنوال تهدر، وإن يكن على فترات متباعدة. لا أحد يفهم جيداً سلام

المتاريس الفجائي. أحد ما يناقش فرد مدفعية:
- لا تساوي المدافع شيئاً. صخب كبير، نيران كثيرة: لكنهم يصيبونك أيضاً.
- لا بد أن رأسك شديد الحمق إن كنت لا تفهم -يرد فرد المدفعية في إصرار-: لولانا نحن لما تمكنت من المجئ إلى هنا. وهذا ما سيقوله لك الجميع.
- حسن؛ ولكن، أتريد أن تقول لي أنت أي رغبة لي في المجئ إلى هنا؟
يضحكون جميعاً. يقول جندي من إقليم ريوخا وهو يهز رأسه ويضرب ركبته بيده:
- هذا الـ"بيكيراس" الملعون دائم المزاح!
ثم: موضوع الساعة:
- أتعتقد أنهم بلغوا أنوال؟
- لا أنا ولا أحد، لأننا هنا، في الخدمة العسكرية، لا علم لأحد منا قط بما سيحدث.
الكارثة لا تبلغ معنويات الجنود، بل تعتبر حالة عارضة تخص القيادة بعد أن تمثلوا جميعاً الآلية الحربية. أو ربما أصابهم اليأس التام فلم يعودوا يهتمون.
جندي ضئيل وضامر، ظل عاماً يسبب الدوار للأطباء بنغمة أنه لا يستطيع أن يمد ذراعيه جيداً، يقول وهو يحاول دون جدوى أن يوثق زر واقي الركبة:
- لا في الخدمة العسكرية ولا في الحياة يمكنك التيقن. لأنني كنت في هافانا، وربحت ألف بيزو في اللوترية وأنفقتها على البنات ودخنت طيب السيجار. لا نظير لذلك الزمن من حيث وفرة المال.
جماعة من إقليم جليقية تصمت وتنصت. يخرج أحدهم نايًا ويشرع

في عزف ألحان من بلده. وسالجادو، حارس المؤن، الشديد القذارة إلى حد أن السباخ يجاوز سترته وسراويله المفكوكة -وبلا واق للساق- ووجهه ويديه ويمتد حتى ظله نفسه، ينهض ويبدأ الرقص. وفي الحال ينهض آخر. في جدية شديدة، لا تكاد الأذرع تنفصل عن جسديهما، ورأساهما إلى أسفل، يتقدمان ويتقهقران، ويتشابكان وينفصلان، يتبعان المذهب الرتيب. يقول بيكيراس:

– حتى فى الرقص يظهر حمقكما. ترفعان قدماً ثم الأخرى، كأن أحداً ينكأ جراحكما، ولاشئ أكثر.

يرد سالجادو:

– صه، فلست جليقياً، لقد اضطروا إلى إحضار ثمانى فرق موسيقية كى تتعلم كيف تتبع الإيقاع.

– من يقل إن الجيليقيين إسبان أقل إنه يكذب!

تتكاثف النيران هناك، إلى اليسار. بعض الجنود يلتفتون برؤوسهم:

– اللعنة، كم يعذبونهم!

تستمر الموسيقى. الإحساس الذاتى بالخطر يخفف من الشعور بالرأفة لحال الآخرين. يقولون إن الشفقة هى خوف من التعرض لنفس المحنة، ولكن حين ندرك اقترابنا منها تخف الشفقة كثيراً أو تنمحى. جنود آخرون حاضرون مع الجرحى. وجد أحدهم جندياً من قريته. الجرحى والمرضى مستلقون على الأرض، تغطيهم بطانية. مع دوى المدفعية سقط غبار من السقف فوق الضمادات والوجوه المتصببة عرقاً. يرتدون قبعاتهم جميعاً فيما عدا جريحاً مصاباً فى رأسه يحملها مطوية ومعلقة فى حزام خاصرته، فما أسهل فقدانها وهى غالية الثمن. بعيداً، يناجى عسكرى مغربى نفسه بلغته، عيناه مغمضتان، وأنفه ملتصق بالحائط. يقول أحدهم:

– القذارة تقضى علينا.

في الظلام، يسمع البواق وهو يجرب وضع بوقه على فمه وفى الحال تسمع نوبة الجمع. الأحراس إلى المتاريس. يجب أن يحلوا محل خفرة المساء. فى الظلمة، يحتشدون أمام الخيام، يخرجون باحزمتهم وبنادقهم:

- هيا، فى نشاط!

الا يراجعون القائمة؟ كم جندياً ينضم إلى هذه الخفرة؟ كل السرية. يتحركون فى طابور من "قطارين" ويلفون حول الموقع ليغيروا الخفرات. يختفى الطابور ليظهر بعد قليل من الجهة الأخرى ليضم من انتهت نوبة حراستهم. أحد ما يحتج:

- ليست هذه ساعة لإعلان نوبة الجمع!

من بين أفراد الخفرة الأولى لم يبق إلا الحرس فقط، الثلاثون الأوائل، ومن بينهم بيانشى الذى يظل فى موقعه. الليلة حالكة السواد؛ لكن طلوع القمر وشيك. بنات آوى لا تأتى، فزّعتها طلقات المدافع. بعيداً، تسمع طلقات متفرقة تسكن شيئاً فشيئاً إلى أن يسود الصمت. لو أن القمر طلع قبل موعده بساعة لنجا نصفهم؛ لكنهم الآن سيصطادونهم كالجرذان. لا أحد يعرف من أين يخرج كل هؤلاء المغاربة. بطاريات المدفعية تصمت الآن تماماً.

يستشعر بيانشى رهبة لاعتبارات مبهمة. لو أمكن رؤيته لصار الميدان عرضاً رهيباً. فالخيالة المغربية تطارد الآن بلا ريب الفلول الهاربة وتقتنصهم بحد الخنجر أو السيف. من ستكتب له النجاة قد يبلغ بمعجزة الأسلاك الشائكة فى أنوال. وكل شئ، تحت السماء المنجومة وغير المكترثة، بعيداً، غائباً حتى عن ذكرى الأحبة، يحمل على التفكير فى أن ثمة خطأ وأن هنالك مسؤولاً مباشراً عنه. أين؟ من؟ يتقدم الليل. أى خفرات هذه التى

لا تنتهي أبداً؟ تسمع طلقات بعيدة، متفرقة، وصخب مغربي. بعد ذلك، طلقات قريبة. والنسيم، الذي يشتد هبوبه الآن، أو فأر حركا شيئاً في مقلب النفايات، على الجانب الآخر من السلك الشائك. وروح الليل ينبض في تلك الأصوات الخافتة والشديدة الإيحاء والوعرة التأويل على جندي الحراسة. من الفضاءات المفتوحة تدخل الريح الباردة، مداعبة. إلى جانب أنف بيانشي، معلقاً في جلد السقف، يتدلى نوع من العظاءات من إحدى رجليه. حرباء. بيانشي يمسك بها ويحيط ببطنها الناعمة في حرص ويضعها فوق خزينة طلقات؛ ثم يضعها بداخلها بعد أن يفرغها.

الهواء تشتد كثافته وتقبض وطأته على القلب. هبط الليل منذ ساعتين وانتظم التنفس على ذلك الهم. هنالك رياء عظيم في السلام المحيط، الأنكى ألف مرة من القتال الصريح والمكشوف. وقع خطوات إلى جانب المتاريس. يعاود النظر إلى الداخل. ظل مديد، ضامر، كتفاه ناتئتان ترتفع فيما بينهما جمجمة عارية بلون العاج بمحجرين كبيرين مفرغين. يشير بيانشي بذراعه متصلبة، يرتعد. يقول بغريزته:

– تمام يا أفندم!

-حذار، لن ننام الآن!

إنه العريف فيدل، الذي يعشق الخروج ليلاً ويلف منشفة حول رقبته ورأسه.

من قاع الليل، تسمع مع ذلك أنات إنسانية قريبة، خافتة، مكتومة طوعاً. يسأل بيانشي:

– هيه، من هناك؟

– لاتطلقوا النار، أيها الرفاق! أهذا أنوال؟

– من هناك؟

– النجدة! أهذا أنوال؟

– حكمدار الخفرة!

يتأخر الحكمدار. يعتقد الجندى انه أهمل ويصرخ:

– بحق أمهاتكم، أيها الرفاق، انا من السرية الأولى من الكتيبة الثالثة من ثيرينيولا. اصبت بعيارين. وكسروا ساقى. أهنا أنوال؟.

– كلا، هذا R.

الآن يجيب الحكمدار. يئن الجريح، يطلق لعنة. لا يُرى شيء. ظلال كثيفة فوق أخرى شفيفة، ظل شبكة، سلك شائك. يطل ضابط:

– ماذا هنالك؟

يردد الجريح مرة أخرى:

– أصبت بعيارين. انا من السرية الأولى التى حللتم محلها. أو ليس هذا أنوال؟ آه، بحق القربان المقدس! لو أن هذا ليس أنوال فإن يد الله تخلت عنا.

– هل وصل "الغيار" أنوال؟

– كيف عساه أن يصل؟ ألم تروه؟ أنا أفضل من نجا حالاً.

ينبهه الضابط:

– أيها الصبى، تتحدث إلى الملازم المعاون.

– تمام! ولكنه لم يصل ياسيدى. لقد مات القائد و...

– حسن، حسن. لا أريد معرفة المزيد. أمعك البندقية؟

– أحضرت معي ثلاثاً!

– أديت واجبك. اخلع ذراع الإغلاق واقذفها إلى هنا. حاول أن تسقطها داخل المحصن.

يحمل هذا الأمر فى طياته يقيناً من أن المغاربة سيصلون فيما بعد حتى

السلك الشائك نفسه وربما استولوا على هذه البنادق واستخدموها ضدهم. وهو ما يعنى الحكم بالإعدام على هذا الجندى الجريح. يغمغم بيانثي بتهديدات بلا معنى ضد خسة الضابط. "أثمة كمين وسيطلقون علينا الرصاص إذا خرجنا؟ فى عتمة هذه الليلة ليس من السهل أن يقتلوا عدداً كبيراً، وحتى إن فعلوا، بما أن السلك سيكون مفتوحاً بوسعنا العودة إلى الموقع من جديد".

يفكر الجندى هنيهة، ثم يتوسل بنبرة بدلها الرعب:

– سيدى الملازم؛ قد لا يعنى ذلك شيئاً، لكننى سأتم فترة تجنيدى بعد ثلاثة شهور.

– وما علاقة ذلك؟

– إذا عولجت بوسعى النجاة، يا سيدى الملازم!

صمت. ثم يضيف وهو يجر كلماته كأنما بح صوته:

– لا أستحق الموت ككلب، يا سيدى الملازم.

– أمنعك من مواصلة الحديث!

يغير الجريح نبرة صوته:

– تمام يا سيدى!

يطل القمر. يسقط فوق الميدان ضوء شبحى، بلون القصدير. والجريح، الملقى على الأرض، يجر ساقاً مكسورة، كأنها خرقة، ويمسك بأوتاد السور. كيف سيتمكن من القفز إذا كان قوام عرضه أربعة أمتار من السلك الشائك المتشابك؟ وحين يدرك أن الضوء كشفه يحاول الإلحاح بصبر نافد من الرعب، بين يائس ومهين:

– يا سيدى...!

طلقات قريبة. يصمت الجندى ويلتصق بالأرض. بعد فترة من الصمت، يردف بصوت خفيض:

– ها هى البنادق! فى إحداها ربطت ميدالية هويتى لكى ترسلوها إلى ضابط الصف، ليكتب إلى أهل منزلى، بعد إذنك.

مات ضابط الصف، هناك أسفل؛ لكن الجريح لا يتذكر. يتوراى الملازم خلف المتاريس ليتجنب أن تطيح ذراع الإغلاق برأسه. تسقط الأولى بالقرب من السرية الطبية، وأخرى فوق الدورية أثناء مرورها، والثالثة، خارج الموقع. بعد ذلك، يريح الجريح رأسه على الأرض لتغطيه النمايات والقشور والبراز الجاف؛ والميدالية المصنوعة من الألومنيوم، بحجم عملة الخمسة سنتيمات، سقطت مع أول ذراع إغلاق. يقرؤها الملازم: "ت / 7241" . يسجلها فى دفتر الجيب ثم يلقيها. كانت مربوطة فى شريط سوده العرق.

أنوال – الكارثة

(٦)

في الليل، يتخذ موقع R مظهراً مبهماً. لا أحد يعرف موقعاً حتى يألف حجارته، أركانه. وكفت بضعة أيام كي تترع العينان بكل جامد في R، أي بما هو أشد حياة. له بلاغة محبطة وينبغي الإنصات لها زمناً طويلاً حتى لا نجد لها، في الليل، نبرات غريبة، نحسة. يعكس القمر بياضاً ضارباً إلى الزرقة، والميدان، لشدة تباين ظلاله، يبدو أرضاً يغطيها الزئبق. الهواء رطب، رطوبة نهر، ضفة، لا بحر.

الحراس يراقبون، حراس المدافع الرشاشة؛ وبدلاؤهم جلوس وراء المتاريس، مستيقظون. حوالى ثلاثين قناصاً في النوبة يرقدون بملابس الميدان في سبات محموم. ثلاثة أيام من الظمأ الخانق، بلا مؤن، بلا خداع. لا يوجد ماء، ويعلنون ذلك في تجريد وحمق كالحكم بالإعدام. ألديك اعتراض؟ هذا في الحياة المدنية. في العسكرية، قبل أن تعترض على أي شئ عليك بالطاعة. مت أولاً ثم قدم تقريراً "مكتوباً" واحتج. والمؤن. . . ، بقي شئ منها لكن، من الغباء بلع أشياء جافة مرة وأخرى. الماء، الماء، الماء. في غيابه يستوي الأكل وعدمه، النوم والسهاد. مضت ثلاثة أيام منذ أن وزعوا آخر حصة منه. وكلما شربنا تصببنا عرقاً بحيث لا تتبقى قطرة في المعدة. ومع ذلك، كانت متعة قصيرة، إحساساً بالرطوبة في الحلق والجلد معاً. من اليوم نشرب بولاً. ولا يريد بيانثي أن يجربه. يهذي وبندقيته بين ساقيه ورأسه إلى الخلف.

في أنوال يسمع أحياناً دوي البنادق الحاد. والموقع في حالة تأهب دائم

اعتادها الجميع الآن. في منطقة المنخفض، رغم بعدها عن حماية المدفعية، لا أحد يلزم الحذر، فقضم السلك بالأسنان هناك مستحيل، على من يريد عبوره أن يكون معلقاً من حبل. لذا فإن الخطر الحقيقي يتمثل في الجناحين والمنطقة المطلة على أنوال، خاصة هذه، التي تعترضها الخنادق. يتأخرون في البدء هذه الليلة. مضت عشرة أيام أو اثنا عشر منذ أن حوصرنا وقضى العرب على "قول" قادم من أنوال لم يجاوز في سيره منتصف الطريق.

الشرطة الوطنية تحتل قطاعها المحدود، تحت سقيفة صغيرة. تحدث القائد إليهم هذا المساء. كل من يحاول الخروج من الموقع باسلحة أو بدونها سيلقى حتفه رمياً بالرصاص، وفي المقابل، من يبقَ منهم ويدافع عن الموقع يحصل على جائزة لأنه، على أية حال، سيأتي "قول" في وقت قريب، وبالطبع، سنضرب بيد من حديد على أيدي المتمردين. ويعتقد بيانثي أن هذه الكلمات يمكن أن يكون لها أثر محفز فقط لو صاحبها برميل ماء. ثلاثة أيام دون تذوقه. برميل الزيت كان به على الأقل عشرون لتراً أفادت في الاحتفاظ بمائتي رجل على حافة الهذيان خلال أربع وعشرين ساعة.

لا أحد ينام. والظمأ يسبب خمولاً مترعاً بالرؤى. لكن، حتى الآن، تتلخص العقبة الكاداء في الوطنيين الخائري القوى من شدة الظمأ واليأس، وهو الأنكى. عدم وجود الماء والهجوم الذى ينبغي صده ليل نهار عند المتاريس، كل شئ يتراجع إزاء الخوف من الوطنيين، فمن بين المتمردين الذين يشنون الهجمات هنالك العديد من العساكر المغاربة الذين خرجوا من المعسكر في أيام سابقة وارتدوا ضدنا وهم في طريقهم إلى أنوال. اقترح البعض قتلهم، وبعض آخر طردهم من الموقع بعد تجريدهم من السلاح. وهم خاضعون لمراقبة حذرة. والعريف "مختار" يبدو متفائلاً غير أنهم لا يكادون يطيعونه، لكن المدافع الرشاشة متاهبة لإطلاق شحنتها على الفارين. مات ثلاثة جرحى، من بينهم مغربي، وحل محلهم جنود آخرون حتى امتلأ

الملجأ وخيمة أخرى. والطبيب يذهب ويجئ بعد أن نفد القطن والشاش أيضاً، في يده بندقية وجيوب سترته الأنيقة ممتلئة بأمشاط الذخيرة. يتحدث إلى الضباط تحدوه رغبة في المزاح:

– أي مستقبل متالق ينتظر المرء حتى أنوال!

لكنها مزحة مبتورة ومحيرة. في حفرة كبيرة دفنوا ستة عشر قتيلاً وثمة ثلاثة آخرون وجوههم إلى السماء في الموضع الذى كان من قبل مقر الحرس. بعض الجنود، قبل أن يتمددوا، يشقون بالسونكي حفرة صغيرة حتى يصلوا إلى الرمل البارد، ويرقدون هناك وخدودهم لصق الأرض. يبدون كأنما يحفرون لحودهم.

يقبل الليل ملتبساً. ثمة وفرة من ذخيرة البنادق، ليس بنفس وفرة ذخيرة المدفعية. بقيت سبعون طلقة للمدفعين. و"الأرتال" لا تستطيع المجيء؛ القائد يغدو ويروح متجهماً. لا يكاد يخرج نهاراً، يحتمي من الشمس لعدم وجود الماء ثم يخرج ليلاً مع رطوبة الطقس. وربما أيضاً حتى لا يقرأ الجنود في وجهه الخمود واليأس.

انضم بيانثي إلى جماعة ترقد جهة المنخفض، فالجانب الآخر معرض للإصابة بقنبلة يدوية: معلبات مبطنة بسلك ومحشوة بالمسامير وشظايا الفولاذ لها طنين الزنابير. يغطون هناك في نومهم الثقيل والخفيف، والوعي الهبه الظمأ، اليأس؛ أفواههم شبه مفتوحة، الشفاه تشققت كلحاء الشجر. يطلق أحدهم كلمات غير مفهومة بعد أن بح صوته ولأنه لا يتمكن من إخراج الأصوات. وجميعهم، الخد الأيمن متورم واللثة تنزف دماً.

وبيانثي، في أشد حالاته ضموراً، بلحيته المتسخة التي تختلط فيها شعيرات نحاسية اللون بأخرى سوداء، تسلخ خده كان به التهاباً. فرجع البندقية والدبشك الملتصق بخده، في غير ثبات تدريجياً على الكتف بحكم العادة أو التعجل، أدمى لثته وأصاب خده الأيمن بالكدوم، من

موضع العين حتى الرقبة. والبنادق إلي جانبه وخزائنها مفتوحة. يطلق أوتاثو لعناته ويده داخل صدره، واقفاً وسط من يستريحون، ويردف ناظراً إليهم شزراً :

– تنامون كالخنازير، اللعنة! لكن لو أنكم تربون القمل كما أفعل أنا منذ أن جئت هذا الموقع القذر، ستتمكنون من النوم جيداً!

على مسافة أبعد، الأرض غير المستوية التى دفن تحتها أول خمسة عشر قتيلاً والفوهة السوداء لملجأ الحراسة حيث ترقد جثث أخرى. والذهاب إلى ملجأ الحراسة فى R أخطر منه فى المعسكر، لأنهم إذ يحملون المصابين يخلفون وراءهم سيلاً من الدم على الطريق. سقط عدد من أصدقاء بيانثي : ذلك الذى كان يريد أن يصبح جندياً نظامياً لأن النظاميين يتلقون 2.50 بزيتة يومياً ويرتدون وشاحاً أزرق. والأشتورى الذى كان يسدى النصائح من أجل لحظات الفرار؛ والأندلسى الذى كان يتذكر دائماً واجهة محل مأكولات رآها فى مليلة، وجليقى من أشد جنود الفرقة حنيناً إلى الوطن كان دائماً ما يسأل :

– متى نسجل أسماءنا لتصاريح العودة إلى الوطن ؟

وأيضا جندى مدفعية مستجد وفتيان صموتان لا يتحدثان قط إلى أحد أو يطلبان سيجارة، ويحملان دائماً صحيفة فى خزائن الطلقات. الآخرون من السرية الأخرى ولا يعرفهم الجندى "أوتاثو". والأمر سواء. فجندى يساوى آخر، وآخر. ثمانية أو عشرة يرقدون تحت التراب وثمة ثلاثة "فى الحبس" سيوارونهم التراب حين يزداد العدد. لن تدخل السرية الخدمة إلا بعد منتصف الليل، والمغاربة يبدو أنهم ينتظرون حتى ذلك الحين. هذه السرية كانت نحسة دائماً. تحت القمر، يخرج جنديان من خيمة الجرحى جثة أخرى على نقالة.

بيانثى لا يستطيع النوم. همس الموقع الواهى يذكره، بالتداعى، بخرير

الماء. وحين يفكر في بيته في القرية يحسد ذلك البؤس وحامل جرة الماء يقطر ماءً والدن الذي تغني القطرات المنزلقة منه عند إخراج دورق ماء. لا يتخيل لمَ رحل والقرية تنعم بذلك القدر من الينابيع؟ ثم أيام الصقيع تلك التي كانت تملأ الطرق والشوارع بالبرك عند الذوبان. و"إبريق" ورشـــة الحدادة، بقطرات من شراب الأنيسون في الصيف كيلا يسبب الماء التخمة؟ كانت تلك عادة غريبة ولا باس بها من عادات العجوز.

شيء هنالك في الليل يطيل تلك الحقبة، يواصلها مخلفاً أحياناً انطباعاً معذباً وعذباً بالأمل. حينئذ كانت لدى بيانثي ثقة في عدالة كانت تنبض وتحيا وراء كل أفعاله، كل أفكاره. عدل ناصع ووضاء مضمر في كافة الأشياء. وهذه الليلة كذلك، وراء كل شيء، ينبض إيمان بالعدل لا يشعر به مضمراً في الأشياء أو الأفكار، بل هو موجود ولا ريب على الجانب الآخر من الظلمة، إيمان بعدل أسود، مهدد، صارم، أزلي، منتبه إلى كل شيء من مكمنه في حشا الطبيعة.

الآن يرقد الجنود إلى جانبه. ذلك الذي هناك هو مارتين الريوخي(1). أية ذاكرة! مصاب بستة أعيرة، بل ستة جروح من طلقة واحدة. جاءته من جانب واخترقت ذراعيه وصدره. سوء حظ! كان عريفاً مؤقتاً وكان سيؤدي الامتحان في أي يوم. واللقنتي(2) ذاك، المعلم الإسكافي الذي كان يجني في قريته، كما يقول، خمس عشرة أو ثماني عشرة بزيتة يومياً. أكثر الفتيان رصانة في السرية. لكن... تدوي طلقتان.

---

(1) من إقليم ريوخا الإسباني.

(2) نسبة إلى لقنت، شرق إسبانيا.

ينضم الدعم إلى السرية ويبحث عن مواقع له. يجرى الحكمدارات بأحمالهم. المدفع الرشاش يطلق مشطاً من الذخيرة. لقد أشعلوها. إذا قاومنا هذه الليلة فسيأتى غداً "قول"، هذا ما أكده الرقباء. ينتشر إطلاق النار، وهو أشد فى الخارج. عواء الطلقات المرتدة يملأ الوقفات بين كل طلقة وأخرى. قماش الخيام مهترئ وتتدلى خرق فى بعض الأجزاء. أى قوة انتشار رهيبة، فى قلب الليل، يندلع منها الآن كل هذا الدوي! المغاربة يطلقون شحناتهم المكتومة، ودخان الطلقات وغبار الأكياس الرملية التى فجرتها الأخيرة يتوجان الساتر بالضباب.

يقترب ظل مخبول، يلقى ببندقيته بعيداً ويمر مهمهماً. بيانثي يسأل:

—إلى أين ؟

—إيه! ماذا تنتظر هناك؟ سيدخلون، اللعنة: أصابونى بحجر.

يشير إلى عنقه، قرب أذنه، ثم يتجه ناحية قطاع الشرطة الوطنية مهدداً بكلمات مبهمة ويسقط على وجهه فوق الحجارة. يرى بيانثي بقعة الدم. يلتقط عريف البندقية ويضعها على سياج الخيمة. تطلق المدافع الرشاشة أعيرتها بلا توقف وكذلك مدفعا الميدان اللذان يبدوان أربعة من جراء انفجارات القنابل القريبة. هجوم، هجوم، هجوم! عدد من الحكمدارات يخف إليهم. "انهضوا، ضعوا الأحزمة والمعدات، الديكم الأربع؟ أجل يا بيانثي". يتم كل شئ بالإشارة. لا أحد يسمع، وفى ذلك الصمت، فى تلك الطريقة الآلية للفهم ثمة وضوح جديد ومباغت. بعد أن اصطفوا فى قطارين غير متساويين، يحضر ضابط ورقيبان. جندى يبدو متردداً، وبندقيته فى يده. "إلى الصف!" والجندى ينضم إليه، لكن سرعان ما يأخذ منه أحد الحكمدارات البندقية وينزع عنه أحزمته:

– أنت لا يا رجل. اذهب إلى الخيمة.

الجندى مصاب بعيار نارى.

بعد قليل يظهر ضابط آخر مع مجموعة من الجنود يوزعهم على قطاع الشرطة، في أماكن تحكم. "يهاجمون" . شظايا الطلقات تنفجر ضد الساتر حيث وزع قسم آخر من الجنود. بقية أفراد السرية الأخرى تجلس أسفل الساتر وسط التعزيزات، تنتظر. ماذا ينتظرون؟ من أمرهم بذلك؟ في الخارج يطلقون أيضاً مدافع رشاشة. شائعة: قتلوا القائد. الحق أن طلقات الرشاشات فتحت ثغرة، ومدفعا الميدان يطلقان قذائفهما على هدف أقرب. مدافعنا الرشاشة تعمل بلا هوادة وفوارغ الأعيرة تقفز في تواتر رنان يسمع بكل وضوح رغم الدوي.

يقترب رقيب:

– ماذ دهاكم، أأصبتم؟

– كلا.

– ماذا تفعلون إذن؟

ينهضون. من أمر بان يمكثوا هكذا؟ لا يتذكرون. بيانثي، بإيماءة معتادة، يطل ببندقيته من كيس رمل، يمزق غطاء علبة الطلقات ويتركها على الأرض، ينظر إلى الميدان وينتظر. حوالى منتصف الليل. يسمع خلفه:

–لم لا يأتي القصف من أنوال؟

لا أحد يقر باحتمال أن يكونوا احتلوا المعسكر في هجوم أخير. مر أكثر من ساعتين دون أن تسمع المدفعية السريعة الطلقات. يقول بيانثي بصوت عال:

– ويقولون إن غداً سيأتي "قول" !

يمر رقيب يردد بصوت خفيض:

– لا احد في الخندق الاول ، لا تصوبوا نحوه.

ولكنهم يتسللون من خندق فرعي عمودي ذي انحناءات طفيفة يصل حتى ذلك الخندق الاول. هذا ما يراه جيداً وراه جنود المدفعية الذين يطلقون الآن دفعات كثيفة. من أنوال يبدأ أخيراً قصف المدفعية. أول قنبلة يدوية، قريبة جداً، مزقت ثلاثة أمتار من السلك الشائك مخلفة أجزاء منه منفصلة ورنانة كأوتار قيثارة. والجنود، مع ذلك، ينتابهم شعور مريح ولحظي. تستأنف شحنات النيران في الخنادق، ويشعر بيانثي بصوت الأعيرة الخشن في الأكياس الرملية، وصفير تلك التي تمر عالية، وبغتة صوت كصوت خرقة تتمزق قرب ماسورة البندقية. "آه، كم يجيدون التصويب!".

شخص يعطي امراً:

– السرية الثالثة، ماذا تفعلون؟ اجلسوا وانتظروا.

الذي إلى جانبه يبصق دماً. اللثة. ينظر بيانثي إلى وجهه. له تعبير روحاني، قد يكون شديد الدرامية لولا أذناه الكبيرتان المنفصلتان عن الجمجمة. يومئ بالكلام لكن صوته لا يخرج. بيانثي يقترب. والآخر، بصوت محتقن –فنفسه حارق ويخرج على دفعات جافة–، يقبض على ذراعه:

– أيها الزميل! شئ ما حدث هنا؛ تذكر أني قلت ذلك. شئ ما حدث هنا.

ثم يصمت. صدغه الأيمن محتقن. ثم يضيف مشيراً إلى البندقية التي يمسكها من رباطها حتى لا تحرقه:

– على هذا النحو ستذوب الماسورة كالشحم.

تطلق الرشاشات شحناتها في غضب. يفكر: من أين لهم هذا الكم من الذخيرة ؟ طنان على الأقل من فوارغ الطلقات على الأرض. يأتي الآن

ضابط المدفعية مصطحباً في يده عريفاً. يقترب من الساتر ويقول للحراس وجنود التعزيزات والجالسين للراحة:

- من لديه رغبة فليبل هنا.

وهذا من أجل تبريد المواسير الاحتياطية للرشاشات. بيانتي يراقب الضابط. آه، كم تغير الرجل! فهم يرون الآن في الجندي، ليس بشراً مثلهم فحسب، بل يفوقهم في قناعته واستهانته بالحياة. ضباط سريته، وخاصة رويث، يجيدون القتال. كلما أطل الطبيب من الساتر يطلق شحنتين. الجندي يحتفظ بهدوء أعصابه، تحت الصخب، تحت الليل المرعب، وينتظر في صبر الهدف كي يفيد من كل طلقة. لا يفكر في الماء لأنه غير موجود، ولا يثق في "قول" الغد. وحين تخترق رقبته شحنة رشاش يقول إنهم أصابوه بضربة حجر، ويموت معتقداً أنه سقط لأنه تعثر. والضباط يعلمون ذلك، وفي هذه اللحظات يوحون بذلك في وضوح، في إعجاب صامت يرفضه بيانتي في داخله كغصة في حلقه -الحنق القديم لمن يقرون له متأخراً بأنه على حق-. مادامت هذه الحقيقة، لم راحوا يحطمونه معنوياً، ويحرمونه من حقه في الفكر، في إبداء الرأي؟ لم اعتبروه في عداد الأشياء التي لزم جردها في كل تفتيش والتي تكون دائماً في متناول القدم؟ آه، لتحفظنا العذراء، حين تصير هذه حال الضباط! تلين عريكتهم عند الموت.

من أنوال يطلقون القذائف الآن ويصوبون على نحو أفضل؛ لكن الانفجارات ترجف القلب ويبدو أنها ستخلعه من الصدر. بطاريات الموقع تصمت. والعساكر المغاربة؟ معنا أو ضدنا، سواء. يعود الآن ضابط المدفعية ومعه الدلو مملوءاً. هذا الجزء من الساتر كان كافياً؛ لكن الحكمدارات يعلمونهم بالا يبولوا على الأرض بل في الطبق أو الزمزمية، وإذا كانوا خلف

الساتر فليطلبوا دلواً من المدفعية. من لا يلبى هذا الأمر سيعاقب. يجر الحكمدارات صناديق ذخيرة، يمكثون عند الساتر وأكوام من القنابل اليدوية على مقربة منهم. مدفعية أنوال لم تزل تهدر. جنود السرية الثالثة ينهضون ويعاودون تصويب بنادقهم. بعضهم كان تركها مصوبة. جنود السرية الثانية يجلسون، يستلقون للنوم بجانب الساتر.

بيانثي يرى من جديد فوران الميدان نحو الخندق الثاني تحت انفجار القنابل؛ لكن الخندق المستعرض لا يقصفونه، المدفع الرشاش لا يسيطر إلا على جزء واحد فيوجه إليه شحناته ويصيب بلا ريب "لحماً" كثيراً. من يفرون من القنابل يتقدمون بدل أن يتقهقروا. وانتهى بهم الأمر، على الرغم من قصف الرشاشات إلى الاحتماء بالخندق الأول. وهم بلا شك يحضرون للهجوم لأنهم لا يطلقون النار، يحاولون المرور غفلة فيما يتوزعون حول الساتر. يلتقط أحد الضباط حجراً ويلقيه بقوة من فوق أكياس الرمل. يسقط خلف الخندق الأول. وفي الحال توزع القنابل اليدوية. ستمنع المدافع الرشاشة المغاربة من الانسحاب عن طريق الخندق المستعرض وإذا خرجوا من الخنادق سيصطادهم الجنود بالبنادق. تبدأ الرشاشات في إطلاق قذائفها من الخندق مكثفة نيرانها بحثاً عن فوهات مدافعنا. بإيماءات كإيماءات الدُمى ترتفع أذرع وتلقى بالقنابل اليدوية. يصمت الرشاش، ويطلقون شحنات صوب الساتر. بغتة، يفتح النار. لكن مدافعنا لا تحيط إلا بجزء واحد من هذه الجبهة، ومدافع أنوال، على الرغم من اقتراب قذائفها، لا تبلغ بعد الخندق.

إحدى بطارياتنا تتخذ موقعها بصعوبة شديدة فى الكوة التى خلفتها القنابل اليدوية للمغاربة. إلى الخلف، خارج منحنى الآكام القريبة، يرى فرسان ومجموعات من المتمردين، غير مكترثين. أسراب الغربان التى تحلق من حين إلى حين فى تثاقل تكشف عن الأماكن التى تم القضاء فيها على

"القول"، وحيث قضى أيضاً على سريتى "الغيار". يرى بيانثي بجانب السلك الشائك هيكل عظمى شبه مكتسٍ بالجلد، له ساقان ضاربتان إلى السواد. إنه الجريح العائد يوم تغيير القوات والذى أجهز عليه المتمردون وجردوه من ملابسه.

يحمل النسيم أحياناً روائح مثيرة للغثيان قادمة من السهل. حين تأتى من هناك تكون "صفعة حقيقية من الغائط"، كما يقول أوتاثو الذى يعتقد حقيقة أن العفونة مصدرها الموتى المغاربة. "لا يمكن لمسيحى أن يصدر مثل هذه العفونة".

ينظر بيانثي وذقنه ملتصق بأكياس الرمل:

– يا إلهى، يا إلهى! ماذا فعلنا كى يلقوا بنا فى هذا الجحيم؟ لا أحد فى إسبانيا يدرك مايجرى هنا. من حين لآخر تقول الصحف: "جنودنا يقضون نحبهم فى أفريقيا"، لكى يثيروا ضيق الحكومة؛ لكن الشعب والوزراء اعتادوا الأمر. حسن، ثم ماذا؟ فذلك بعيد عنا، وهو على أية حال دفاع عن الوطن. اسمع، أنت، ياولد: أتعلم ما الوطن؟

ينظر إليه بجانبه من عمق محجريه الضاربين إلى الزرقة ويهز منكبيه. يصر بيانثي، مهوّساً. يتحدث الآخر، فى نهاية الأمر:

– أخبرنا بذلك الرقيب حين كنا مستجدين؛ لكنى لا أتذكر. آه، اللعنة: الوطن ليس إلا أسهم أصحاب الأسهم.

قال له ذلك يوماً عمال قطلونيون من السرية الثانية ولمبررات غاية فى الوضوح. لكن الرفيق لا يعيره انتباهاً. يستند برأسه هو أيضاً إلى أكياس الرمل فى وضع مريح للغاية. يسأله بيانثي دون أن ينظر إليه:

– أأنت ظمآن؟ –ويضيف على نحو محموم– أما أنا فلا. شربت بولاً.

أعتقد أن الرقباء والضباط يشربونه بالسكر فقد بقيت منه كميات كبيرة فى مستودع المؤن. أصبح مذاقه شديد المرارة لكنه يقضى على العطش.

بيانشي يحرك رأسه، يريد أن يقول شيئاً لكنه يسكت عنه فى النهاية. لا يستطيع ترك موقعه. زميله لديه جروح فى شفتيه المتورمتين، ومن كمى سترته يطل معصمان ويدان نحيفتان، بلون الأغصان المتيبسة. وجهه ملتهب، وكذلك أحد جنبيه. من شدقيه ينحدر خيط من دم اللثة. هذا المساء أطلق ستة خزائن أعيرة. طلقة مرتدة رفعت قطعة من لحم يده اليمنى فأعادها إلى مكانها ولصق فوقها ورقة تبغ. ليس للأمر أهمية. يتحدث من منطقه البعيد، الدفين والغامض: "طلقة حظ. إذا أصابت كولونيل يرقى إلى جنرال ويعطونه منحة. يبدو أمراً لا يصدق أن يهتموا إلى هذا الحد بقطرات دماء هناك، أعلى، فيما الأمر هنا ...". لا ينهى عبارته. يبصق دماً ويسأل:

– متى تتم مدتك؟

– مازال أمامى ستة أشهر.

– وأمامى شهران.

يستمر القصف. من الخندق يصدر وابل حقيقي من علب الشظايا ومن القنابل اليدوية التى اغتنموها من "القول". الرشاشات تتوج رؤوس كيس الرمل، القاعدة. البنادق على أهبة الاستعداد وفى اليد قنبلتان. المدفع الذى اتخذ موقعه فى هذه الجبهة يطلق قذائفه التى تتفتح على مسافة ستين متراً. يبتعد جندى مستنداً إلى بندقيته. الضباط فى الخلف ومعهم قنابل يدوية. سطوع شديد، دخان بندقية صيد له رائحة البارود، والملازم F يسقط شبه مشطور نصفين. أكانت إحدى القنابل التى يحملها أم واحدة من الخارج؟ ليس فى وسعهم إلقاء أى قنبلة داخل الموقع، لأنها ثقيلة جداً وهم يرمونها من عمق الخندق. قتلوا ثلاثة عساكر مغاربة. والإصابات، فى

الأغلب، مميتة. لا أحد يرفع أكثر من جبهته، وفقط بسبب انحرافات غريبة عن مسارها تصيب الطلقات العنق أو الصدر.

أمر جديد بالجلوس خلف الساتر. مع ذلك، يشتد الهجوم: تنفجر القنابل فى أكياس الرمل، فى الهواء، فى الجزء الفاصل بين الموقع والسلك الشائك، ويختلط بصوت الطلقات صوت الطلقات الصغيرة وشظايا الفولاذ والصفيح التى لها طنين الذباب أو بَمّ القيثارة. يريد البعض النهوض، بوحى من الغريزة لكن الرقباء يمنعونهم بإيماءة. مدافعنا الرشاشة تعمل بلا هوادة ومدفعا الميدان كذلك. افراد الحراسة يشحنون بنادقهم ويطلقون الرصاص على نحو مستمر. يصيب عيار فارغ أذن بيانثي. يفرك خده المتورم ويقول لمن بجانبه، مقترباً منه جداً:

– الحق معك، شئ ما حدث هنا. لا بد أن شيئاً حدث. وإلا فانظر "قول" الغد! أتعتقد انه سيأتى؟

ارتفع الساتر شيئاً فشيئاً، وهو الآن إلى أعلى، أفقياً تحت السماء المنيعة. جثث الكوخ تعكس نظراتها هى أيضاً إلى أعلى. نظرات مضيئة، حمراء، تلون الضباب بانعكاسات حريق. أولاً، لون وردى لكن بُعيد ذلك، يتكثف ليصبح بلون الدم. بيانثي يسمع من يقول إلى جانبه:

– يغالبنى النعاس، اللعنة! منذ دخلت هذا الموقع والنعاس يغالبنى!

كانت تلك العبارة، المقولة ببطء كسول، كافية حتى يشعر بيانثي بالسقوط الوثير فى الظلمة. وأيضاً الهاوية التى يسقط فيها حمراء. جندى بلا عينين، خاوى المحجرين، أخرق وجاف كالمومياوات، يمكث أعلى، على الضفة. يشهر شيئاً، عظمة، بل هراوة ضخمة. الجندى ضخم كذلك، عملاق رهيب، يعزز بذلك مأسوية ورهبة موته نفسه. ما يحمله فى يده ليس عظمة ساق، كما كان يعتقد، وإنما عمود هاتف. تلونه ظلال حمراء وسوداء، يتقافز على نحو غير محتمل إلى أن يزهر عمود الهاتف فى طرفه.

تدوى رعود مخيفة. بيانثي يواصل السقوط. عندما يزهر العمود تسمع قهقهات صاخبة، الجثة تضحك، تضحك جثث الكوخ. بيانثي يضحك أيضاً، مستيقظاً. آه، إنها المدافع الرشاشة.

في الخارج يمتزج القصف بصراخ وحشى. لم يزل الرقباء يوصوننا بالهدوء. فى وقفة، يسمع صوت عسكرى مغربى ممن تمردوا علينا أثناء تغيير القوات:

– سيدى القائد، تمام يا أفندم، ها هو الماء قادماً!

ويرمى بقنبلة يدوية تنفجر عند السلك الشائك وتسقط ثلاثة أعمدة. بيانثي يفكر تحت الصخب. لو أن الموت مكتوب عليه فالأمر سواء إن هو قتل نفسه برصاصة. لم يتخيل أن ينتهوا جميعاً هنا؛ لكنه حين يسمع صوت الآخر يحتضر، وشفتاه زرقاوان، ملتهبتان، تحت محجرين شبه خاويين، تنتابه لحظة فزع. يترك الحكمدار إلى جانبه عدة قنابل يدوية. وحين يرى رأسه محنياً فوق صدره، ويده على الأرض، ظاهرها فى التراب وباطنها إلى أعلى، يهمهم بشئ غير مفهوم ويرفع رأسه بصفعة:

– ظمآن؟ خذ.

يناوله الزمزمية. بيانثي يعب منها حتى ينتزعها منه الحكمدار. يسأله من بجانبه:

– بسكر؟

يجيبه بيانثي بإيماءة برأسه. يردف الآخر:

– رغم أن مذاقه فى النهاية أفضل، يزيد السكر من الإحساس بالظما.

ينظر بفضول إلى غطاء القنبلة اليدوية، كأنه لم يرها من قبل. يشتد الصراخ. يبدو أن المغاربة بدأوا الهجوم بالفعل. ينهض الجنود، يرغبون

رؤيتهم، فتح النيران عليهم؛ لكن الرقباء يمنعونهم. مزيد من القنابل ضد الموانع، تنفجر إحداها قرب خيمة، في الهواء، فتمزق قماش الخيمة. "علقة" ساخنة. يقول الزميل:

ـ ثمة مكان واحد آمن في هذا الموقع، ذاك.

ويشير إلى الملجأ حيث يتكوم الموتى. نظر الرقيب معلق بالقمر. يلتفت بيانثي برأسه ويرى أن سحابة تتقدم ببطء نحو القمر. يدرك مايحدث. مالم تغطه لن يخرج المغاربة من خنادقهم ليشنوا الهجوم. لم يبقَ سوى دقيقتين، وسوف تستغرق على الأقل نصف الساعة في مرورها إلى أن يشع من جديد ضوء القمر. في نصف الساعة هذه لا بد من المغامرة بكل شئ. يقول ذلك لزميله، وهذا يؤكد في غير اكتراث:

ـ سيدخلون لو شاءوا. أرأيت السلك الشائك المحطم في كل هذا الجزء تقريباً ؟ لم تره ؟ يمكن الدخول سيراً على الأقدام.

بيانثي ينفض عنه التراب الذي صبته فوقه انفجارات الموانع، ويلعن:

ـ مهما تكن خطورة ما يحدث، هم يعلمونه ولا أحد غيرهم. اللعنة، أين العدل! نحن أيضاً كان من حقنا أن نعلمه، ومادمنا هالكين كان بوسعنا أن نقفز من فوق الساتر الخلفي، لينجو بعضنا.

يقسم الآخر أنه منذ شرب من الزمزمية أصبح رجلاً آخر. لم يعد يحتمل، رأسه يثقل عليه والهواء كثيف، ساخن، كهواء فرن، لكن وخزاً فظيعاً ينتاب ساقيه. تحت الدوي، يشير الرقباء بأذرعتهم. هيا! ينتصبون فوق سيقانهم النحيفة، الملتوية في شكل رسم عشوائي. يترك بيانثي البندقية مصوبة، وينتظر ومعه قنبلة يدوية في يده اليسرى.

يبدأ القمر في الاختفاء، تقترب اللحظة. تصمت الرشاشات والمدفعان يسددان على مسافة أقرب، على نفس خط الموانع تقريباً. إلى الخلف، بعيداً عن الخندق، يسمع صياح حفل أو حرب. من الجانب الأيمن، ومن الخندق

الفرعي العمودي على الخندق الرئيسي، كأنه شق عظيم، يستمر حشد الخنادق الأولى. تنتهي لحظة الترقب بانسدال الظلمة فوق الموقع، وفي صمت مطلق يخرج المغاربة وترى ظلال أجسادهم بالقرب من السلك الشائك. دفعات متسارعة تمحو الظلمة، نيران البنادق لا تتوقف، والقنابل تنفجر في الهواء فوق الأسلاك الشائكة، إلى جانب الموانع، داخل الموقع. مدافعنا تفتح نيرانها ومدافع أنوال تبدأ في إطلاق قذائفها بعيداً وتحول دون وصول الدعم. أزيز طلقات في الداخل، عند الموانع، فوق الأسلاك الشائكة الخلفية. تكشف الأرض عن سر بغضائها الشائن. حين يعود بيانثي ليأخذ قنبلة يدوية أخرى يرى قريباً منه جلاباً بكمين قصيرين مفتوحين ومتقاطعين وبندقية عليها السونكي وعسكرياً مغربياً يحك صدره. ثم آخر أقرب إليه، إلى اليسار، ثم آخر وآخر. الرقباء، الضباط، لا يستقرون على رأي، يأمرونهم بعدم استخدام المدى ويوزعونهم على الموانع. سقط اثنان منهم وشج رأساهما، ويقف أحدهم بجانب بيانثي يطلق النار دون تصويب ودون أن يطل منه سوى طرف عمامته. ضابط صف يلكزه بالمسدس في ذراعه:

— أخرج رأسك، أيها الغبي، عساهم يشجون قرنيك!

الهواء محمل بالغضب، يتدافع، يندلع، يطلق الغبار والحصى. يرتجف الساتر، تهتز الأرض، وصخب البنادق لا يسمع إلا إذا كانت بنادق المهاجمين، الذين حين يصوبون ثم يسددون نحونا يدخلون القرقعة في رؤوسنا ويصمون آذاننا. يحشد الموقع كل وسائله الدفاعية. من أنوال يعاونوننا؛ رغم كل شئ، لا نستطيع صدهم بفعل هذه الظلمة اللعينة، التي

هي خير ساتر. تتواصل الشحنات. والأسلاك الشائكة التي كانت من قبل ترى بوضوح أصبحت الآن ساتراً ثانياً كثيفاً ومعتماً من الأجساد البشرية الممزقة التي تسقطها القنابل اليدوية وتقطع أوصالها مرة بعد مرة. سقط العسكري المغربي القريب من بيانثي منكفئاً على نفسه يجر رأسه بجانب الساتر. يرى بيانثي زميله خارجاً يعرج. طلقة حظ؟ كيف يمكنهم أن يصيبونا بطلقة حظ من خلف الساتر؟ يحضر رقيبان مهرولين: "اقتلوا العساكر المغاربة".

داخل ملجأ الجثث احتمى ثلاثة وطنيين، يطلقون النار علينا. الضباط يطلقون نيران مسدساتهم على كل من يلبس جلاباً، ويذهب الرقباء وجماعة من الجنود لتحصين الخيام. تقام جبهة جديدة داخل الموقع، لكن عدد المغاربة أقل ويرى أنهم يسعون إلى الاحتماء بخط الموانع وبمتاهة البوابة حتى يتمكنوا من الفرار محتمين بالظلمة. بشحنتين أو ثلاث يقتلون ضابطين وأربعة جنود أو خمسة. سقط رقيبنا أيضاً. بيانثي يلتصق بأكياس الرمل ويواصل إطلاق النار.

يستمر قصف الرشاشات بلا هوادة. ماذا يجرى في الداخل؟ تصمت إحدى قطعتي المدفعية. يصرخ أحدهم: "المدفعان!". ويتركز القتال في الكوة التي اتخذ فيها موقعه المدفع. الحراس الوطنيون الباقون في ذلك القطاع عبروا الساتر وفروا؛ وكذلك في هذه الجبهة، تحت الدوي، يقفون فوق الساتر كدمى خرقاء ويركضون نحو السلك الشائك. تصوب رشاشاتنا نحوهم وينجو منهم فقط اثنان أو ثلاثة. في الميدان، تقدمت موجة جديدة نحو الموقع. والمدفعان؟ يستأنف كلاهما القصف. أما زال هنالك عساكر مغاربة في المحصن؟ أطلق الرصاص على عساكر مجموعة الخدمة الثلاثة في أماكنهم، وسقطت بقيتهم خارج الساتر. ربما نجا منهم ثمانية أو عشرة. في كوة المدفع قتلوا اثنين من جنود المدفعية. لم يزل هناك عسكري مغربي

في الداخل يركض في جنون، وبندقيته في يده، من مكان إلى آخر. حين يقترب يفتح بعض الجنود عليه النار فيفر ويسقط على وجهه فوق سياج الخيام، يتقهقر ويستمر في ركضه على غير هدى ويتلقى أعيرة من كل جانب. يضل طريقة من شدة الهلع، أم أنه يريد أن يفر من نفسه.

يعاود بيانثي توجيه اهتمامه إلى السلك الشائك لكنه يستشعر هوس المجنون ويسمع وقع ركضه وصياحه بالعربية. جنون العسكرى المغربى مثل خميرة عته الجميع، الصاعقة التى ستفجر عقل الباقين. الحكمدار نفسه يومئ كالمجنون، يتحرك كالدمى المشدودة إلى خيط، وتؤتى أفعال خرقاء مثل التبول بالتناوب فى دلو الرشاشات كلما مر الضابط. والمحصن ساحة لجأ إليها مائتا مجرم. الحرس المدنى فى الخارج. لا تتركوا واحداً منهم على قدميه. لكن، فى الداخل أيضا، هنالك حرس متخف، وهؤلاء يدفعون الثمن. يقترب الحكمدار؛ ويضحك:

– ذلك التعس.. .رشق نفسه بمديته.

بيانثي يضحك كذلك. لم يزل يضحك بعد أن ذهب الحكمدار: لكن، من بعيد، لن يدرك أحد هل يضحك أم يسعل، تلك السعلة المستمرة، الجافة، العصبية.

فى الخارج تواصل الرشاشات قصفها. الآن يسقط المجنون منهكاً، وأحد ما يصوب مسدساً إلى صدغه. لا يكاد السلاح يلمس جبهته، يقفز إلى أعلى ويصدر عنه بعض الدخان. ثم يحملون جثث الوطنيين إلى الجزء الخلفى ويلقون بها فى الوهدة جثة جثة كى يرى المتمردون العقاب. هم ثمانية عشر أو عشرون، ويسقطون متعثرين بإيماءات جروتسكية. بيانثي يفكر: "لو كانوا تخلصوا منهم منذ عشرة أيام، لتبقى ماء حتى الآن"، ويشعر بحقد غامض. لكن بعض الظلال تخرج من السلك الشائك، كأنما الأجساد الميتة تمتد على الأرض فى أذرعة

صامتة. ولا توجد ذخيرة. تكاثف الهواء حتى إنه سيخنقنا من حيث لا ندرى. تلك الظلال الأخطبوطية هى أشباح الليل العفن الذى يبعث من بعيد دفقات مثيرة للغثيان. بيانثي يطلق النار فى عجالة صرعية. يسقط على ذقنه خيط دافئ وعيناه ملتهبتان. المدافع الرشاشة ترفع الأرض فى الاتجاه المعاكس على مسافة عشرين متراً على هذا الجانب من السلك الشائك. تنفجر قذائف المدفعية وتمر الطلقات طنانة. لهب أحمر يضئ عن قرب خزائن طلقات منكبة، بنادق مشهرة السونكى، موتى يرقدون على ظهورهم، سيقاناً عارية ترتفع فوق السلك الشائك. وبطاريات أنوال تتسلى بتكسير الحجارة ستين متراً إلى الخلف، حيث لا يوجد أحد. فى الكتف، ألم روماتيزمى عميق، وخزائن الطلقات شبه خاوية، والجسد مائل على الساتر. أذرعة الأخطبوط تمزقت. مدافع الهاون شلت حركتها. لكن بعضها ربما تمكن من الزحف حتى الساتر ونهض ليحوطه بمحاجمه القوية اللزجة. السونكى، من الأفضل تركيب السونكى. دون أن يدرى كيف، ألفى يديه محملتين بقنبلتين فيلقى بهما صوب الخارج. لا تنفجر إحداهما. لكن الأخرى تنفجر على مسافة خطوتين. الأخطبوط تقهقر ويصدر رائحة شياط وزيت مقلى. لكن آخرين يقدمون ولن تكفى القنابل الجميع. إلى الخلف، داخل الموقع، يسمع أزيز الطلقات عدة مرات. تميل خيمة بصاريها المحطم وتسقط على جانبها، كقبعة ضخمة. ويطل القمر من جديد. لا يُرى كائن حى. جثث عند سور السلك، جثث أخرى فى الداخل، قرب الساتر. تصمت المدافع الرشاشة منهكة. البنادق كذلك، فيما عدا بيانثي الذى لم يزل يطلق النار على جسد سقط على مسافة قصيرة من الساتر مغمغماً بالسباب، فى هياج عظيم. يطل بعض الضباط ويدنو أحدهم من بيانثي:

– هيا يا رجل، أجننت؟

– النذل... ! –يبرر الجندى مشيراً إلى الجثة.

بيانثي ينظر فى ذعر إلى السماء: لكن لا سحب هنالك. لا خوف، فى هذه اللحظة، من هجوم ثانٍ. لا الرشاشات ترد ولا المدفعان. بعض قنبلة وطلقات بنادق متفرقة. المغاربة يضحكون، يصرخون، يهددون من مكمنهم فى الخندق. فى صوتهم نبرة مظفرة غير مفهومة فى أعقاب تلك المجزرة. بطاريات أنوال تقصف الآن قريباً جداً من الخندق الذى محته الأرض المقلقلة وحفر الانفجارات. قذيفتان أو ثلاث تسقط مصادفة فوق الخندق العمودى وتخلف وراءها على الجانبين مزقاً ممددة من القماش، أعضاء بشرية ربما.

بيانثي يشعر بانه غارق فى عرق بارد. يصيبه غثيان، تؤلمه كتفه، لثته؛ وفى عنقه، قريباً من ظهره، يحس بأن أحداً رشق فيه خطافاً من الفولاذ. يتأخر برهة فى تعرف نفسه وحين يمر بيده على ذقنه لا يشعر بشئ. أما فيما بعد فنعم. يشعر بمقبضين تحت الجلد المترهل، على امتداد الخدين، ويفكر فى أنه بهذا الجلد الشديد النحافة لن يتمكنوا من حلاقة ذقنه دون أن يصيبوه بقطع. يجلس. تبرز من شق بسرواله ركبة متيبسة وضامرة. إلى يمينه، ثمة مثل أربعة أمتار بلا دعم. ‌أأجهزوا على ذلك ذى الوجه المؤسي؟ ودون أن يستكنه السبب، يشعر نحوه بازدراء لا نهائى. فى أعماقه هو مقتنع بتفوقه ويؤازره أمر حقير: أنه شرب البول بالسكر فيما شربه الآخر "سادة". يقول بصوت عال، بنبرات غريبة، محتبساً صوته أحيان فى حنجرته:

– يقول إنه يبقى شهران! أليس في وسعي القول إنني أنهيت مدتي؟ هنا، ليس ثمة سوى كلام وكلام. والآخرون يتخذون سمت من يصدقه –شحنة أخرى في الخارج، وصيحات عربية–: ولكنه مادام كان سينهي خدمته في غضون شهرين فمن حقه أن يختار السلاح، وأي فرقة شجاعة اختارها؟

يعود برأسه إلى الخلف ويجرح نفسه بحجر، لكنه لا يستشعر أي ألم. في أذنيه، في العمق، تطن خطوط التلغراف، خطوط وهمية. يمر بظاهر يده على شفتيه اللتين بدأتا تتشققان.

– شهران! وأنا يبقى لي ستة أشهر، ولا أقول شيئاً، فيم يفيد؟

يوزع الحكمدارات زمزمية على كل ثلاثة مملوءة بالبول. فيدل، كالمعتاد، يلف منشفة حول رأسه ضد "الطل". بيانثي يسأله:

– و"الغيار"؟ أم تعتقد أننا كخيال الظل سنمكث هنا إلى الأبد؟ أعرف من يدير هذا.

يعتقد أنه يصيح؛ لكن الحقيقة أن أحداً لا يسمعه. يخرج من بين أسنانه همس مبهم. يهز فيدل منكبيه ويقول، ماراً به في سيره المتأرجح:

– صه! تثرثر كدجاجة.

يقدم جنديان يمسكان بندقيتيهما من حامليهما، متدليتين: حتى لا تحترق أيديهما. أحدهما، بضمادة حول رأسه، والذي يبدو كفرع شجرة مجدوع ويعلوه الجليد، يدخن سيجارة ويردد أنه كان في كوبا وأنه أنفق مالاً وفيراً.

– هناك تحيا كالملك. وكذلك في فرنسا. هناك، الجنود غير مهندمين.

أول زى عسكرى يرتديه إسبانى أفضل من ملابس قائد فرنسي، ويسمون المدافع الرشاشة "متريليوز".

ينفجر كلاهما ضحكاً. ويردد بيانثي حين يسمعهما:

– ثرثار!

يضايقه أن يتحدث الآخرون، وقبل كل شئ أن يضحكوا. شحنات جديدة من النيران ومن جديد تعمل المدفعية. البعض ينهض بصعوبة فى شئ من السأم، ويقترب رقيب:

– بيانثي، انهض!

يرغب فى النهوض وحين يلتفت الرقيب إلى ذلك ينهضه ويتركه واقفاً إلى جانب الساتر وبندقيته متأهبة. يلتقط بندقية أخرى ويقف بجانبه. يقدم له الزمزمية ؟

– ساخن؟

– كلا. برد وبه سكر.

يشرب بيانثي للمرة الثانية فى ثلاثة أيام. لا يشعر بالظمأ من حيث هو ظمأ. فى اليوم الأول لم يكن بوسعه التوقف. وفى اليوم الثانى كان يستوى الأمر تقريباً، على الرغم من أن عظام المرء ترتخى وتتورم شفتاه. ثم يعاوده جنون العطش، ثم نعاس يسبب غليان الدماغ والحشا، وبعد خمسة أيام أو ستة فى أحد مساءات هذا الشهر –يولية– يحملونك مسعوراً ككلب.

يسأل بيانثي:

– أجاء "الغيار"؟

يجيبه الرقيب بالنفى ويطلق الرصاص. نحو الفجر بوسعهم النوم قليلاً. يزمجر بيانثي:

– ما كنت أوده هو أن أشق روح أى من العساكر المغاربة الذين فروا "بجلدهم".

لكن الرقيب ينصحه بأن يتوخى الحذر، ربما كرروا الهجوم. دون أن يدرك السبب، يخر بيانثي على ركبتيه مرة أخرى، يهمس:

– أنا أيضاً أثرثر!

يتمكن من التفكير في نفسه؛ ولكنه يرى نفسه معتوهاً من منظور المنطق المعتدل لمن ينظر إلى شخص غريب عنه؟

– من أنا ؟ أتحدث وأتحدث ولا أدرى لمه، لأن هنا لا أحد يستمع. يستوى أن تصرخ وأن تهمس في الأذن. يضحكون ثم يذهبون وإن قلت إنه ظلم يضحكون حتى نوبة الصمت. لا شئ، أنت لا شئ يا بيانثي. مثرثرون، اللعنة، فلا تشبعون من التبول وانتظار "قول" الغد!

صمت. في الزاوية تغنى البنادق وتقرقع الرشاشات.

– أغنية جميلة! لو كان هنا معلم الحدادة الذى كان يرقص على طرق السندان وقرع الأجراس في غياب صاحب العمل لرقص الآن كذلك.

يعود الصديق ذو التعبير "المؤسي"، يعرج:

– ماذا حدث؟

– أمر الطبيب "بالخدمة" لكل من بوسعه الوقوف على قدم!

-ألم تعد هنالك "طلقات حظ"؟

– بلى، لأولئك!- يشير إلى ركن من الموتى.

لا يلتفت إليه. السماء آخذة في الشحوب. هنالك برودة عذبة. يقدم الحمكدار فيدل:

– الضباط مع القائد، قتلوا أربعة، والملازم X يحمل عياراً في رقبته ويتحدث من نصف واحد.

تطلق الرشاشات النار. لأى هدف؟ رغبة في الصخب. يطل الحكمدار فيدل من الساتر ويسقط في الحال على ظهره. ترتد البندقية في خبط خشن. المنشفة كانت تقيه مّن "الطل"؛ لكنها، ما كان أسهلها من هدف!

(٧)

عند الفجر للوجوه شحوب الشمع يعززه ظل لحية سكان الكهوف. ما إن ترتفع الشمس تنعكس أعلى خيمة. ما زال جميعهم عند الساتر. الآكام ناصعة؛ السماء باردة، صافية. نامت الطبيعة وصحت فغسلت محياها. ما حدث في الليل كان كابوساً وحشياً، بقي منه وسوم درامية، زائفة. سور السلك ذاك، وتلك الحملة من المغاربة المشتبكة به، ماذا تفعل هنا؟ هيا، انهضوا، كفى. اذهبوا إلى القبائل وصلوا صلاتكم المثابرة. الدم يفرش تحتهم، بين أوتاد السلك، بساطاً أحمر يضرب إلى السواد.

زرقة الصباح أشد شحوباً تحت هذه الشمس الزرقاء الإجماعية. والجنود ظلال رمادية تتحرك بصعوبة، في تراخٍ، في صمت. ثلاثة أو أربعة منهم يذهبون ويجيئون بلا هدف، عيونهم غائرة وخطومهم بارزة. يعاودون الذهاب إلى نفس المكان، كأنما نسوا شيئاً، ليرجعوا دون أن يفعلوا شيئاً. هنالك هوس لا يستكنهونه، وهذا الهوس يدفعهم إلى فعل أشد الأشياء تضارباً. لم يزل بيانثي مع جثث سور السلك.

ـ هيا اذهبوا إلى القبيلة. أيها الخنازير، أبناء العاهرة! ها قد طلع الصبح. ألا تصلون إلى الله الأكبر؟ الله هنا، أيها الأنذال! السلام عليكم، أيها المخنثون! ألا تصلون؟

بيانثي لا يرفع عينه عنهم فيما يغمغم. والموتى، المنكفئون على وجوههم، المعلقون من بطونهم في السلك، يتحركون أحياناً. بعض آخر راقد على ظهره، عنقه ملتو على الأرض، عارية سيقانهم، ينظرون إلى صدورهم في إصرار. بيانثي لا يرفع عينه عنهم:

ـ هيا، صلوا، فها قد طلع الصبح.

يخفق الصمت بجناحه فوق الموقع. خورس إجماعى يأتى من سور السلك: "مولاى عبد-الـ-سلام..."، ويعلو تدريجياً، فى شبه أغنية، شبه تلاوة. يفتح بيانشي عينيه غير مصدق:

– أيها البلهاء، أيها البلهاء: الآن تصلون! ثم تأتون بعد ذلك لتطلقوا النار علينا وتحاولون القفز فوق السلك الشائك. ونحن هنا أياماً وأياماً...

– من لديه نصف كسرة فليفتتها ويأكل.

– القهوة! لم أجربها منذ اثنى عشر يوماً.

هناك، مطبخ الميدان بمدخنته مصوبة نحو السماء كمدفع منتقم متأهب لإطلاق قذيفته.

–وماذا فى ذلك؟ أتريدون قهوة؟ ما أريده أنا هو النوم جيداً. فى أنوال، فى بعض مرة، كنا ننام القيلولة.

يتحدثون مستدبرين الساتر، فى سلام لحظى، تحت اللغط البعيد للمغاربة الذين، فى مأمنهم الآن من مدفعية أنوال، يعدون خطتهم. لا أحد يراهم؛ لكن الرياح تحمل همهماتهم.

– فى أى يوم نحن؟

يهز بيانشي رأسه:

– فيم يهم؟ أيعلمه أحد؟ حين قدمنا، رشق الرقيب فى عمود الخيمة حفنة أوراق تقول: واحد: الثلاثاء؛ اثنان: الأربعاء، بقلم الرصاص، وهكذا حتى ثلاثين.

– أى رقيب؟

– ذاك!

يرقد على ظهره، فى صفوف الموتى الممتدة حتى الوهدة، خلف ملجأ الحراسة.

–تنتاب المرء رغبة فى إصدار الأمر إليهم :انتباااه! وربما نهض أحدهم بحكم العادة.

بيانثي ينبه:

– أتدرى شيئاً ؟ ليس الموت مخيفاً كما يبدو. تموت وينتهى الأمرا

إلى الطابور. يخرجون. فضلاً عن الحرس يمكث عند الساتر حوالى خمسة عشر رجلاً. والآخرون يصطفون. رقباء نوبة هذا الأسبوع سيقومون بالتفتيش؛ لكن الرائد –لم يبق سوى واحد فقط – يأمر بالعد ويضع القوائم فى جيبه. أربعة وأربعون، اى ثمانية وثمانون جندياً، من أصل ثلاثمائة حضروا إلى هنا، فضلاً عن بعض القدامى وقطاع الشرطة الوطنية. بيانثي يدرك الآن لماذا يرى وجوهاً مألوفة عند الساتر. هم جميعاً تقريباً من السرية الأخرى. يجرون التفتيش على المؤن، تحسب حسابات بصوت خفيض. وبما أن أحداً لا يحتمل وضع "انتباه"، يصدر أمر "استرح" ثم ينصرفون ويعودون إلى مواقعهم عند الساتر. البعض يرفع رأسه ليحتفظ به فى وهم اليقظة العنيف ويفتح فمه وينعس دون أن يغمض عينيه. وإذا أطلق الرشاش النار، يستوى الأمر، يواصل النوم.

يخلف الموقع انطباعاً موحشاً كحظيرة قديمة مهجورة. أنين فى الخيمة المحطمة، تحت قماشها الذى رفع من أحد الجوانب كى يتسنى المرور. هناك يرقد الجرحى، وسط أحجار السياج شبه المتهدم. والليل، في غياب القمر، كان حالكاً كأحشاء بركان، أشد ظلمة منه فى إسبانيا. والفجر، الأكثر

إشراقاً وروعة بعد كل دقيقة، يفيض على الموقع قبحاً وبرودة. الأرض تفيض دماً: نشع، برك صغيرة. وعلى الساتر دم كذلك؛ وعلى كيس رمل، على مقربة من بيانشي، جزء من كتلة دماغية.

يتجنب الجنود النظر إلى الوجوه. لهم هيئة زائغة، محمومة، جنونية، عيونهم متورمة، محتقنة، شفاههم سوداء ومتقيحة. بين كلمة وكلمة يلكزون ويهرشون. يعود ضابط المدافع الرشاشة ومعه الدلو، يقول:

– إن شئتم، هنالك بول بارد.

يلاحظ في عينيه إعجاب ما صامت. يفكر بيانشي: "بالطبع! فنحن من تسميهم الصحافة أبطالاً. أن تحمل مخ زميل ملتصقاً بحذائك وتربى القمل وتشرب البول، هذه هي البطولة. أنا بطل. بطل! بَـ..طَـ..لٌ!".

والكلمة بعد ترديدها، تفقد معناها ولها وقع زمجرة حيوان أو احتكاك شئ بآخر.

يخرجون جهاز الإشارات الشمسية وينتظرون حتى ترتفع الشمس قليلاً. القائد نهب للقلق والتوتر، والانطباع الذكي في الماضي أفسح مكانه لغباء غير مكترث:

–كم طلقة مدفعية؟

–ست لكل قطعة.

تنعكس الشمس على مرآة الجهاز وجندي الإشارة يبدأ عمله. يشرع في إرسال النداء وانوال يرد. القائد ينزع الورقة من دفتر ويكتب، وجندي الإشارة ينقل الرسالة وعيناه تحدجان الأفق: "المقاومة مستحيلة. حين تسمعون الطلقة الثانية عشرة، وجهوا قذائفكم إلى الموقع". ثم يمزق الورقة إلى قطع صغيرة. بيانشي يتحرى عيني زميله:

– أتعتقد أن "القول" سيأتي؟

يحمل جندي الإشارة الجهاز ويهم بحفظه. يقول القائد:

– لمه؟

حقاً. لا طائل تحت حفظه. لن يضطروا إلى الإبلاغ عنه. يتكئ على السياج، بعينين بلهاوين.

– لكن هذا ... آه، كلا! هذا محال!

ينظر القائد إليه فى صرامة والجندى يصمت. تهتز نجمة أنوال الزرقاء. ماذا يقولون؟ لا شئ. تسلموا الرسالة. والآن! أكل شئ انتهى؟ حين لا يأتينا رد من أنوال فلا نجاة لنا. ماذا جرى هنا؟ لا يجدى اعتبار أن لا أمل فى أن تفرض قوة الأحداث نفسها. لذا، لا يستسلم المرء. ولا يفيد اليأس، الجنون، لأن المرء على أى نحو، وفى كافة الأحوال، يصطدم بسقف الموت الأسود. لكن هذا محال! هل ينبغى أن ينتهى كل شئ هكذا! القائد يراقبه ونظرته تؤنبه فى صمت وتذكره بأن عليه أن يحفظ السر. سر فى ساعة الموت. أية سخرية! ومن هو القائد الآن سوى جثة؟ جنود الساتر نهضوا أيضاً من بين الجثث هائمين فى أداء خدمتهم على نحو أخرق. يضحكون بالفم فقط وتثبت بقية الوجه تعبيراً صامتاً. يتجه نحو بيانثي، ونحو القائد الذى ينظر إليه دائماً ويداعب مؤخرة مسدسه. سيقتله بطلقة. يؤدى الجندى التحية. القائد يأمره بأن يخفض يده:

– قل لهم إنك سألت متى يصل القول وإننا ننتظر ردهم.

يتجه صوب الساتر. يطلب بيانثي منه سيجارة فيخرج جندى الإشارة علبتين ويوزعهما ويحتفظ لنفسه بسيجارة واحدة. يدخنون جميعاً. القائد والضباط الثلاثة الباقون يخرجون أيضاً علب تبغهم على مقربة من خيمة. فى أنوال يبدأ سماع نيران الرشاشات ومدافع الميدان وفى ذات الوقت تحتشد الآكام المجاورة ويبدأ تواتر المتمردين فى الخندق العمودى من خلال ما يشبه الطريق المغطى الذى صنعوه بالإفادة من حفر الانفجارات. مدفعا الميدان ينتظران مشحونين بالقذائف وتستعد الرشاشات بأمشاط

الذخيرة التي يشبكونها ويركبونها في شكل سلسلة طويلة. يشد بعض الضباط على أيدي البعض وواحد منهم، بحكم العادة، يبتسم لدى أداء التحية. والقائد، من موقع استراتيجي، قدماه مضمومتان وذراعاه ملتصقتان بجسده، وخصائله الرمادية يطيرها الهواء، يعطي الأمر بالانتباه فيتجه جميع جنود، عدا الحراس، إلى الداخل:

- جنود إسبانيا!

يتخطى صوته الساتر ويمتد فوق ميدان الفجر الذهبي:

- الوطن يطالبكم ...!

قذائف ودفقات السلاح تخنق صوته. يُستأنف الهجوم. يصرخ القائد ثلاث مرات في صرع: "تحيا إسبانيا"، في انتشاء يغير سمته. تحت تراشق النيران، وسط قذائف المدفعية، يجيبونه في همس هنا وهناك، في بحة صوت مزكوم. القائد يعد مسدسه ويطل بلا حذر من الساتر. يطلق النار مرتفقاً أكياس الرمل. بيانثي، حين يراه، يشعر بضيق في صدره، بحنان غريب. صوت من أعماقه ينفحه شجاعة، يترعه بثقة جديدة. تشع الشمس على مقبض البندقية، تضئ أنجماً عند فتح وغلق غرفة الانفجار. جندي الإشارة انبطح على الأرض يسف التراب ويلعن. للمدافع صوت أكثر نعومة في صباح يوم من شهر يوليه، يرتفع وينشر ألوانه الزاهية. كل شئ في سلام، في السماء، في الأرض.

جندي الإشارة أحصى ست طلقات مدفع. يطلقون ويطلقون ولا يعلمون.. .طلقة أخرى! أصبحن سبعاً! توقفوا أيها الرفاق! آه، لـو تعلمون! ينهض ويأخذ بندقية، يبحث عن خزائن طلقات، يتجه ناحية الساتر. قذيفة أخرى. تبقى أربع. الموقع الآن أصبح ينتمي إلى عالم الذكرى، خارج اللحظة التي لا تنعكس إلا على الظمأ والقذارة واليأس الذي أضحى فعلاً جسدياً أيضاً. يفتح النار على الظلال التي تتوج

أكياساً رملية على مسافة أقرب من الخنادق الأولى.

وابل من القنابل يسبق الهجوم. للمغاربة تكتيك يائس. موجة تبلغ سور السلك نفسه وتتحصن فى حفرتى قنبلتين، خلف ساتر من الجثث. من هناك تسقط القنابل الآن داخل الموقع وتكسر ذراع جندى الإشارة. بالأخرى يواصل إطلاق النار والألم يغسل ظلال العقل -القول الشائع بأن الألم المعنوى بطهر صحيح فيما يختص بالألم الجسدى-فيعمل فكره. لو أن القتال بين جيشين نظاميين لاستسلموا وصاروا أسرى؛ لكن هنا، بعد ما رآه الجميع -عذاب الضابط الطيار- لا بارقة أمل هنالك. القذائف انتهت إلى تدمير خيمة الجرحى، دمرت الساتر من جانب وجرحت عدة جنود. بيانثي لديه رصاصة مرشوقة فى ركبته. عندما يعتلى المغاربة الأسلاك الشائكة، تقدم الرشاشات عرضاً لا طائل تحته وتطلق المدفعية قذيفة واحدة، ثم أخرى، بعد فترة طويلة. يتردد المهاجمون وفى النهاية يتقدمون فى حزم.

ينظر بيانثي إلى كلا الجانبين. لا توجد قنابل يدوية: يرى الأرض مزروعة بجرحى جدد ممن كانوا فى الخيمة والذين يموتون وقد سحقت أنوفهم فوق الأرض وسط بركة من الدم الحى والأحمر، بعد أن فروا زحفاً حين رأوا السياج الحجري ينهار فوقهم. لقد أصبحوا قريبين جداً بحيث لا يمكنهم أن يخطئوا. ثمانية أو عشرة شهروا مُداهم وينتظرون فى تشكيلين على جانبى الأبواب. آخرون على مسافة مترين من الساتر يحملون المدى أيضاً. يلقى أحدهم سلاحه ويركض فى كل الاتجاهات مصدراً أنيناً نحساً، ويطل جريح من بين قماش الخيمة المهشمة وحين يرى أن بيانثي ينظر إليه يخرج خطاباً من صدره ويصرخ:

– من فضلك! إذا دخل "القول" أعطه لحكمدار البريد.

يعتقد أن كل ذلك الصخب هو "القول" وأنه وصل بالفعل. يلتقط

بيانثي الخطاب من الأرض ويحتفظ به. على المظروف، الحروف الأولى مزينة بزخارف غريبة وفوقها زهرة.

من قطاع العساكر المغاربة قفز عدد من الوطنيين ومن مكمنهم الآمن خلف سياج الخيمة الأولى يطلقون النار على الرشاشات. يعمل الآن مدفع واحد فقط. المدفع يطلق القذيفة الأخيرة وجندى الإشارة يسند فوهة البندقية تحت ذقنه ويخرج إصبع قدمه من حذائه ويضغط الزناد.

بيانثي يرى جلاباً يعتلى الساتر. يشهر مديته ويتقدم، مستجمعاً كل قواه. يصطدم السونكى بشئ شديد الصلابة، يرتشق به فيحرك كيس الرمل الأخير ويلقى به إلى الخارج. يرتفع الجلاب من جديد وفى تلك اللحظة تصم الأذن صرخات بشرية. ألم، بهجة، غضب. حلت مكان هواء الصبح الوادع وصخب المدافع والقنابل. وبيانثي، في ذهول كل تلك المفاجآت، لا يرى؛ لكنه، وسط ضباب الأصوات والصراخ، الممتزج بانفجار خشن لطلقات الماوتزر، يشاهد فوق منحنى الأكمة، على مقربة من الخنادق، جماعات من الفرسان المغاربة.

يتمزق الهواء فى خرق عنيفة. دفقات شديدة تلفح الوجه وتهز الأطراف السفلية للسترة. ينزاح الجو فوق الرأس كما تنزاح أغصان أيكة، وتطير قطع من الأكياس والحجر وأكمام مغبرة معتمة. بطاريات أنوال تطلق قذائفها فوق الموقع. اختفى جزء كبير من الساتر. تصل موجات جديدة من المغاربة، وفى فوضى بالغة، يطعن الهواء وكل ما يعن للعين. خمس عشرة قذيفة، عشرون تنفجر هنا وهناك.

بيانشي، المصاب فى إحدى يديه، لا يستطيع بيده الأخرى أن يخرج البندقية من خليط غريب من الخيش والغبار والجلابيب. وسط الدخان والدم والصخب -الفرقعات كثيفة وجسدية وتدفع المرء إلى الخلف-، بيانشي يثب، يتقهقر، يفر، ليس من المهاجمين الذين لا يراهم بل من الكون الذى يتدفق فوق الموقع وينفجر أشلاء على مستوى الرؤوس. يسوط الهواء ظهره فى موجات عنيفة مع كل انفجار. يركض دون سلاح، بإحساس من يفر من الخدمة، من يهجر الجميع لحظة الكارثة النهائية وأيضاً بإحساس من يخلف فى موقع R جزءاً هاماً من نفسه. إن إحساس الناجين هو نفس الإحساس الذى قد يشعر به الموتى لو أن لديهم الوعى بأنهم قضوا نحبهم منذ قليل. يسقط، ينهض، يسقط ثانية. والبندقية؟ وأين ترك أيضاً "الطاقية"؟

بعد قليل، يجد نفسه يهبط الأكمة، بلا سلاح، بخزائن الطلقات فارغة. خلفه، إلى أعلى، يبقى الموقع براقاً، يصم الآذان، بنطاق من الأرض المقلقلة، وقوة بركان مكبوت. الآن، تُسمع على نحو أفضل بطاريات أنوال. والقائد؟ رآه يطلق على نفسه الرصاص. قفز من أماكن أخرى رقيب وستة جنود أو ثمانية؛ لكن من هؤلاء سقط على الأقل ثلاثة فى الحال. كان الرقيب يحتفظ ببندقية، إنه آرميسن، رقيب السرية الثانية. بطاريات أخرى تطلق قذائفها خارج الموقع وتسقط قذيفة على مسافة ثلاثين متراً. بيانشي ينهض ويواصل الهبوط بصعوبة. تدفعه قوى خارقة. لا يشعر بالعطش أو بالم ركبته أو يده. والقرقعة التى يخلفها وراءه تزيد من بريق عينيه المتسعتين والمسمرتين على المعسكر البعيد الذى يمد إليه طريقاً طويلة طويلة. آه، يا إلهى الم ينج أحد، لم ينج أحدا. بيانشي يدرج نفسه ضمن من تشملهم عبارته. هو أيضاً سيموت قبل أن يصل أنوال. قذيفة أخرى تسقط على مسافة أقرب، ناحية خنادق خاوية. وبعدها، أربع أو خمس،

بطنين حاد من عدة طبقات. إلى أعلى، من المؤكد أنه لم يعد هنالك حجر فوق حجر.

فر من قبره؛ بيد أنه لديه انطباع بأنه رقد هناك ميتاً وأن الانفجارات نبشت قبره. وإذا كان يمشى، بعد أن خرج من القبر، فمرد ذلك إلى شدة انحدار الأرض وإلى الهواء الذى يدفعه. يجرب حفظ توازنه ومن أجل ذلك يتجنب الصخور بالدوران حولها أو برفع قدميه على نحو شاذ. إن يسقط فلن ينهض ثانية. قوة حدسية جديدة تقول له إن التعب وعدة ليال بلا نوم -ثمان، عشر، اثنتي عشرة؟- والحمى والعطش ستسقط فوقه ككتل من الرصاص ولن تدعه ينهض. السير، السير. يود تفحص جروحه فى لحظة رصانة هادئة. ينحرف أكثر ناحية شق في الأرض تعمر قاعه الأشواك والعليق. عدد من الغربان يتقافز مستنشقاً الهواء ويحلق ويخرج في أسراب. رائحة لحم متحلل، ساقان عاريتان من اللحم تحت خرق سروال. يختبئ ولكن دونما حذر. يشعر بالغرابة أن يرى نفسه يرثى لحال بيانثي الآخر الذى مكث هناك، أعلى الأكمة. يجلس خلف عدة صخور وبساقه المتيبسة يتفحص جرح ركبته. دم غزير لكن الطلقة سطحية والمفصل سليم. لو استطاع أن يبلغ أنوال فلا خطر. هناك، ينتظره الماء، الأمان؛ وربما نقطة الإسعاف، لو أنهم اعتبروه مصاباً، ومن يدرى، ربما يرحلونه إلى مليلة، إلى المستشفى، حيث توجد أسرّة كما فى إسبانيا وأشخاص بمعاطف بيضاء يعتنون بالمرء.

جثث نصف عارية، شبه مغطاة بالذباب. ترتدي الأحزمة، وإحداها لم

تزل تحتفظ ببندقيتها. يفتش زمزمياتها. من إحداها تنطلق ذبابة زرقاء تطن، ويخرج من الأخرى تراب. ثمة بعض الخزائن ممتلئ بالطلقات وبندقية في حالة جيدة. ينقل الطلقات إلى خزائنه ويلتقط السلاح. آه، ثقل حامل البندقية ومسؤولية السلاح الغريبة يغيران وجهة احاسيسه! يسمع الدوى، إلى أعلى، يهز منكبيه ويطلق عبارة بلا مبالاة معتادة في الحياة العسكرية. ثم يتفحص الأرقام المكتوبة على الياقات: 42،42،42،42،42. ينتمون إلى آخر "قول". يستأنف مسيرته إلى انوال. بوسعه أن يصل إلى هناك في ساعتين. ولكنه عندما يغادر الوهدة يشعر من جديد بالرعب بسبب خزينة الطلقات وبسبب بندقيته. يفكر: مع ذلك، سيستقبلونني استقبال الجندي الشجاع في أنوال، وإن لم أحمل معي كل هذا، إذا تركته هنا، الحق انني لن استحق الحفاوة. أليس كذلك؟ لكنني نفس الرجل من قبل ومن بعد. إذن... لم يزل يتردد. ومن الممكن أن ينهض كل هذا بدور كبير في الوصول إلى هناك. يخرج ويتابع طريقه صوب أنوال، منحرفاً كثيراً عن المنطقة التي تكثر فيها القوات المتمردة. الشمس تلفح وجهه كاملاً. لابد أن الساعة الآن الثانية، ربما التاسعة؛ وتحت تأثير السهاد، عيناه متعجلتان، محتقنتان دماً، محملقتان، تخزان، تقطران. يلمس خده الملتهب، ويتابع السير بالمنحدر الخفيف الذي يقربه من السهل. ثقل سلاحه يدفعه إلى أسفل.

بغتة، حين يجتاز منعطفاً، يرى امرأة عجوزاً وطفلاً من الوطنيين. كلاهما يحمل على ظهره جرة غليظة ودائرية من الفخار ممتلئة بالماء. توقفا برهة وراح الطفل يحكم رباطاً من الحلفاء. يترجرج الماء وتلتمع الجرتان بفعل الرطوبة ورشح الماء. توارى بيانثي غريزياً، دون أن يحول بصره عنهما. دافع أعمى يدفعه إلى التأكد من أن البندقية مشحونة وإلى رفعها نحو وجهه والتصويب ناحية العجوز. مازال الماء يصدر صوتاً مع كل

حركة. وبعنف من يكبح جماح ابن آوى، يكبت اندفاعه. فالفزع قد يكلفه حياته. بيد أنه لا حاجة لإطلاق النار. فالمدية لا تصدر صوتاً ويمكنه أن يرشق بها شخصين في ربع دقيقة. وإذا صرخا؟ المتمردون على بعد كيلومترين وسيسمعونهما بسهولة.

رجرجة الماء ما زالت تسمع وتهيج العطش. في هاتين الجرتين الكبيرتين، المدورتين، يكمن سر الحياة. الشجر، النبات، الحيوان، لها الحق جميعاً في الماء، التلذذ به. والظمأ يشعر به الآن في شفتيه، فمه، صدغيه، جلده القذر. لو سقط المطر مباغتاً لامتصت ماءه مسامه، كإسفنجة. يتأهب بالمدية في يده. الدم يغطيه بطبقة شبه مصقولة ضاربة إلى السواد تتحلل وتسقط على حذائه. يستشعر بهجة وحشية وراحة طازجة في حلقه. يتقدم على أربع حتى السفح، ينهض، يستطلع ضحيتيه. الطفل ينحني الآن بمشقة ويلتقط مظروف طلقة بندقية فارغاً. ينفخ في فتحته فيصدر صفيراً واهيا فيشرق وجهه بهجة. يفتح بيانشي عينيه على نحو بالغ. منذ برهة وذبابة تقف على شدقه. تشل حركته تلك البهجة البريئة للصبي الذي يستأنف سيرة تاركاً مع رجرجة الماء خيطاً من الآمال.

وحين ينتبه بيانشي يكون بعيداً جداً عنه. يشعر بوسن مبهم ودفين، وساقاه يشتد ثقلهما. ينهض مذعوراً، يتذكر جثث الوهدة ويواصل طريقه غير الآمن صوب أنوال. تجلط الدم في ركبته وفي يده.

فرسان في ملابس حفل، نساء بوشم نجمة زرقاء في الذقن وفي كل خد. نسيم زبد من ذلك التّل الأبيض، الفج شيئاً وكأنه من النشا الخشن

المعتاد في كل ثوب مغربي. الفرسان والمشاة يحملون بنادقهم منكبة: يحي بعضهم بعضاً، يضحكون، بمعزل فيما يبدو عن ماساة R. يوم السوق، وهذه هي الطريق إليها.

يستنتج بيانثي أنه يوم الخميس، ففي كل أسبوع تقام سوق الخميس. يختبئ قدر استطاعته وينتظر، تحت وطأة التعجل والخوف وكذلك شعور مبهم بالدونية أهاجته البهجة السعيدة والخالصة والنضارة الجسدية وتناغم حركات الوطنيين. تباغته نفسه مهمهماً بكلمات خائنة. حين يتذكر الطيار الممزق والموتى في الوهدة يكبت شعوره، لكنه يفعل ذلك برعب لن تجد فيه اقل أثر للكراهية. يلبث ساكناً في وضعه غير المريح. الشمس والسكون يصيبانه بالخدر.

بعد فاصل من الصمت، تعاود بطاريات انوال إطلاق صواريخها الغاضبة فوق موقع R البعيد الآن. مع الصخب، الجماعات الذاهبة والآيبة من السوق تنظر إلى أعلى وتحث الخطا وتهجر هذا القطاع مسرعة. وحين يشعر بمساندة مدافعنا يستعيد حقده على المغاربة. لا يتمعن، لا يفكر. فكل مشاعره تتولد بمعزل تام عن روحه: تفاعلات كيميائية أو فسيولوجية مجردة. في حقده يغمغم: ياأبناء البغي! أينبغي أن أتيبس هنا؟.

ينهض ويستمر في سيره، ركضاً هذه المرة ليجاوز السهل الموحش. بعد عدة خطوات يتوقف ثم يواصل في بطء، يحس بأن قلبه يخرج من حنجرته في حشرجه نَفَسه. يتعثر، يسقط، وجرح ركبته يعاود النزف. تخف نيران المدفعية وبيانثي يرغب في الخروج من هذه المنطقة قبل عودة أبناء البلد. يجرب العدو؛ لكن حذاءه يستحيل بغتة كتلاً من الرصاص ويصدر أيضاً صوتاً خشناً وعميقاً على الأديم. يلهث صدره مثل كير قديم ونبضه يصدر لغطاً متسارعاً حين يصطدم الجزء المعدني لأحد

الأربطة بزر في سترته. مع ذلك، يغامر بكل شئ في تلك اللحظات، ويحدو به الرعب إلى الوثب مرتين، ومرة أخرى؛ وبعد ذلك لا يستطيع إلا أن يركض. يصعد منحدراً، منكشفاً تماماً، حتى يصل إلى وهدة صغيرة تتوسط السفح الضخم كشريط ثم تصعد حتى أنوال. يفكر في السقوط داخلها ثم ارتقاء السفح من هناك حتى يدنو من المعسكر. الشمس لافحة الآن وللميدان تحت المدافع صمت كصمت القبور، مقدس وخرافي. يتوقف جالساً فوق كاحليه. جرادة تفتح مروحة وتطير سهماً أو زهرة. يحس بثقل قرب صدره فينتابه ذعر. بيانثي يزمجر بشئ غير مفهوم. قبل أن يواصل سيره يقيس بنظره المسافة حتى الوهدة. يتقدم على أربع، ينهض، يركض من جديد.

شد ما يكره هذه الشمس في منتصف الصباح، بذلك الصفاء، وذلك الإشراق، وتلك الظلال السوداء إلى جانب كل نبتة عرعر، وكل شجيرة! عدم اكتراث الشمس يحول المأساة إلى شئ أخرق ومبتذل، بلا معنى. تنتاب المرء رغبة في الضحك.

مرة أخرى رائحة نفاية، لحم متحلل. لا بد أن هنالك جثثاً. هناك، في القاع، العشب البرى اليابس حتى الركبة يصعد متتبعاً الشعاب. خرق ملابس، بقع سوداء، ثم، بغتة، شئ خفيف ومغبر وحي. ضبع. بعد قليل، يتكرر العرض. جسدان عاريان بطناهما مرشوقان بوتد واحد من أوتاد السلك الشائك. الضبع كان يتناول غداءه. يكتشف أن الموتى العراة لا يخلفون في المرء أي شعور. لابد أن الزى هو السبب، مظهر

الحياة الهزلي سببه الأردية. الطبيعة تحصننا ضد الخوف من الصورة الخارجية للموت، وجثة عارية لا تصيب النفس بالذعر. بيانثي يستشعر ذلك دون أن يعيه ويتقدم، متأرجحاً كالبحارة.

الشعب مازال يصعد إلى أعلى، يعيد أحياناً مشهداً مكروراً. جثث عارية، ممزقة؛ إحداها مبتورة الساقين إلى ما فوق الركبة وشارة "ضابط" محشورة في الفم المفتوح. أنذال! صفيران عاليان. طلقات؟ من أين تأتي؟ حين يريد الإطلال على الخارج يسمع بوضوح مدافع أنوال الرشاشة. يحس بالتعب وفى الحال ينهض بإيماءة آلية ويستند إلى البندقية. ينتابه خوف من التوقف وسط هؤلاء الموتى فى هذا الشق الذى تحول إلى مقبرة جماعية طويلة. ارتفعت السماء واختفى الظل. على مقربة منه، فوق عشب يابس، سرب من الذباب المائل إلى الزرق. ميت آخر؟ الطنين المتضاعف له رنين معدنى، التماع، عفونة. عندما يمر بين الأشواك والعشب يرى جيفة شبه متيبسة فيواصل سيره، دون أن يتوقف حيال شئ. يخيم كرب عَظْمي فى هذا السكون تحت ريح شمالية مميتة تسمع إلى أعلى، وتزحف كذلك، بين حين وحين، بين العرعر والزعتر على حافة الوهدة. أعلى، هنالك من يطلق الرصاص. مَن؟ على مَن؟ والآن، المدافع. ثمة حفل صاخب فى أنوال. لكن بيانثي لا يضع أى خطة، لم يعد فى وسعه أن يخطط للدفاع عن نفسه، لفراره، أو أن يستجلى مجرى الأحداث. يا إلهى، ما أكثر الموتى! من قبل كان يسميهم "اللحم البارد"؛ غير أنه الآن، فى هذه الوهدة، وهو يرى كيف أن الآفاق لا تعدو كونها شريطاً من السماء فوقه، يداخله شعور مباغت بالاحترام: الفرار من نفسه ليصطدم بالموتى المتحللين بين خفق أجنحة الغربان، والاقتراب من المعسكر دون إدراك لوضعه الخاص، معتقداً أحياناً أنهم سيلقون به فى الحبس لأنه لم يصل فى موعد "نوبة الرجوع"، يفكر

بغتة فى أنه لن يخرج أبداً من الوهدة وأن عظامه ستتكلس إلى جانب هذا أو ذاك. يطل على الخارج ليحدد اتجاهه. الأكمة التى كان يتمركز فوقها موقع R اختفت. ولا يرى المعسكر لأن الأكمة تحجبه: لكنه لا بد أن يكون قريباً. تمكن من الدوران حول أنوال دورة كاملة؛ ولكن، أهنالك خنادق فى هذا القطاع؟ المدافع الرشاشة تسمع من جديد على مسافة قريبة. أربع قذائف مدفعية والقنابل تزرع شظاياها قريباً أيضاً، غير أنها جد منحرفة عن هدفها. طلقات البنادق تطرقع كأنما المعسكر نار هائلة من الأغصان الخضراء. لا يجرؤ على الخروج أو مواصلة السير.

حين ينتبه يكون جالساً وعيناه ناشبتان فى جذر يخرج كثعبان ثم يعود إلى باطن الأرض. على هذه الحال تمر ساعة، وأخرى، فى انتظار توقف النيران، لا يجرؤ على مواجهتها. العينان مازالتا ناشبتين فى الجذر، على نحو هوسي؛ وفى حنجرته، فى قفاه، يحس بطنين ذبابة أو زنبور. من حين إلى حين، تنطلق من مؤخرة الرأس دفقتان مضيئتان، وكل منهما على حدة تدور حول المخ، تحت الجمجمة، لتجتمعا فى الجبهة عند بداية الأنف. فى نفس الوقت يغفو مرعوباً، لكنه قبل أن تلتقيا ينتفض ويهز رأسه. لديه يقين من أنهما إذا تلامستا بين الحاجبين سيسقط ميتاً أو على الأقل سيروح فى النوم، الذى هو –فى مثل هذه الظروف– كالموت.

النيران لا تتوقف. الظل آخذ فى ارتقاء حافة الوهدة ويغطى نصف الجذر فقط. للموتى، فى الظل، لون آخر ووضع آخر. فهم لم يعودوا رجالاً ساكنين، جثثاً منفردة، وإنما هم حشد من آلات الموت، يحوطه ويهدده. كلما شعر فى جدار الجمجمة بتقدم الطوق المضئ يهز رأسه ويحاول تغيير وضعه. المدافع الرشاشة توقفت وتسمع قذائف المدفعية على فترات متباعدة على الجانب الآخر من السفح ثم تلزم الصمت كذلك. شيئاً فشيئاً يفقد بيانثي إحساسه الجسدى بنفسه. يشعر بتنميل

الدم فى ساقيه، وينبض قلبه تحت حامل البندقية فى ضيق خانق. خنفساء تتحرك فوق أصابع قدمه، لكنه لا يحس بملمس أرجلها.

أنوال. أصبح على مقربة من معسكر القيادة حيث سينتهى كل شئ: عدم النوم، الجوع، التعب. هناك، لابد أن لديهم ماء وخبزاً أو بسكويت وما يكفى من القوات لكى يتمكن من حين لآخر من أن ينام القيلولة. الحواس تتعزى بالأمل، أنوال، أنوال، مكان الخلاص. أنوال، نوم، ماء...، ونوم ونوم... لكن تلك الأحاسيس تتولد فى الهواء، بمعزل عن إرادته ونفسه. لكى يستعيد وعيه بذاته لا بد أن يتذكر R، حيث من المؤكد أنهم جميعاً قضوا نحبهم، حتى هو نفسه. فكرة موته هو هذه لا تهجره. ولكن القاسي هو ألا يكون الموت كالنوم، وإنما يطيل الهم والألم.

وحدة الوهدة أعمق من أية وحدة: لها رائحة، تكثف الهواء، تلف قلبه بـ"دوبارة"، مثل كرة. يداخله خوف من ألا يكون مات، من أن يكون كل ذلك حقيقياً وأن تتبقى له بعد تلك الضرورة المرعبة: ضرورة الموت.

.

همس قريب يجعله يعد بندقيته، بلا خوف الآن، آلياً. كلب ضارب إلى البياض توقف بغتة على بعد عشر خطوات منه، ويدير رأسه مسمراً فى الأرض بعينين محتقنتين دماً. هزيل، شعره متفرق ومبتلٍ بالدم، ظله يتلاشى رعباً.

يقرأ بيانثي فى عينيه يأساً حانقاً. يتذكر ظهورات الشيطان التى كانوا يقصونها عليه فى طفولته فى القرية، وتستحيل المفاجأة فضولاً.

يتقدم الكلب، ليس إلى الأمام، بل في خط زاوٍ وفي بالغ البطء. يلتقط بيانثي حجراً ويشرع في الصياح لكن صوته يخونه. يركب السونكي وينتظر.

في مجرى الوهدة يسمع صوت حشد، والكلب يستمع برهة ويخرج وثباً من أحد السفوح.

بيانثي ينهض، يفكر في الفرار، في الدفاع عن نفسه؛ ثم يركض دون ركض، يتخذ ساتراً، يتأهب لإطلاق النار ويشعر بالحشد فوقه. هم جنودنا، قوات أنوال! مستودع الماء، وربما المستشفى! يقتربون: في المقدمة ضابط ورقيب:

– تمام يا أفندم! تمام! أنا من... تمام يا أفندم!

-إيه؟ ماذا تقول؟

الرقيب يزيحه عن طريقه ويأمره بأن ينضم إلى الطابور. للجنود نفس الهيئة الضامرة والذاهلة.

– ماء! أمعكم ماء؟

أحدهم يناوله زمزمية وحتى يأتي عليهما لا ينتبه إلى أنه بول أيضاً. هؤلاء الجنود من سان فرناندو. يقول له أحدهم:

– إيه، 42، أجئت من موقع R؟

– أجل. واذهب إلى أنوال. لابد أنه قريب.

– آه، اللعنة، أنوال لم يعد في أي مكان. الجنرال S أطلق النار على رأســه ومن بقي من 42 خرج منذ قليل في حرب عصابات تدريجية ليحمي إخلاء الجرحى. لم يبق أحد. بعضهم لن يتوقف حتى يصل دراوشة، ونحن... لن يدعونا ننتشر حتى. نحن هنا ثلاث سرايا.

ينظر بيانثي إلى الخلف. حوالي ستين رجلاً... ثلاث سرايا؟ ثلاث سرايا؟ لكن، إذن...

يتوقف لكي يتقيأ جزءاً من السائل الذى عب منه من قبل، عرق بارد يغطى شعر لحيته بقطرات كبيرة رمادية. يعدو مدفوعاً بمن خلفه، محوطاً بمن إلى جانبه، والطابور الصغير يطأ أعضاء بشرية، جثثاً، تحت سحابة من التراب العفن والذباب الأزرق.

بعيداً، يسمع صوت بوق ملحمى ذى نبرة حزينة، وحنين ما لأغنية شعبية.

(٨)

السماء ليست إلى أعلى، بل إلى الأمام. وخط الأفق هبط ومر تحت القدم كما في لعبة "نط الحبل". ماذا يعنى أن ينقلب العالم بغتة فوق الزرقة الصباحية الطازجة والرطبة، وأن يمكث المرء هكذا، في مواجهة اللانهائي؟ كلا. كل شئ في موضعه. ما يحدث هو أن بيانثي مستلق على ظهره في قاع وهدة ضارب لونها إلى الصفرة ناحية اليسار، في عدة طبقات. هذا كل شئ. ولكن، ماذا يفعل هناك، ورأسه على الأرض وساقاه ممددتان؟ آه، نعم! كان يفر من شئ، من أحد. من العار مسألة الركض هذه؛ لكن الحقيقة وقبل أي شئ أنه كان يركض بلا أجنحة، منقطع النفس، والآخرون أيضاً: ربما كانوا يسقطون على رؤوسهم، كالأرانب، ويتدحرجون إلى أسفل.

صوت بوق أحد الألوية كان يوجه نداء استحضار بإشارة 42. لكنه لم يكن 42، غير أنه كان يفعل حتى لا يكتشف أحد من يوجه النداء. الحمقى! نداء جمع كتيبة! الثانية تمزقت عند هبوطها من أنوال؛ والثالثة أبيدت بين موقع R والغيار في اليوم الأول. من سيلبي النداء؟ والبواق مستمر بإشارة 42! والموتى، أيذهبون إلى الصفوف، ألهم حصة طعام، أيؤدون الخدمة؟ إذن !الكتيبة الأولى، المتمركزة في أفران، كيف ستسمع الإشارة؟ آه، إلهي !هذه حال كل شئ! رائد كتيبة سان فرناندو ذاك، يصرخ في تشكيل حرب العصابات: قف! قف! ويهدد بمسدسه. من يأبه لمسدسه! إلى أن أصابوه برصاصة. والسريتان المتبقيتان من الكتيبة 42 لبثتا فوق منحدر أنوال، وراحتا تنسحبان في تشكيليين. إحداهما تنفذ تشكيل حرب عصابات بعزم والأخرى تنسحب. ثم تتوقف هذه لتنسحب الأخرى.

لكنهم أبيدوا هناك جميعهم. وانكشف الجيش دون أن يتمكن من الانتشار. وفرت شاحنتان تنهبان الطريق صوب دراوشة. ورغم أن الجنرالS انتحر أراد بعضهم المقاومة! متشدقون! أى رجل يساوى الآخر، فيما عدا الذكاء، والجنرال رأى أن الذكاء لن يفيده فى شئ فرشق دماغه برصاصته. إلى دراوشة، إلى دراوشة، ومن يصل بوسعه أن يحكى ما حدث لو سألوه.

يحاول النهوض ويتمكن من ذلك بشق الأنفس. أين هو؟ وماذا يجرى خارج ذلك المنخفض؟ حسب ارتفاع الشمس يقدر الوقت. يشعر بجلد ظهره متقلصاً ومتيبساً ومؤلماً، ويحس بألم مكتوم أعلى، ناحية الكتف. بيده الأخرى يتحسس قشرة كبيرة من الطين الخشن ملتصقة بسترته وجلده، ويلمسها. عند الكتف، إلى الأمام، سترته تقطر دماً. تلك القشرة لابد أنها هى أيضا دم وطين ممتزجين. يهم بخلعها، لكنه، بوحى من الغريزة، يتركها كما هى، خوفاً من مضاعفة أصابته فهو لا يلم بحالتها. توقفت يده عن النزف، وكذلك ركبته. بقى له من سرواله، من الجانب الأيسر، ما يغطى نصف الساق، وفقد طماقيه. يسير حافياً وباطن قدميه متشقق. يقف عليهما بصعوبة لأن مفاصله، بدورها، تصلبت. الصمت والوحدة مطلقان. يسعل فيحس بقصبته الهوائية تحترق، كأنما تجرع حامضاً. لكنه لا يبصق دماً. حمداً لله. إصابة الكتف لم تبلغ الرئتين.

يرتقى ربوة ويطل منها: سهل رمادى، مقفر، تعمره فقط بقع طويلة تؤلف أحياناً عناقيد من ثلاث أو أربع. وراءه، قمم تازة. هذا يساعده فى تكوين رأى. هناك، الشعب الذى سقط فيه الكثير من فرقة سان فرناندو والكتيبة 59. أجل. إنه فى طريق دراوشة. سار حوالى ثلاثين كليومتراً فيما وراء أنوال. متى؟ ارتفاع الشمس يشير إلى ما قبل منتصف النهار بقليل. أمس، كان أمس، حوالى منتصف الليل. ضل فى الوادى، سقط فى الوهدة ربما حين أصيب بعيار. كيف سار كل هذه المسافة؟ آه، الظمأ: الظمأ مرة

أخـــرى! والمغاربة ؟ أين هم لأن هذا يبدو مهجوراً منذ قرن؟ أرحلوا إلى الداخل بالغنائم؟ هناك، يرقد الملازم N عارياً وشارته مرشوقة فى عظمة العضد. وإلى اليمين قليلاً، ناحية الطريق، ثلاثون جثة على الأقل، وثلاثة بغال من قطاع الرشاشات مبقورة، وثمانية أو عشرة صناديق ذخيرة فارغة ومنبعجة وهيكل سيارة أحرقت.

ينتمي السهل إلى كوكب ليس كوكبنا. كوكب ميت، أباده غضب رؤيوى. صمت وموت لا نهائيان، بلا آفاق، ممتدان فى الزمان والمكان حتى الأصل والنهاية السحيقين. الأرض بيضاء؛ الشجر نادر ويابس؛ السهل تقطعه ألف طريق غير مرئية من الوحشة. مغاربة موتى، إسبان ممزقون. الوحدة تصرخ فى الشمس فى ألف ومضة بلا صدى: "أنت سترحلين من الغرب، وأنا من الشرق، وفى النهاية نلتقى فى ملتقى التعاسة". بلا أى حفيف للريح، بلا طائر، فى الصمت الذى يوغل فى الصباح حتى الزرقة الضاربة إلى السواد لآخر صبح فى الكون.

– إلى أين ؟

بثلاثة أحجار كبيرة صنع جندى ساتراً ومن هناك يستطلع المكان فى كل اتجاه. شعره أبيض تماماً. بندقية مستندة إلى الساتر، ثلاث خزائن، خمس عشرة طلقة.

– لا تأمن. رغم ما يتراءى من أنهم ذهبوا هم قريبون من هنا، ومن حيث لا تدرى يفتحون عليك نار رشاشاتهم ويصوبون نحو شعرك. وأنا أفعل ما يخصنى. أترى أولئك؟ جميعهم مغاربة قتلتهم هذه الليلة. إذا

أطللت هناك، في المنعطف، ثمة أكثر من مائتين.

– أتريد مزيداً من الطلقات –بيانشي يعرض بلا فهم:

– وفيم تفيد؟

بيانشي يديم النظر إليه ثم يقترح:

– تعال معي إلى دراوشة!

يغرق الآخر في الضحك في قهقهات معتمة، دون أن يهجر تعبيره الصموت:

– أنا ؟ لا أستطيع السير، أدوس على عظامي. جئت من Rوثباً في المنخفضات.

إحدى قدميه مشوهة، ملتهبة، باطنها ممزق.

– ألا يستهلك الحذاء؟ حسن، الشيء نفسه يحدث للقدم. إذا كنت ذاهباً إلى دراوشة أخبرهم ألا يخشوا شيئاً فهأنذا هنا أحمي الطريق.

– من أية دفعة أنت؟ تبدو عجوزاً.

– عجوز مثلك. ثلاثة وعشرون عاماً. أديت الاختبار لدرجة حكمدار وثمة اقتراح بترقيتي لحين يصدر الأمر.

يود بيانشي تذكره. من سريته في موقع R، كان ثمة رجل "خفيف". لكنه لا يتذكر. ومجهود الذاكرة يصيبه ببالغ التعب. ينظر حوله ليحدد موضعه. بعيداً، السهل خاوٍ. والجثث أغلبها من قواتنا. ينبح كلب بعيد. صوب دراوشة، تكتسي الآكام صفرة، وفجأة، تشق قمة جبل زرقاء داكنة تلك الزرقة الأخرى الشفيفة، زرقة السماء. يهم بمواصلة سيره.

– ألديك ماء ؟

– أتحسبني مستجداً أم ماذا؟ ثلاثون شهراً وسط هذه الأراضي القاحلة. ماء، أنا؟

يعاود الضحك. والضحكة لا تبلغ أسنانه، بل تبقى حبيسة الصدر بين

خرق الكاكى، وتصب من شدقيه مزيداً من الطين. يصر بيانشي:

- أتريد طلقات؟

- حسن، أعطنى واحدة. واحدة فقط. فى الليل، أولئك المغاربة ينهضون ويحضرون إلى هنا. لا تأمن لهم وإن بدوا كالموتى، فذلك الذى هناك هو "القط"، والقطط "بسبعة أرواح".

بيانشي يترك له رصاصة، دون أن يفهم تماماً كلمات المجنون. بعد ذلك، وبلا رغبة، يخرج فى طريقه إلى دراوشة. بوسعه أن يصل إلى هناك عند المساء. لا يحس بالجوع، لا يحس بمعدته. لو لم تلفحه الشمس الحارقة، لن يحول الظمأ دون وصوله إلى الحصن. لم يكد يخطو عدة خطوات، يعود ليقول للمجنون بصوت خفيض:

- أتدرى فيم أفكر؟ حدث هنا شئ رهيب!

يقول الآخر معتداً:

- ماذا بوسعه أن يحدث! وذلك جنون.

-حسن! لننتظر ونرَ.

وبيانشي يذهب فى غم يثير ضيقه.

موتى، موتى فى كل مكان. الإحصائيات ستعلن فيما بعد الرقم: اثنى عشر ألفاً. لا تنبعث منهم رائحة كتلك المنبعثة من وهدة أنوال؛ لكن يجب أن نضع فى الاعتبار أن الهواء هنا رحيب. ينظر إلى الجثث كما لو أنها لا تمت إليه بصلة، كما لو أنها جزء من التضاريس الطبيعية للمكان. الشمس تلهب ظهره، وبيانشي يسير ويسير، يستخدم البندقية

عكازاً، ورأسه مكشوف -أين فقد طاقيته؟- وشيخوخة، هرم ثقيل في عظامه. يتخذ إجراءات وقائية بحكم العادة، فلا يتقدم دون أن يحل شفرة أقل ظل، أقل انحدار موات. نظره يكشف الطريق من مسافة كيلومتر. عن بعد، ثمة من يجلس على صخرة، بجانب شجيرة من تلك الشديدة اللزوجة. أيحمل سلاحاً؟ كلا. وله هيئة جندي. مظهره الوادع يؤكد له ألا خطر في هذا القطاع. هنا، استنفد الخطر كافة احتمالاته. الحق أن الصمت مطبق، لا صوت لطلقات في أي مكان. آه، دراوشة! وإذا بلغ دراوشة! سيسقط تحت وطأة البؤس، والدم الذي فقده، والقمل الذي لا يهدأ مثله مثل الحمى والشمس، ولكل شيء سيكون ثمة علاج في متناول اليد.

عندما يقترب ينهض الجندي؛ يريه مسدساً بلا ذخيرة. عيناه مغرورقتان، وفردة حذائه ملطخة بالدم. يمد له زمزمية شبه ممتلئة بسائل داكن يعب منه بيانشي في لذة.

- هذا ليس بولاً.

- كلا. جعة.

ينظر إليه بيانشي دهشاً. يرتدي سترة جندي قذرة وحائلة في عدة مواضع لكن السروال له هيئة لا تقبل الشك.

- من أية كتيبة أنت؟

- أنا ضابط.

- تمام يا أفندم! جئت من R. أين أسلم نفسي؟

يهز الضابط منكبيه ثم يتمتم:

- اسخر كما تشاء. لم تعد لأي شئ أهمية.

يلاحظ بيانشي أن إحدى قدميه مهشمة. لايبدو الضابط ثقيل الوزن.

- ساحملك على كتفي قدر احتمالي.

– ذاك محال. انت أيضاً مصاب. سأحاول السير أو أنتظر أن يتقدموا من دراوشة.

بيانشي يديم النظر إليه. والضابط، حين تحدث عن دراوشة، أشار إلى الاتجاه المعكس. ينبهه بيانشي فى ضيق:

– دراوشة ليس من هناك، بل فى هذا الاتجاه. كيف بالله ستصل إلى دراوشة من هناك.

يخاطبه بلا صيغة احترام عن قصد، فى صنف من التآخى فى المأساة. يكتشف الآن فى الضابط اليأس الذى لا يكاد يستطيع كبحه والذى يطفح لدى مخاطبته بلا صيغة احترام. تسمع طلقات بعيدة، ويجهش الضابط بالبكاء. بيانشي، بعد أن ردت إليه الجعة قواه، يستاء:

– ضابط؟ أأنت ضابط؟ أنت نفاية! خلعت سترتك حتى لا يروا شارتك. اعترف يا رجل!

مندفعةً، متأرجحةً، شبحيةً، تأتى سيارة فى سرعة لا تصدق من طريق الدواب، تتقدم وثباً. تتوقف فجأة ويركض بيانشي ناحيتها. يتجه الضابط وهو يعرج فى بطء شديد، وبارقة أمل فى عينيه. تتوقف السيارة ويرتقى بيانشي سلمها.

– تمام ياسيدى القائد!

قائد لم يزل شاباً، له تعبير صموت، نحس تقريباً. وضابطان ينظران إلى ناحيته فى حذر. القائد يسأل بإيماءة وبيانشي يزعق:

– أنا من السرية الثالثة من الكتيبة الثانية، وجئت من R.

يسكته بإيماءة. تسمع طلقات قريبة.

– كيف الحال هنا؟ أين هذه الطلقات؟ والجنرال S؟

– سيادة الجنرال انتحر.

قائد السيارة نافد الصبر. القائد والضابطان يحملون مسدساتهم

مستعدة لإطلاق النار. بيانثي يثبت يديه فى حافة السيارة ولا يكاد ينتهى من تقريره العشوائى. يقول القائد:

- حسن، حسن!

ثم يدفعه إلى الخارج فيما يبدأ تحرك السيارة. بيانثي يتوسل، يتمتم بعينيه:

- ثمة مكان إلى جانب السائق: أصبت بثلاث طلقات يا سيدى القائد!

بيد أن القائد لم يزل يدفعه، وحين يرى أن بيانثي مازال على السلم يضرب أصابعه بمؤخرة المسدس فى غضب. الضابط يلعن خلفه. بيانثي، بإصبع مكسورة، يطلق يديه ويسقط إلى جانب الطريق. والسيارة، مرة أخرى متدافعة ومتهالكة، تركض مخلفة وراءها لهاث المحرك المتسارع. والضابط، غاضباً، يائساً، يسلب بيانثي بندقيته ويطلق ثلاث طلقات على السيارة التى تزيد من سرعتها. يتقيأ الضابط سباباً. وبيانثي، محاولاً تحريك أصابعه، يطلب منه البندقية، يهز منكبيه ويمضى، يفكر: "القائد يفر ويمضى فى طريقه. أنا أيضاً ما كان على أن أتوقف وأضيع الوقت مع هذا الأحمق".

...

السهل آخذ فى التقلص قليلاً صوب دراوشة لتشق طريقها عدة آكام إلى اليمين، يتلاشى فى بعد أخضر داكن من أشجار التين وعش الغراب. إنها القبائل، والأدوار، حيث يستعذب الأهالى فرحة النصر. الطريق إلى دراوشة تحدد معالمه الجثث، أعمدة الهاتف التى يغطى قممها الغربان بطلاء لامع.

وإلى الخلف قمة تازة باعمدة دخان الحرب.

يود بيانشي ان يركز خياله، أن يتذكر كيف تمكن من اختراق الجبال، فتتملكه مقاومة عنيدة للعود على الماضى. كل شئ يدفعه إلى الأمام، كل شئ موجه بالغريزة لتوقع الخطر، حدس الصعوبات؛ وبذلك الانتباه المتوتر الذى يفوق قواه تتقدم قدماه أسفل جسده المتردد بحزم وثقة فوق العادة. لا يريد النظر إلى الخلف، يزدرى الضابط، لم يغد يفهم صيحاته المتعبة والمشوشة. لكنه يصيخ السمع ويتمكن من ترتيب بعضها. يتوسل إليه أن يطلق عليه رصاصة، أن يقتله:

– هراء!

تغطى السماء سحب بيضاء تحجب الشمس لكنها تزيد الضوء شدة وتصبغه بزرقة قمرية. أعمى، أصم، مخدر الوعى تحت وطأة مشاعر جديدة، يسير بلا توقف، بلا تعب، قدماه شبه مسلوختين، وثقل فظيع فى كتفه. لا يهم. الجعة توزع الآن طزاجتها المفيدة وأخذ يحس بها أيضاً فى جلده، بالعرق. السهل لم يزل فى سلام أشد غوراً من الوحدة المجردة، لأن السلام المطلق، الوحدة التى لا يسبر غورها واللانهائية، يراهما على نحو متصل فى أعين الموتى. أحياناً يركض فيحس، وسط السكون، أن خطواته ونعاب الغربان هما التعبير الحى للوادى. يدنو من نقطة مراقبة تتصدر هذا القطاع، على الطريق. المزيد من الغربان أعلاها، فوق السلك الممزق: جثة تستند إلى عمود الهاتف بوتد من الفولاذ مرشوق فى صدرها. شئ ما يهبط، يصطدم بالحجارة، يسقط من المنحدر. يتعقبه غراباان على مستوى الأديم، وذلك الشئ أو الحيوان الغريب يتضاعف اندفاعه ويسقط فوق حجر وتخمد حركته فوق الطريق. رأس بشرى حصد عند مستوى الفك، من كثرة ما به من ثقوب لا يبدو من لحم. فالغربان، بمهارة حقيقية، تلتقط العينين وتفر بهما. بيانشي يتجنب أن يعثر به ويواصل طريقه.

حين يجاوز أكمة تظهر، على البعد، دراوشة. السهل المغطى بشجيرات يرتفع بعيداً، في تدرج كبير، وفوقه، إلى اليسار قليلاً، يرى بياض العنابر، بعض الخيام. هنالك شئ غير متوقع ومباغت، كأنما اضطروا إلى مواجهة واحد من تلك الأعاصير التى تقتلع الخيام وترفع سقوف الأكواخ. جزعه يحدد لنفسه هدفاً، وبؤسه غايةً. ما أعذب أن تصبح الأحلام مادة حية! لكن السهل، المعتم تحت تلك الشمس المضببة، لا يحيط به جيداً. ثمة الكثير من الشجيرات. وثمة أيضاً حماية للطريق. لكن الخيل لها ذيول كثة وطويلة، حتى باطن الركبة: عربية. على مسافة جد قريبة، يرى شاحنتين محترقتين وسط الطريق، تحوطهما ظلال بشرية ممددة. هنا، هناك، تسمع طلقات متفرقة. محال مواصلة التقدم: كل مكان محتشد بالمغاربة، وفى الهواء تهز الأذنان رياح الطلقات الطائشة الباردة. يحيد بيانثي عن الطريق، ينحرف نحو بقعة غير مستوية تسودت فيها الأرض بين الصخور، ومن مخبئه، يراقب. بعيداً، يشتد تراشق النيران. عدة قنابل تخرج من حيث لا أحد يدرى وتتفتح بالونات وبالونات رمادية على مستوى الأرض. يرى المغاربة بوضوح: يملأون السهل. يطلق الفرسان بنادقهم فى الهواء ويلتقطونها وهم على ظهور الخيل. تسمع أصوات عربية قريبة، وبيانثي، مفزوعاً، يكتم أنفاسه. إنهما مغربيان فى حوالى العقد الرابع من العمر، يحملان بندقيتيهما من حامليهما ويغزان السير مشتبكى اليدين. يسيران متلاصقين، ليس لأنهما حميمان بل لكى يطمئن كل منهما الآخر أنه لن يسرقه فى غفلة منه. وحين يراهما يتحدثان، فى أدب، رقيقين، يبتسمان دائماً، من الصعب جداً أن تنتبه إلى ما يخفيانه من قسوة سنورية. يتوقف أحدهما، يخرج من حافظته الجلدية الضخمة أنبوب معجون أسنان، يبسطه فوق قطعة خبز ويأكل بشراهة مستلذة. بيانثي، وسبابته على الزناد، يترقب كى يفتح عليهما النار إذا ما اكتشفا وجوده.

يتلاشيان صوب الجبل. في غضون الساعة، سيكونان على مرأى من الضابط، وبعده بقليل، سيكون بوسع المجنون أن يصوب نحوهما في يسر. لا يجرؤ بيانثي على الخروج من مكمنه. سترة مضمخة بالدم تظهر فوق شجرة زعتر. على الياقة لم يتبق سوى رقم معدني واحد : 2. لكن، إلى جانبه، يرى أثر رقم 4 محتفظاً بلونه. للصباح درجات لونية حائلة. طبيعي. نزف كثيراً ولن يشفى أبداً من هذه الأنيميا، أو يستعيد مظهره الصحي.

في مرقده، يرتب بيانثي ذكريات وإيماءات قديمة. وهو، مؤقتاً، هادئ بما يكفي لكي يفكر، والساعات بطيئة. بعد أن انتهى كل شئ في R وفي أنوال، يشعر بخواء معرض وغير مكترث، ورأسه يدور به مازجاً ومخلطاً أحداثاً وأسماء وأشياء. فيم يهم الموت؟ البقاء ممدداً في الطريق أقل ما يمكن أن يحدث. الحق أنه مات مرتين. حين انضم إلى الجيش مات الشاب الشجاع، الواثق، ذو الحدوس الكونية الرحيبة؛ بعدها تلاحقت التفاصيل التافهة والشواغل الحقيرة وإحساس بالمطاردة والحقد فيما تبقى: هو أيضاً لم يكن هو نفسه. فالرؤساء، فيما عدا الحكمدرات، كانوا ينظرون إليه -لماذا؟- كمن ينظر إلى مجرم، بازدراء وجفاف وبرفض للحميمية والثقة. ارتاب من أمره، بلغ به الأمر حد الهوس بنقصه، بدونيته.

تأخر في اعتياد حياة الثكنات عاماً؛ لكنه، في نهاية الأمر، شعر بتماهيه مع السخرة والبله، مع المداراة والخبث. كان لديه أصدقاء، أعداء، كما في حياته السابقة، وتبع كرب حياة بلا معنى، ونظام لا أحد يفهمه

ـلم كل ذلك؟ـ، وهن ناعم ولا طعم له، تراءى له ـفي خاتمة الأمرـ أفضل سلاح لمواجهة الزمن. لا يفتأ يرى ما لا يقهر منسحقاً، وبدل أن يعود كما كان يظل خاوياً وميتاً أمام السهل المكتظ بالجثث.

الحمى تضرب صدغيه ويعاوده الشعور، داخل الجمجمة، بطنين أسلاك تلغراف، وبرأسه خاوياً وفائراً. لم يزل ميتاً وحياً في تباينات شاذة، به شئ من مقبرة وصخب وحركة سوق. ارتجلوا خياماً للشاي تحت مظلات ذات خطوط ملونة. يرحل المساء في بطء. السماء ملبدة، والسحب البيضاء تستحيل بنية ورمادية. جرب بيانثي متابعة السير حين لاحظ اختفاء الفرسان والخيام العربية لكن لم تزل هنالك جماعات متفرقة. يفاجئه ألا يفتحوا النيران من دراوشة على السهل. لو فعلوا لقتلوا مئات المتمردين بلا أي خطر. وهذا لغز ود بيانثي لو يستطيع أن يحله. فقط، على أحايين متباعدة، تسمع طلقات متصلة على بعد غير محدد. والقذائف الأربع أو الخمس التي أطلقت نحو منتصف النهار أثارت اهتماماً ما لبث أن تلاشى.

تأتي الرياح حارة، عاصفة، ولا تحمل صوت بوق، بل صوت التنائي ذاك الذي يشدو ليلاً بالكرب الكوكبي. والهواء، الأشد سخونة وثقلاً تحت السحب، يعوق ترتيب الفكر. والتعب والظمأ ـمرة أخرى الظمأـ والإحساس المتزايد من جديد بالخطر، تفرض على الأفكار سرعة مقتضبة، لا صلة لها بالإدراك الذي يدير ويوجه. وفي ركبته وخز خارق يمنعه من اتخاذ وضع مريح. لم لا يقصفونهم من دراوشة؟ هل تردد المغاربة في المعسكر قبل بدأ الهجوم؟ الآن يقتحمون الساتر، وبنادقهم على أكتافهم. هم مغاربة ولا ريب، رغم أن من العسير تبينهم. أيتحدثون؟ لا تأمنوهم، سيخونونكم. ألا ترون هنا، وسط السهل، هاتين الشاحنتين يحوطهما الموتى؟ قد يكون هؤلاء مغاربة من الموالين لنا، متمركزين ليوقفوا تقدم المتمردين؛ لكنهم، في تلك الحالة، لماذا أطلقوا من قبل تلك القذائف المريبة؟

يدور أى احتمال بخلده فيما خلا أن يكونوا هاجموا الحصن. ما زال لديه إيمان بالقوة، "بحرمة" المنطقة، بحامية الحصن. ومع ذلك، انطباع مبهم ومهلوس يحدو به إلى قبول احتمال أن السيل يتقدم أمامه بقوة تدمير هائلة وأنه مر بدراوشة كما مر من قبل بأنوال. آه! لكن هذه الفكرة تغوص به تحت ضغط غير مادى فى ضوء المغيب الكابى. إنه الرعب، تحية الرفاق بين تلك الجثث المشدودة إلى وتد على نحو صَرَعى أو إلى السياج المرشوق فى صدورها أو بطونها والمثبت فى الأرض. هجر الحصن كذلك. ودراوشة لها نفس المظهر الميت والمظلم كأنوال. يعى ذلك فى ساعة التشاؤم المحيرة هذه، ساعة عتمة العقل والخواطر الحدسية والصائبة. وراء دراوشة تكتسى السحب حمرة. والشمس تغيب إلى اليسار قليلاً: ليس هذا الشفق، بل حريق. إلى اليمين، على مسافة أبعد بكثير عن الحصن، خط الضوء كمدينة صغيرة مضيئة. نشبت النار فى الشجر والعشب الجاف.

رعود طويلة ومعتمة تأتى من البعيد الغامض. أهى بطاريات يستيتين؟ أم بدأت العاصفة؟ فالسماء تهدد بكل صنوف غضبها، من الأسود الفاحم للأفق الذى محته ثم مدته أنامل قذرة حتى المظلة التى ترفعها فوق رأسه سحب مسرعة ومتقيحة كدخان قاطرة. والسهل؟ تشتتت نفس الظلال الممتدة، الداكنة الزرقة أو السوداء، التى لم تكن ترى جيداً تحت الصخب. يحس بيانشي بالشلل. أصوات حشد بعيد تجعله يكتم أنفاسه ويصيخ السمع. لا يتبينها، ينبطح ويضغط أذنه إلى الأرض. خيل تركض. صخب مظفر يهز الأرض وينتقل إلى الأعصاب المشدودة. فوق الهواء الوادع،

الساكن تقريباً، الذي يوغل في الصمت ويفتح حول الجثث مشكاوات من زجاج قذر، يأتي ذلك الحشد بعنف باسل ويسبقة نسيم من الزبد والفولاذ. فولاذ رشيق، مظفر. ذلك اللغط البعيد يصدره المظفرون، الأقوياء. لا مغاربة ولا إسبان. كائنات عليا، ملائكة، شياطين، جمعيهم بدروع وسيوف من نار.

يستشعر راحة كبير، يجرب الخروج ومواصلة طريقه. ثلاثون كليومترأ أخرى حتى يستيتين. بوسعه أن يقطع هذه المسافة، لو حث خطاه ليلاً. لكن الوقت لم يزل مبكراً. والضوء لم يخفت بعد وتكثر ظلال مريبة. والظلمة آتية من بعيد، حثيثة، تحوطه، تحاصره رويداً، تحين لحظة تتوقف فيها، لا تعاود التقدم: جن الليل. يغرق السهل في غموض مزدوج، وحين ينهض ويهم بالتقدم تتقهقر الظلمة. يأتي الحشد، يقترب نسيم ساخن يهز خصائل ميت ثم خصائل بيانثي. يرتجف، يشعر بحدة ذلك الثقل العضلي الروماتيزمي في كتفه.

بعد أن يجاوز سفحاً، يعن الحشد فجأة. فرسان محدبون فوق القرابيس، سنابك فولاذية تطرقع وتصدر شرراً من الحجر. بيانثي المنبطح أرضاً لا يتمكن من معرفة من هم، أو ما الأمر. في المقدمة يرفع أحدهم ذراعه فيتوقفون لاهثين ثم يتابعون سيرهم ببطء. لا أحد في السهل. لا ريب في أنهم كانوا ينتظرون شن هجوم واكتساح جيش أمامهم. طلقات من هنا وهناك تصدر كالسياط. تسقط كتلة على الأرض في شدة ويجمح جواد طليق في الظلمة. يتابع الحشد طريقه ركضاً وحين يلتفت بيانثي يكون اختفى ليعود الصمت إلى السهل. يدنو زحفاً من الظل الذي يرقد بلا حركة على الأرض مغمغماً. إنه أحد أفراد فصيلة "أ"، يتحدث:

– الجواد! من أنت؟ اذهب وابحث عن الجواد.

فقد الجواد فى الظلمة. الرأس، القاسي والمتين والمندى بالعرق، يلتفت إلى بيانثي:

ـ أما زال هنالك ناجون من 42؟ أنتم كالعظاءات، يشطرونكم ثلاثة اجزاء ولا تزالون تحركون أذنابكم. سقط أكثر من ثلاثمائة خلف هذه الأكمة.

بيانثي يعلم الآن أنهم انسحبوا من دراوشة وأن الفصيلة تهيم على وجهها، بلا هدف، وتفعل ما بوسعها فعله. نجا حوالى ستين رجلاً، لهم أكثر من ثلاثين ساعة على أسرجتهم. تسقط الخيل ميتة يغطيها الزبد. لا يريد المقدم الانسحاب، ولكنه، وإن شاء، لن يبدل من الأمر شيئاً.

ـ ههنا لا شيء يُفهم! أنا أعتقد أن الثورة قامت فى إسبانيا وأن الملك والدوقات والأساقفة ذهبوا إلى الجحيم. وهذا لا يعنينى فى شئ، فهذا سينتهى عند الفجر. كم من الوقت يحيا مسيحى بعيار فى بطنه؟ فى المستشفى، محتمل، لكن هنا: ست ساعات.

يتحسس بطنه ويفرك إبهامه بأصابعه الأخرى:

ـلا يخرج دم حتى!

يزحف حتى بعض العشب البرى ويتوسده برأسه. بيانثي ينظر إليه فى صمت:

ـ إذا نجوت ابحث عن المسؤول عن هذا واقتله. الحياة ها أنت ترى كم تساوى. فقط تستحق العناء فى وجود قليل من العدل فوق كل هذا الروث. فإن هم لم يقيموا العدل أقيموه أنتم. خذ هذه الرصاصة النظيفة.

كنت أحتفظ بها لأشج بها رأسي لكننى على ما يرام هنا. احتفظ بها أنت وأنصت لى. ابحث عن المسؤول عن هذا واقتله، فإذا كان ثمة رب فى السماء فيساعدك في التصويب.

بيانشي يأخذها ويحتفظ بها. لا يتمكن من ترتيب أفكاره. تملكته فكرة الثورة. أيكون دوق قريته قد ذهب بدوره إلى الجحيم؟ يضحك. يسأله الآخر:

لم تضحك؟ الأمر ليس مبعث ضحك. أم أنك معتوه؟ يذهب مغمغماً فيناديه الآخر:

– أنا بنيتو: من توريّس دل غواديانا.

بيانشي يهز منكبيه:

– ثم ماذا؟

– إذا خرجت حياً بوسعك أن تكتب هذا إلى الشعب. أم أننا سنموت دون أن يعلم بذلك أحد؟

يتقلص فوق ركبتيه ويصدر شخيراً ممتداً. بيانشي لا يدرى بم يجيبه:

– لو أن ثمة ماء هنا لأحضرت لك على الأقل زمزمية.

– لكي تجده لابد من أن تسير ساعتين، وأخريين للعودة. أى علاج هذا! فضلاً عن أن ذلك الماء مسمم. لقد حذرت ثلاثة من 42 من ذلك. لكن الظمأ تمكن منهم، وهكذا لبثوا هناك، وخطومهم فى البركة. ماتوا بعد أن رووا عطشهم جيداً. هذا حق.

ثم يضيف فى غضب محموم وانفعال لحظى لممثل غير موهوب:

– سوف أموت. أتسمعنى؟ لكنهم إذا كانوا يظنون أن لا أحد سيتذكرنا فثمة مفاجأة تنتظرهم. أقسم لك. أجئت من أنوال؟ من هناك فيما وراء الجبال كل الأرض مزروعة برجال هشمت رؤوسهم وبقرت بطونهم. كل منهم لديه أسرته وأصدقاؤه وهذا الدم سيجلب مزيداً من

الدم؛ تذكر ما يقوله لك محارب قديم. إذا ذهبت إلى هناك، من هنا إلى دراوشة يمكنك أن تحصى الموتى بالعشرات؛ ومن دراوشة إلى الوراء بالمئات. أنا وأنت سرعان ما سنكون اثنين آخرين مثلهم، لا تحلم؛ لكن هذا لن ينتهى هنا ولا في يستيتين ولا فى مليلة. هذا ما يوده من أعرفهم. آه، اللعنة، كم يخطئون! أنا فى الثالثة والعشرين من عمرى، أمن العدل أن أموت ككلب فى الثالثة والعشرين من عمرى، بعد أن هجرنى كل أولئك الأنذال؟ مقدم فصيلتى، لكى ينقذ سمعة الضباط الذين ينزعون شاراتهم ويفرون ركضاً، يهيم على وجهه ومعه الفصيلة ليل نهار، يصطاد المغاربة بحد السيف ويقطر دماً. والخيل أصابها السعار، تعض وترفس، لكن الظلال تعض أيضاً وتقضمك فى رقبتك وبطنك. جميعهم ينزف من ركبته لأن سرج الحصان تعض أيضاً، وتسقط من السماء طيور تخط وجهك من جانب[1] إلى الآخر بمناقيرها. وتصيبك اللعنة، يا جندى ثرينيولا. لا يوجد ماء لأن الشاحنات هوجمت فى الطريق. والبنزين ردئ ومع ذلك يشربونه فى المستودع. أشعل النار فيه وسترى. وهناك، ثلاثة أوغاد يطلقون الصواريخ من قبيل التسلية؛ لكن لا تذهب إليهم لأن القائد سيحرر لك مخالفة. ماذا تفعل هناك؟ اتجه نحو اليمين وإلا فستحضر العجوز ومعها كماشة ساخنة!

صمت يتنفس فى تعب، صمت حذر. والليل، الحالك، يتصبب عرقاً تحت نسالة السماء القذرة وله رائحة نفاية. بيانثي تسكن حركته تحت الأصوات. الظلال تعض، حقاً. يرى الآخر يمشي على أربع، يزمجر ويسقط لينهض فيما بعد ويسير بلا هدف، كحيوان بائس. يعثر فى عدة أجساد ويعاود الصياح، فلا يكاد يفهم له شيء. بعيداً، تهتز الظلال، وبيانثى يتقهقر على عقبيه، فيما بعد، يركض بكل قواه، يفر صوب دراوشة، يحس بعدوى حمى الرجل الذى يحتضر، لكنها حمى نشطة وديناميـة تولد فيه

تقريبا قوة الانتشاء بالخمر. يطأ شيئاً رخواً ومتخشباً فيهز قدمه في الهواء دون أن يتوقف عن الجرى. إلى الخلف، يسمع صرخة وضربات فأس تمزق شيئاً رخواً وصلباً: ساقى الجريح لكى يحملوا الطماقين والحذاء إلى مكان آمن. رأى ذلك من قبل يحدث لضابط ميت، لدى هبوطه من أنوال.

الأفق ناحية أنوال مضاء بخط ذهب يشع في الليل كخط من أنابيب الإنارة الكهربائية. يبطئ بيانثي الخطى مختنقاً من التعب. برق رهيف يضيئه تماماً ويداخله شعور بأنه بات كفيفاً. ذلك الضوء الشبحى كشف له أن كل شيء، في ذلك القلق المبهم للظلال، لم يزل على حاله كما في النهار. الرعد واه وبعيد، لكنه يعزز الوحدة ويكشف عن عظم وحشة تلك البطاح التى يصل إليها. الخوف أمسى ميتافيزيقياً، فيتلاشى معه الجوع والعطش وألم الجروح البدنى، يسخن الدماغ ويملؤه بأنوار خطر مبهمة، بدوي لا يفهم. برق جديد وطلقات متفرقة. تمر طلقتان عالياً، في صفير حاد.

بيانثي يخشى البروق، يعتقد أنه انكشف فيتراجع مسرعاً، يغير اتجاهه، يصطدم بربوة صغيرة فيرتمى أسفلها، يخبئ البندقية تحت بطنه. ظاهر يديه، خده، قدماه العاريتان -بفردة حذاء واحدة- تلمس الأرض. في سكونه، يحس بيانثي بنفاد صبر وحشي. شفتاه تلمسان حجراً ونَفَسه يرتد منه فيشوى جلده. يسمع رعداً جديداً، تسقط قطرات، ويزمجر السهل بالهمس. تسمع من جديد طلقات قريبة في دفقات متتالية. إنهم المغاربة، لكن أحداً لا يتصدى لهم. الطلقات لا تسمع وهى تمر، والليل

يحصدها في أحشائه القطنية. قطرة أصدرت رنيناً معدنياً فوق علبة من الصفيح، هناك إلى جواره.

صمت الصحراء يعقبه، مع الماء، هسيس غابة. القطرات الأولى تسقط كالأعيرة النارية فوق بيانثي الذى يتقلص، يود أن ينحشر فى الأرض. لكن شيئاً جوهرياً وفى نفس الوقت أثيرياً وطليقاً يرتفع فوقه ويثير انتباه أعين الليل الألف. على رقبته ثقل قدم عارى من اللحم ويتردد صوت فى قبة الجمجمة : الموت، الموت، الانتقال إلى ذلك الخمود البارد للموتى، الانضمام بعد ذلك إلى قافلة الذكريات التى لا يتذكرها أحد والتى تهيم وحيدة فى صفوف من سحب ممسوخة. ثم الحشد الذى يقوم من جديد، شديد السرعة، فى الظلمة، بمقاومة آلية، دافع مسعور، ليقيس غور الليل ووحشته. برق متذبذب يضيئ الجياد ذات الرقاب المبتورة، الظلال الجامدة للفرسان الملتحمين فى ركض موحد.

دفعات نارية أخرى. يسقط بعضها، والفراغات التى تخلفها تشحن من جديد وركض الخيل يسحب الجرحى ويقضى عليهم وسط الغبار. وجوه يابسة، شاحبة، بظلال جماجم قاسية تحت الشعر الأشعث أو الخوذة أو مؤخرة الرأس الحليق، أكتاف ناتئة وصدور غائرة. ظلال تخطت بالفعل الأعتاب، خلفت وراءها الضوء حتى لا تعود إلى ، ؛ بته، وتهيم بوازع من الانضباط الذى هو أبقى من الإيمان والعقل والأمل: فالوجوه الدامية وعظام الساق المهشمة والجباه المشجوجة لا تحول دون استجابة السيوف أو البنادق للأيدى أو أن تضغط الركبتان السرج. والقوانين البيولوجية تفشل إزاء أولئك المتبصرين الذين حين ينامون حلمهم المميت يطيلون حياتهم الكابوسية الرهيبة. الظلال تعوي، تصرخ. صخب جهنمي –دون أن تدوي طلقة واحدة– يبسط فوق الليل شبكة من الأصوات الحادة، المسنونة. الظلال تمزق بين أنيابها هياكل متشحة باللون الكاكى، بزرقة الجلاليب،

ومن حين لآخر، حين تعض خزائن الطلقات، تنفجر طلقة في دوي مكبوت. صرخات مكروبة، حانقة. دفعات من النيران.

في تقدير بيانثي، كل ذلك يجرى على مسافة نصف الكيلو متر. يؤكد ذلك برق، وأثناءه تستجمع الفصيلة قواها ويسمع صدامها، ركضها، تمزيقها. بيانثي، دون أن يدرك ما يفعله، أطلق النار ثلاث مرات على جماعة من الفارين، الثالثة أطلقها في الظلام. بعد ذلك، مرعوباً من نفسه، ينهض ويتجه صوب دراوشة، في تسارع ضال. والآن يستريح خياله، وأعضاؤه تستجيب لحس غريزى فطرى، ويجرى وهو يشعر بأن الظلال تتدافع وراءه، بأن كل شئ يحفزه، بأن السهل يهذر ويرجف تحت الرعود، وبأن المطر، في سقوطه، يمدد الأديم المبتل ويطيل على نحو مكروب الطريق الأمثل الذى تخطه الغريزة. لا يتأخر كثيراً في التوقف لكن الحصن أمسى على مقربة منه. أينبغى أن يمشى طويلاً حتى يجتازه ويعبر النهر الجاف تقريباً في هذا الوقت من السنة؟ لكن النهر لن يكون إلا درجة السلم الأولى حتى يصل إلى يستيتين، وبمجهود خارق فقط سيتمكن من بلوغ ذلك الحصن الذى في المؤخرة، دائماً، قبل بزوغ الفجر.

انطفأت حدود الأفق المضيئة. مطر هناك أيضاً، على ما يبدو. لكن الزوبعة، الصاخبة في البدء، تهدأ ويشتد القيظ ويتوقف المطر في نفس اللحظة التى بدأ يخلف فيها الشعور بلمسته الشبقة. كلما اقترب من الحصن تكاثرت الظلال الممتدة –في شكل إنساني– وتفرقت هنا وهناك. يثب ضبع ويعوي ويختفي في همس واه. بعد منتصف الليل، بمحاذاة الحصن، تحتشد الظلمة وتؤلف موكباً من الظلال. اثنا عشر أو خمسة عشر جندياً، حفاة، عزلاً، بضمادات سخيفة في رؤوسهم، في الركبة، عراة الصدور أو شبه عراة تسترهم خرق من قميص، يجرون مدفعين أعلى منحدر، نحو الحصن. انبطح بيانثي من جديد، كاتماً أنفاسه، وعيناه

ناشبتان في موكب المغاربة الذين يحوطون المدفعين في صخب وبنادقهم على أكتافهم. يصرخ أحدهم: "هيا، هيا". وحين يرى أنهم متوقفون يقذفهم بحجرين أو ثلاثة يسمع لها دوي غائر على الظهور. يسقط أحد الجنود على الأرض. مغربي آخر يطلق النار على أقدامهم متجنباً إصابتهم، وحين يلحظ أن من سقط لا ينهض يهشم رأسه بمؤخرة البندقية. بقية الجنود تبذل مجهوداً خارقاً وترتقي القطعتان المنحدر في صخب شديد. لبث القتيل إلى الوراء في موضعه، ورأسه ملتو على نحو لا يصدق. يحس بيانثي أن البساطة المأسوية لكل هذا لم تعد تثيره، وأنها مثل لعبة أطفال تمزق فيها وتعذب حشرات لا يبالي الكون بها. ومن الطبيعي أن يحدث لأن بيانثي الذي كان في وسعه أن يفتح النار على المغاربة لم يجرؤ على ذلك. قوة كونية تسن قانون الأقوى، وهذا وحده، ولا أحد غيره، بيده القانون والمنطق. لا يجرؤ حتى على التفكير ذهنيا في سباب آلي، غبي، ويكبت أيضاً -تحت تأثير الليل الخرافي- لعنة.

حين يعتقد أنه في مأمن يواصل السير ويمر على مرمى حجر من الساتر. ارتقى منحدراً إلى أن بلغ هضبة ينبسط فوقها الحصن. والآن، يدور دورة واسعة حوله كي يتجنب احتمال وجود حرس في الجبهة الرئيسية. هنالك سلسلة من الموتى أشبه بجماعة ممتدة من جنود مجموعة الالتحام المنبطحين. بعد أن تمكن من مجاوزة الساتر، يبحث عن منخفض في الأرض يقع على الطريق ناحية أيسر نقطة وأحصنها أيضاً لعبور النهر. يتعاظم الإحساس بالفشل حين يضطر إلى الاحتماء من حراس الحصن

والفرار مما كان يوماً ملجاه وحاميته. مستغلا انحدار الأرض، يغز خطاه ثم يعاود الركض احياناً. إلى الخلف، بعيدة، بروق واهية لا تكاد تضئ السحب. هاهو فى طريق يستيتين، فى طريقه إلى المعسكر الذى قد يبلغه فى نفس هذه الليلة. يستشعر راحة حميمة، ويصطدم التفاؤل وينفجر ضد الظلال فى صخب شحنات من طلقات البنادق. زاحفاً، يبلغ صخوراً تحيد كثيراً عن الطريق. ما زالت شحنات النيران تمزق أشلاء الهواء الوادع، بفواصل جهنمية غائرة. بيانثي لا يرى، لا يسمع، يجهل أين هو لكنه يحدس قرب حاجز من الصخور. فيتفحصه. يكتشف كوة إعجازية ويتأهب لكى يتمدد داخلها كدودة. الظلال تتجسد، يكتم صرخة. شئ ما يتحرك ويهم بالتقدم نحوه، بالفرار تحت حفيف ملابس توراتية. يرفع بيانثي البندقية فوق كتفه ويغرس السونكى بغضب فى الفريسة. زمجرة خنزير وعبارتان. تئن الظلال فى العمق وتنطق بعض كلمة :

– أتريد مالى، أيها القذر؟

يتعرف بيانثي الصوت. إنه صاحب حانة عجوز من دراوشة. ارتدى ملابس مغربية كى يتسنى له الفرار، لكنه، متعقباً، لاذ بهذا الملجأ ومعه مدخراته التى يحتفظ بها فى كيس من القماش فوق صدره. يصمت بيانثي مباغتاً.

– أتقتل اخاك، ياقابيل، يا ابن البغى؟

ترسم الظلمة الآن ظلاً مبهماً، قاسياً. كيس النقود تحت إبطه. بذراعه الأخرى المطوية والمتقلصة يخفى شيئاً كذلك. يرسم شيئاً فوق ضلوعه. يبدو أنه منشغل بالحفاظ على ماله اشد من حياته. لم يزل بيانثي صامتاً فيخرج الشيخ من مكمنه، زاحفاً إلى الوراء، ثم يقف فوق وتد ويتراجع:

– لقد رأيت رقم 42 وسابلغ رؤساءك؛ سابلغهم.

تستمر دفعات النار في اتجاهات متقابلة، تمزق الظلال هنا وهناك. تسمع جلبة الحشد من جديد؛ وفي إشراقة البروق البعيدة يظهر حوالي اثني عشر فارساً يتقدمهم نفس المقدم. انخفض عدد الفصيلة إلى العشر، لكنها ما زالت تسير مرعدة، راكضة، منقضة بغتة على حزمة من الظلال فتقعقع السيوف والأربطة فيما تتضاعف شحنات النيران. بعد كل اشتباك يقل العدد واحداً أو اثنين، ويسقط الخيل أو يجمح كالمجنون فتشج رأسه ضد مرتفع أو ضد هيكل شاحنة مهجورة. والمطر يعود وينفح الليلة وحشة جديدة.

يفر العجوز منحنياً، بخطو قصير، يفر من الموت الذى أمسك به من ضلوعه، من الظلال ومن همس الحصن حيث مازال المدفعان يتحركان في وعورة. جواد يركض ورأسه إلى أحد جانبيه ويثب وثبة رهيبة حين يرى العجوز صاحب الحانة ثم يركض في اتجاه آخر. يحس بيانثي بشئ أشبه بحصار من السلك الشائك تتسلل أسنانه إليه في صمت. مازال يرى العجوز تحت أقدام الدورية، ممزقاً، وخرق جلابه في الهواء. الطلقات الكثيفة في الأعلى هي مثل سرب من الكراكي تطلق صراخها معاً ثم تذهب. والسهل، في ظلمته الغائرة والممتدة، يسمح للمطر بالنفاذ إليه، فيمص بيانثي الحجر المبتل ويمسح أنفه في الطين. صوت الحشد الآن ليس إلا صوت زوج من افراد الاستطلاع يقطع طريق النهر هرولة. ينهض بيانثي ويحفزه إحساس الآخرين بالفرار ويركض هو ايضاً. لو ان هذين الفارسين ابتعدا، سيبقى وحيداً في السهل المحكم الظلال والسحب والموتى.

(٩)

ركض طويلاً أثناء الليل حتى إنه تمكن من تخطي يستيتين. حين رأى الحصن استشعر فرحة الحيوان المطارد الذى بلغ باب عرينه. طوال الطريق يجرى، يسقط، ينهض، تلهبه سياط مروض سيرك غريب يمتطى السحاب ويطرقع سوطه هنا وهناك على مستوى الأرض. تكثر دوريات المغاربة. ومن البوكيتي حتى يستيتين الأرض مغطاة بالفعل بأجساد ممزقة. ملمس طرى تحت القدم، فحيح نمس. ولا جثة فى وضع الرقاد، بل مباغتَة فى حركة تقدم، أثناء القتال أو الاحتجاج.

تأخر فى إدراك أن هذا الحصن أيضاً تحت سيطرة المغاربة. كانت ساعة الفجر حين شاهد إلى جانب الساتر المدمر أسوار السلك مجدلة ومقتلعة بين الأشلاء والأعضاء البشرية: سلام الداخل، سلام رقاد مستحق، بلا احتياطات، تحت الصخور العالية التى تنهض كأبراج مراقبة رمادية تكاد تلامس القرية، صوب الجبال. هنا، الكارثة أكثر تبايناً، ليس لها رتابة أنوال أو دراوشة الفجة والبدائية. هنا، كان ثمة قرية، كانت ثمة حياة مدنية يشى بها، وإن يكن علي نحو واهٍ، النشاط المتحضر فى "سان خوان دى لاس ميناس". ثمة أيضاً غبار أحمر، غبار حديد، على الأرض والوجوه والملابس: بفضله اكتست بعض جثث العمال الإسبان نضارة. حين أبصر بيانثي كل ذلك، أحس بضرب من البهجة السادية. "سان خوان دى لاس ميناس"، القطار بنخاعه الشوكى مرفوعاً هناك، تخترقه العصي: قطار لعبة يمكن طيه وحمله إلى المنزل، لكنه سرعان ما يظهر -دون أن يعلم كيف- عند مجاوزة أكمة أو يتلاشى بين الشجر ثم يعاود

الظهور. إلى اليسار قليلاً، يزداد الغبار الأحمر، الضارب إلى السواد بفعل الماء. أرصفة شحن فى المدينة، عمال، حمالون، عمال مناجم بلا أجر تقريباً؛ قطاران مشحونان بالمعادن يومياً إلى الميناء؛ كل شئ بفضلنا نحن. أين إذن تلك القطارات المشحونة، تلك العربات وتلك الخلية من "الرجال العراة" . كل صباح يحفزون النفس باندفاع معين بالبدء ونقطة الانطلاق، بعكس المساءات الكئيبة والمتعبة؟

يبلغ الأمر ببيانثي حد الشعور بنحو من الرضا الشرير والشماتة. جلس على حجر. تتصدر المنظر قمة "سان خوان دى لاس ميناس" . لابد أنه سان خوان باوتيستا (يوحنا المعمدان) . ها هو الزاهد صاحب الملايين، متصوف الصناعة يدعو إلى الفضيلة، والقطاعة والصوم، يعمد السكان الأصليين بغبار المعدن الأحمر. تعميد السخرة، الرق. دعاة العمل الإجبارى والأجر الظالم. ولا وجود لأيام العمل المتفق عليها أو للحد الأدنى للأجر. موكب الملثمين، يغطيهم الغبار الأحمر والحجارة المضمخة بأحشاء الجبل الدامية، يدب دبيباً من المنجم إلى القطار، ومن القطار إلى المنجم، فى صمت، فى انتظار الغروب والريالات الستة.

حضارة الغرب، قطارات المناجم، سوسيولوجية البر المسيحى ووراءها، الجيش، الحياة الفتية والقوية وثلاث كلمات تتردد على الشفاه: وطن، بطولة، تضحية. وراء قمة المنجم، صخور بيضاء قائمة، مجتمعة، متراكبة: عظمة الجبل العارية. وإلى الخلف، بلاط أبيض من الحجر الجيرى حيث رسم المطر وعوامل التعرية المستمرة أعمدة خانات مربعة من أعلى إلى أسفل، جدول أسعار البورصة. وعند السفح... لاذ بعضهم بالسفح ينتظر الموت. فى ذلك القطاع، الكتلة الجيرية الضخمة منطقة ضارية وبدائية.

الضوء يصرخ ويدفع. بيانثي ينهض ويستأنف السير، يحس بحنجرته تحترق وببطنه غائراً بين إليتيه، وكتفه اليمنى مشلولة، وقشرة كبيرة فى ظهره تحولت إلى مذبة تحت الشمس. يومان وليلتان سائراً، بلا زاد سوى حسوة الجعة التى أعطاه إياها الضابط، أفقدته تماماً الوعى بالخطر، الإحساس بما حوله، رعب الموتى. يحس، فى أعماقه، بأنه تحرر من العبودية. الآن، لديه حرية بربرية ولا ترحم، أقسى من أى انضباط، حرية شئ غير عضوى، حجر أو شجرة، هائلة وغير نافعة. تفكيره ينتهى إلى خواء كمن يضرب رأسه فى تابوت.

وحين ينتبه تكون يستيتين قد تلاشت ليواجه السهل الذى تصل انعكاساته حتى نخاعه بموجات معدنية. والموتى؟ هنالك الآن هدنة. يتراءى السهل موحشاً. بعض البغال يكشف عن أسنان صفراء وطويلة حين ترفع خطومها، وتتسع عيونها على نحو مفرط إزاء زرقة لم تعد قادرة على أن تعكسها. تتكون بغتة أشباح طويلة فوق الجير من بقع الشجيرات الضاربة إلى الحمرة والصفرة، وتحييها الشمس وتشعل فيها فتيل النار. هنالك قبائل إلى اليسار فى المرتفعات الجبلية. أية طائرة ستكتشف موقعها. ماذا تفعل الطائرات؟ يثب، يختبئ فى خوف حذر. سمع صوت عيار نارى.

لم يزل السهل مقفراً. يركض جواد قريب ثم يتوقف. يقف خلفه. دون أن يجروء على تغيير وضعه، يسحب البندقية ويخرج السونكى ودون أن يلتفت تقريباً يحدج ببصره وفمه شبه مفتوح. إلى الخلف، ينهض جندى عن الأرض ويضغط بإحدى يديه ذراعه المصابة. بعد

ذلك، يستل سكيناً من حزامه ويتراجع منحنياً، متسللاً بجسده نحو الجواد. يذهب سعياً وراء البندقية المتدلية من السرج. عيار آخر يخطئ هدفه. يصل الجندي -ذو وجه كله مهشم أسفل عينين صغيرتين محتقنتين- يصل إلى القربوس فيما يثب آخر من بين العشب. ينظر حوله أولاً، خشية أن تجتذب الطلقات المتمردين ثم يتقدم في حزم. يخرج الفارس للقائه يحمل المدية وفي الصدام شئ ما ينكسر في طقطقة معدنية فيترنح الرجل ذو الخطم الكبير ويسقط في صمت. يئن وينظر في يأس إلى الحصان الذي فقده في التو، ويجري المنتصر ويقبض على فريسته. يتراجع الحصان بأحد جانبيه ويدور ويتصدى لتهديد وركلة من الآخر بضربة رأس قوية إلى الخلف.

طلقات على أحايين متباعدة، مكثفة، تضرم النار في "بعد" قريب. يخرج بيانثي من مكمنه ويركض فيما يقوم الآخر -معتقداً أنه خصمه- بإطلاق "مشط" من الطلقات سدى. يسمع بيانثي صوت الأعيرة ويرى الأرض وشظايا الحجر تتقافز عشر خطوات إلى الأمام. السهل الآن أبيض، أجرد، أملس. ومن جديد، موتى جدد؛ وجماعة بعيدة من الجنود المحتلين يطاردهم ويصطادهم بطعنات المدى حوالي خمسين فارساً مغربياً. يتقدم السهل في كافة الاتجاهات. غبار ليس بالبعيد ينم عن وجود فرسان آخرين. ليس هناك أقل نتوء في الأرض يمكن الاحتماء به؛ وتسقط الشمس بلا أية ظلال أخرى فيما عدا بعض الجثث، وظل شخص مصاب يحاول بساقيه المشلولتين-ربما كسر عموده الفقري- رفع رأسه وصدره بلا جدوى معتمداً ذراعيه.

هنالك ظل أكبر، وربما أكثر مواتاة. جواد مبقور، رأسه محنى بشكل رهيب ومنحشر تحت الرقبة فى وضع حصان الشطرنج. يزحف بيانثي على أربع ويسقط بجانب ذلك الحيوان. كان حصان جر جميلاً. من الذى يحمّل هاته الدواب نتائج قلة خبرة القادة وطيشهم؟ وما هو "الواجب الحضارى" للبغال والخيل؟ يفكر بيانثى فيما بعد: بيد أننا -كالبغال- علينا واجبات حضارية فقط، لا حقوق، وواجبنا الحضارى هو الموت. الدولة تصرح لنا بالموت لحماية الحق الحضارى لحفنة من المخلوقات التى هى التاريخ، الثقافة، ازدهار البلد، لأن البلد يبدأ وينتهى بهم.

لا يجد بيانثى حلاً لهذه الأفكار لكنه يطرحها على نحو قاتم وتظل على حالها فى اللاوعي الذى ينتابه الآن من جديد إحساس باقتراب الخطر. ناحية اليمين، تتقدم الدوريات المغربية، تقترب مطاردةً فلول جنود عزل يصرخون ويسقطون، اشد انكشافاً، طفولية، تحت الكتل الكبيرة من الجياد المتوجة بطيران الجلابيب والبرانيس.

بيانثى، زاحفاً لصق الجواد، يدور حوله، يكمن على الجانب الآخر، بين أرجل الجواد. يشعر للمرة الأولى بالغثيان من الموت فى كبة الأمعاء التى تطل من بين الرجلين الخلفيتين، فى عينى الحصان اللتين نقرتهما الغربان، فى الخطم الذى نهشته الضباع. من جانب المتن، كان الحيوان سليماً؛ أما من ناحية بطنه فثمة تمزقات كبيرة واحترق جلده وشعره. فى هذا القطاع أيضاً الخطر وشيك ومتفاقم. يستيقظ السهل ومعه تبدأ حركة المغاربة تحت الشمس كقمل على قميص. يرى بيانثي أنه انكشف. هناك أيضاً، تحت سنابك الخيل أو بطعنات المدى، يصطادون الجنود الفارين المذعورين والهائمين على وجوههم. أربعة من المشاة نفدت ذخيرتهم يتجمعون وينتظرون بالسونكى جماعة من الفرسان منطلقة نحوهم، وحين يرى

الفرسان أن ثمة مواجهة يتوقفون ويسحبون بنادقهم دون أن يترجلوا. طلقات سريعة. يسقط الجنود، يزحفون، فيعود الفرسان إليهم ويدهسونهم قاذفين ببنادقهم في الهواء. ثم يتقدمون مختالين بجيادهم التى تثب وتتقهقر وتجمح. فى الناحية الأخرى تسمع صيحات عربية. بيانثي، مرعوباً، يسمع كلمات متفرقة: "مليح... شجاع ... سرنيولا"، وضحك جماعي. يكررون كثيراً كلمتى "راس أعروى" و"مونت أعروى". ويقتربون. يلتصق بيانثي بالحصان، يكتم أنفاسه. بغتة، يلتف فارسان ويقفان أمام الحصان الميت. يطلقان النار فى الهواء ويتحركان، يثبان فوق الحصان الساكن. صوت سنابك، صهيل.

بيانثي يشعر بملمس لزج، بارد، في يديه، في قدميه. إنه داخل بطن الحصان، وتؤدى فتحة بين ضلوع الحيوان عمل المرصد المتنفس. تفوح رائحة محل جزارة أو مقلب قمامة. كلما تقدمت الشمس تستحيل رائحة نفايات كثيفة وعفنة. لكن القيظ ليس شديداً وملمس الجثة بارد على الأحرى. عن قرب، للمأساة قساوات تلوح ساذجة تقريباً من شدة فظاعتها وعبثها. لايرى إلا فى اتجاه واحد لكنه يكفيه لأن السمع يعوض النقص ولأن السهل يبدو فى بعض الأحيان كأنما يدور كقرص ليقدم له كل الجبهات.

حل السونكى فى احترام مباغت، احترام ابن تقريباً، لئلا يصيب الجواد، وصوت الأعيرة النارية يسمع بعيداً من خلال حوائط من نور، حوائط نوم مؤجل وظلمة رطبة.

يشعر بنبضه فى ضلوع الحصان. أتنتقل حياته إلى الأحشاء الميتة وتحييها من جديد؟ يحس كذلك بأن نفسه تتساوى بما يحيط به وأن ثمة نوعاً واحداً من النفس يحيا على ذات الدوافع العمياء التى تخضع لقانون واحد. يغشاه حنان مبهم، الرغبة فى فعل الخير وفى أن يجد كل شئ عذباً وصالحاً.

حرقان فى العين ودموع على خديه. يبكى منذ برهة. الرغبة فى البكاء أقوى من تعبه وعطشه، من جوعه ومن كل آلام الجروح الثلاثة. وفى نفس الوقت، هذان الخيطان الصغيران المضيئان يصدران من مؤخرة الرأس ويمران من تحت صدغيه ليتصلا فيما بين حاجبيه ويصيباه برعشة ليتجنب ذلك الاتصال. يخشاه كما يخشى الموت.

رويداً، فيما ترتفع الشمس وتنتقل حرارة جسد بيانثي إلى الأحشاء الميتة، يتلاشى الملمس البارد وتتصاعد رائحة العفونة، ويحس بيانثي أنه يغوص فى وعى جديد بنفسه، بالألم، بالحياة. وهذا الوعى واقع جسدى. ليس صحيحاً مايريد أن يثبته لنا الشعراء والإكليروس. إنها رغبة فى عدم فهم العظمة البسيطة لهذا الواقع الذى يساوينا بشئ وادع ومعجز مثل الحجارة والشجر. وبيانثي غير القادر على مثل هذه التأملات، يخمن مع ذلك مبرر ألا يثير ملمس الحصان الميت تقززه. يشعر لحظياً بانه متصالح مع المادة. كانت الانطباعات الأخلاقية بالغة الشدة وحية حتى إن تلك الطريقة العاطفية فى التأمل، التى تمثل لدى غالبية البشر ظاهراً خادعاً للفهم والموهبة، تلاشت وبقيت فقط الغريزة، التى تزداد حدة فى كل لحظة وتقوى كل يوم. والغريزة السليمة التى نخستها المأساة تحرك فيه شعوراً لا حدود له بالحنان نحو هذا الفرس المنهك المبقور والذى هو الآن عرينه.

يقترب مغاربة راكبين وسائرين. أحدهم يصيح فينظر جمعيهم فى نفس الاتجاه. يكبت بيانثي نَفَسه. أنهم قريبون جداً منه، أقل من خمس عشرة خطوة. مازالت تسمع وسط اللهجة المغربية كلمات أعروى، راس

أعروى. أحدهم يرفع البندقية إلى كتفه، وآخر ينحيها عنه بصفعة ويحذره من شئ. ثم يقدم ذلك الجندى ذو الشعر الأبيض راقصاً على نحو أخرق ومغنياً أغنية بلا معنى، يلبس حزامه فوق جسده العارى وسراويله الداخلية ممزقة.

– كم عددكم؟ مائة والأم! لو أن الرائد رآكم هنا ومعكم المدافع!

يراقبه المغاربة باهتمام وبسمت صارم ومتأمل. أحدهم يرفع كفيه إلى فمه، ويخيم عليهم جميعاً احترام خرافي. يضحك المجنون وضحكته تجمد الهواء حوله. يصرخ فى الجثث:

– كسالى! لو جاء الحكمدار يحمل "القايش" فى يده سنرى كيف تنهضون! يشرع في السير فى حزم ويأسف على شئ بإيماءات من رأسه. ثم يتوجه إلى المغاربة:

– تركت سترتى هناك، لأننى إذا دخلت المدينة بها سيحملوننى للقضاء على القمل ثم يتركون السترة مجعدة ومبلولة. شهادة محارب قديم مقابل خمسة سنتيمات! والسراويل التى تركتها على عليقة ذهبت وحدها من أنوال حتى أزغنغان. ثم إنك ترتدى السَترة بعد أن غسلوها جيداً، ووضعوا الملابس فى ماء يغلى، وحلقوا رأسك "زيرو"، وقبل أن تصطف، القمل مرة أخرى.

يعاود الضحك برنين خشبى قوى وجاف. ثم يبدأ فى السير مغمغماً:

– مغاربة أنذال!

لكنه يتراجع إلى نقطة البدء مسرعاً، ويشرع فى الرقص فى جدية شديدة، بإصرار حيوانى، ويتقدم على هذا النحو فى صمت. يواصل المغاربة طريقهم ويحيدون قليلاً كيلا يعثروا بجثة الحصان. هم يحترمون المجانين، يرون فيهم نافذة مفتوحة على الغيب.

يود بيانثي الخروج، لكن ضوء السهل مثل ضربة جلاد ستحصد رأسه

مـا إن يطل على الخـارج. مـرة أخـرى، الخـيطان المضـيـئان يتـقـدمـان نحـو الجمجمة، يترددان ثـم يعاودان التقـدم ويلتقيان فوق جبينه. مع ذلك، ما انفكت تسمع أعيرة فى الظلمة الوثيرة والعذبة.

حين يستيقظ، تنتاب الجواد رعدات رهيفة. فى الخارج التمـاع ذهبى -صدغاه ينبضان وشفتاه ملتهبتان-. يرتعد الجواد ثانية. يخرج بيانثي رأسه فى حذر. صمت غائر ومحتف. لابد أنها السابعة أو الثامنة. الطبيعة، الفتية رغم كل شئ، لم تزل تستجيب لضروراته، وعلى الرغم من أن بيانثي يشعر بثقل فى رأسه وبصدغيه مكلومين وبقدميه تترنحان، هو بلا شك نام. يهم بالنهوض ليستطلع القطاع المقابل من السهل فتشله المفاجأة. بعينين خارج محجريهما يرفع البندقية من الماسورة ويهم بتوجيه ضربة بمؤخرة البندقية إلى رأس شيخ عربى يحمل حزمة كبيرة حداوى الخيل ثم ينهض فجأة مشدوهاً وبيده قطعة من سكين. ينظر بيانثي إليه، يود بعينيه النفاد إلى تلك الشيخوخة ذات اللحية الجليدية المهيبة والوقور. يجيبه الشيخ بابتسامة:

– آه، أيها الفتى، اهدأ. جئت لأنزع حداوى الخيل لأبيعها فى السوق. افكر فى أنني سأحصل منها على أربعين سنتيماً، ما ينقصنى لأشترى أسناناً جديدة "للقادوم". فى شيخوختى لا احتمل العمل بالفأس، بل القادوم، إذ لا اضطر إلى ثنى كليتي.

يود بيانثى التحدث بلا جدوى، يضيف الشيخ:

– ماذا تقول؟

بيانثى يكرر والعجوز يبتسم ويصمت. يشاهد الجندى وهو يستشرف السهل فى قلق فيهدئى من روعه:

– لا تخش شيئاً. هم جميعاً فى أعروى. هنا ستجد فقط بعض العجائز مثلي او الصبية.

الجندى يصمت ويتردد. يردف الشيخ:

– دعنى أنزع هذه الحدوة الأخيرة، وإن وثقت بى تعال معى وسأقدم لك خبز الشعير وماء. من أين أنت؟

يذكر الجندى قريته فيضيف الشيخ:

– ما اسمك؟

بيانثي يتردد، يتطلع إلى السماء، يرفع يداً إلى جبهته، ينشب نظرته فى الأرض، يتركها تهيم.

– لا أتذكر.

يشرع الشيخ فى خلع حدوة الحصان بلا اكتراث فيمزق الحافر بقطعة السكين. يرى بيانثي مسماراً يخرج منه، مسماراً طويلاً يخلعونه من أحشائه هو. يعاوده الشعور باحترام الابن والعرفان نحو ذلك المسخ المنتفخ والمترهل. فى جبهته، عند نزع شئ ما منها، يتقلص الجلد. دم وأبخرة حصان. يهم الشيخ بتكرار نفس العملية فى إحدى أرجل الحصان مازال بها نصف حدوة ومسمار. تمزق السكين الحافر والساق. بيانثي يحتج:

– متوحش!

-لكنه ميت.

– دع يا سيدى الحيوان فى سلام!

يواصل الشيخ عمله دون ان يلتفت إليه. ينقض بيانثي عليه ويمسك بلحيته فيضطره إلى التراجع شاهراً المدية فى وجهه. ثمة عدم اتساق فى الكلمات والحركات كان الشيخ قد انتبه إليها.

– يا رجل، ماذا تفعل؟

وبيانشي ينظر إلى جهة أخرى نظرة معتمة ويلعن؛ يترك الشيخ، وهذا يدخل آخر حدوة فى قطعة من السلك، فوق ثلاثين أو أربعين حدوة أخرى، ويتنفس الصعداء مستطلعا السهل فى يأس بارد ومذعن لمن انتهى كالعادة من التقاط ما عف الآخرون عنه لكونه بلا قيمة. يتابع حديثه:

– ألا تتذكر اسمك؟

بيانشي يفكر مرة أخرى؛ غير أنه يضل فى متاهة، ليست متاهة أفكار، بل إيحاءات مادية، حية، متاهة ضوء وأصوات وصخب. طلقات، لحم أصفر، بنفسجي، حلم مضطرب وبعيد فى إسبانيا، ثم الذروة الأزلية: الغد. يود النفاذ إلى متاهة يفر منه أول سبلها. ويعلم أن اسمه مكتوب فى نهايتها. يهز منكبيه:

– اللعنة، لا أتذكر!

يسلم أمره للشيخ، وهذا يشكر له هذه الثقة فى صمت. "أأنت جريح؟". يوافقه بيانشي والشيخ يعده بالعلاج. "إنه قريب من هنا!". لكن بيانشي لم يعد قادراً على السير ويريد الشيخ أن يحمل عنه البندقية. إحساس مباغت بالخطر ينتاب بيانشي:

– أنت إسباني؛ ومع ذلك لا عجب فى أن تحاول قتلى. يا إله الكون! لم يعد يدهشنى أى شئ!

لكنه، قبل أن يناوله البندقية يفرغ خزينتها من الطلقات. يتقدمان. يسير الشيخ بين الموتى بشئ من الألفة. أحياناً ينحي جثة وينظر تحتها:

– ليس غريباً أن تجد ذراع إغلاق بندقية أو رباطاً أو حتى علبة ذخيرة، ثم تبيعها فيما بعد بثمن جيد.

ـ ماذا يحدث هنا، أيها الشيخ؟ أتعلم ما هذا؟ يومان وليلتان وأنا أفر وأعثر بموتى في كل مكان. وهذا ما أقوله، حدث هنا شئ وشخص ما هو المسؤول.

يأخذ الشيخ شهيقاً ويحك ذراعه:

ـ لا ذنب لأحد وهنا لم يحدث شئ. -ثم يضيف وعيناه تائهتان في الأفق-: هذه حال البشرية دائماً... أتدرى لمه؟ أنا رجل عجوز جداً. في عام 1860 وصلت إلى الجانب الآخر من أرض المغاربة، إلى تطوان. عجوز جداً! لكن، لهذا السبب...-يتردد كأنما يقتنع بعبث كلماته ثم يقول:- أنتم، الشباب، أنتم وحدكم الذين لم تلوثوا بعد، ضميركم حي وتعتقدون في العدل، في الخير؛ والله امركم أن تقولوا كلمة الحق وأن تدخلوها -إذا تطلب الأمر- في رؤوس الشيوخ. الحقيقة حقيقتكم لا حقيقتهم. ليس في رأس العجائز الذين يحكمون هناك وهنا، وفي كل العالم، سوى الخيلاء والخوف. ولا فكرة إنسانية واحدة ولا أساس طاهر. والمصالح المبثوثة حولهم هي كقضبان السجن. وأنتم الشباب كان في وسعكم تجنب هذا بالدفاع في حينه عن الأفكار التي بوسعكم أنتم وحدكم أن تستشعروها بصدق والتي هي حقيقة هذا العالم وإن لم يشأ أحد أن يراها. لكنكم فضلتم أن تخضعوا كل شئ لهذا الشر وهذه الحقارة؛ والسماء التي لا تغفر بهذه السهولة كما يقولون تعاقبكم وسوف تعاقبكم أكثر.

يرتعد الشيخ، يحمر غضباً. ثم يندم. يفكر بيانشي: أيكون مجنوناً، رغم أنه في الواقع يعلم أنه على حق. لكن لابد أن يكون الرجل مخبولاً قليلاً كي يلقى هذه الخطبة هنا وفي هذه اللحظة! يقول الشيخ بعد صمت:

ـ لا شئ. هذا، كل هذا، لا يعني شيئاً. كان دائماً هكذا وسيظل هكذا. لا أدرى هل أنا إسباني أم لا، لكننى مع المغاربة. هذا فعله الشباب هنا لأن الشيوخ يؤدون التحية العسكرية للحكمدرات الإسبان. أنتم، فى المقابل، الشباب الإسباني، تخضعون، تجودون بخير ما فيكم فى أمور بائدة وباطلة وشريرة.

يتابعان سيرهما. صوت الشيخ يضرب رأس بيانثي فى رتابة، مترعة بالأصداء. يردف الشيخ بعد صمت:

ـ إسبانيا جميلة، أليس كذلك؟ لم أرها منذ خمسين عاماً. من قبل، كنت أرتقى الجبال وأرى قمم سييرا نيبادا بعيدة وسط السحب، عندما تكون السماء صحواً؛ لكن نظرى الآن لا يرشدنى والجبال عالية. إسبانيا جميلة، أليس كذلك؟

يصر الشيخ فيجيبه بيانثي فى نهاية الأمر:

ـ بلى، جميلة.

يتذكر في لذة شمسها الذهبية والريف الأخضر وصباح أيام الأحد فى قريته، مزيناً بمناديل الفتيات الملونة وضحكتهن الصريحة. ينسى أن كل هذا الذى يحوطه، الهواء الفاسد، الموتى، القائد الذى هشم أصابعه بمؤخرة المسدس، الحشا المعتم لليلة الظلم والرعب هذه، هى أيضاً إسبانيا. فى الظل، تحسس أصابعه المصابة. تورمت اثنتان منها حتى إنه لا يستطيع ثنيهما. يساوره شك، أفكار متناقضة تتصارع لحظة فى رأسه الأخرق المتعب. بلا مبرر يتوقف ويكرر بحماس غريب:

ـ أتدرى فيم أفكر؟ على الرغم من كل شئ، لا توجد أرض كإسبانيا.

عدة دقائق هدنة من خبط الموت المكتوم فوق الخيال. يقول الشيخ: "خمسون عاماً انقضت. تجب رؤيتها الآن!". يتحدث عن إسبانيا كمن يتحدث عن طفلة لم يعاود رؤيتها منذ كانت صغيرة جداً والتى لا بد أنها

الآن جميلة وكبيرة. بيانثي يشرح له:
– مدن كبيرة بقطارات تحت الأرض، وجيدة الإنارة.
– وأنصار الأمير كارلوس؟
– اندثروا. يبدو أن ذلك انتهى. يوجد الآن أشياع الزعيم ماورا أو الكونت رومانونيس الذين يثيرون صخباً عالياً في البرلمان. والملك.
– الملك؟
– نعم، الملك!
– آه، الملك!
عبثاً أراد كل منهما أن يفسر شيئاً بتكرار هذه الكلمة في نبرات صوت مختلفة، لا يعرفان ما عساهما يقولان بالتحديد. يؤكد بيانثي مقتنعاً:
– لابد من إحضاره هنا ليرى كل هذا – فترة صمت– ثم يردف:
– أتعلم؟ لم يعد هنالك ملوك في العالم تقريباً.
–بعضهم قتلوا، وهو ما لا أستصوبه. وبعض آخر تنحى.
صمت ينتظمه وقع الأقدام في الظل. يقول الشيخ:
– لا ينبغي قتل أحد.
–كلا؛ حتى وإن يكن ملكاً.
هبطا ثم صعدا؛ وفي النهاية، حين يهبطان منخفضاً في الأرض يظهر مدخل خص مرشوق كإسفين بين سفحين شديدي الانحدار. شق مفتوح في أحد الجوانب وبجانبه تراب حفر. الشيخ يفسر:
– دفنت أكثر من ثلاثين وهذه الليلة أواصل المهمة.
يترك حزمة الحداوي على الأرض. والقادوم يريده لكي يواصل دفن الجثث. وفيما ينتظر بيانثي تبريراً إنسانياً، يطلق الشيخ تعبيراً علمياً:
– تفوح منها رائحة عفونة.
داخل الخص، إلى جانب بطانية جندي، ثمة قدر ماء كبير. بيانثي

يمسك به في شره صرعي ويحمله إلى شفتيه. دون أن يدع الماء. الشيخ، المنزعج، ينتزع منه القدر. "قد يضر بك، لقد شربت على الأقل لترين! " .
لكن بيانشي ينتزعه من بين يديه ويسقطه بدفعة. يستمر في الشرب حتى ينفد الماء. ينضح جلده، وتبتل ملابسه عرقاً. ثم يُنهض الشيخ دونما اعتذار. يحس بطاقة جديدة:

ـ ما هذا؟

إلى جانب السرير ثمة جمجمة عاجية اللون. يجيبه الشيخ:

ـ ذكرى شخص عزيز.

ـ رجل أم امرأة؟

ـ امرأة، امرأتي.

ـ أماتت؟

يهز الشيخ منكبيه. وجهه الساكن، الوداع، يكتسي عذوبة غريبة، جديدة.

ـ ألا تراها. أجل، ماتت. كانت من تطوان وقتلها أهلها لأنها فرت معي. ولأنهم كانوا يتعقبونني، جئت إلى هنا. هذه هي جمجمتها.

فيما يتحدث، يخرج الشيخ علبة من الصفيح بها خل وأعشاب. يغسل جروح بيانشي ويضمدها قدر استطاعته.

ـ حسن، والخبز؟

يناوله الشيخ رغيفاً أسود من الشعير، طرياً، ندياً، مرمّلاً. ينبهه إلى أن إصابة ظهره ليست غائرة ويقدم له سكناً وعريناً. يلمح بأن النحو الذى سارت عليه حياته لا بأس به وأن المغاربة خيرون وطيبو المعشر. ينفي بيانشي ذلك مذعوراً:

ـ لو خيروا لقتلوك وقتلوني.

يفكر الشيخ ويوافقه. عند الباب يسديه النصح:

- لا تدخل أعروى و حاول أن تحيد قدر استطاعتك إلى يسار الطريق. إن لم تكن أعروى سقطت فستسقط فى النهاية. استمر أنت، تابع السير ليلاً وحاول الوصول إلى مليلة. لو أن هذه الأشياء التى تراها لم تقضِ عليك فأنت رجل صحيح العقل. لقد كنت على مقربة من أنياب الذئب. أنا أيضاً كنت على مقربة منها فى مثل سنك وضعت لأن القوة القليلة المتبقية لى قضت عليها تلك المرأة. لكن الآن... افعل مثلى. لا تفكر البتة فى هذا وإلا فمآلك الجنون أو العته. أتدري ما هى النتيجة الوحيدة التى استخلصها من هذه الكارثة؟ انظر إليها.

يريه حداوى الخيل وكومة مسامير يخرجها من تحت جلابه. "ربما أربعون سنتيماً، وربما، لو حالفنى الحظ، خمسة وأربعون".

- بالطبع، أصبحت مخبولاً -وبعد صمت طويل- لكن لم تحتفظ بجمجمة زوجتك؟

-مهما أشرح لك لن تفهم، فمازالت شاباً غريراً.

-كما قلت، أنت مخبول. وفى إسبانيا قد يحبسونك لهذا الخبل.

-بفضلها مازلت أحيا سعيداً، وهو ما لن تحققه أنت.

-مهما يكن أسفك على موتها ...

الشيخ يرفض ما يقوله:

-كلا. أنا لم آسف على موتها. كانت قد أعطتنى أفضل ما فيها، وكنا فى بالغ السعادة. ما فائدة مواصلة الحياة؟ فى النهاية، هى أو أنا كنا سنكل فى النهاية، أو نتقزز. هكذا أفضل.

صمت. بيانثى يقطب جبينه:

- أقتلتها؟

يطلق الشيخ بصره على الظل اللانهائى. يخاطب نفسه:

- على أية حال، الحياة صراع، كل شئ صراع، الحب معركة. أحدهما

يموت دائماً كي يحيا الآخر.

ينظر إلى بيانشي. يتحدث إلى جثة، كأنما يواصل حديثه إلى نفسه. يضيف:

– لو لم تمت لقتلتني هي بشكل أبطأ، باحتضار يدوم أربعين عاماً. كنت أحبها على نحو مفرط. لكن هكذا يختلف الأمر. كنت وفياً لها وفاء مطلقاً: وهي، من عمق ثقبي الجمجمة هذين مازالت تمنحني السعادة. كل شئ في العالم صراع: ما لا يهم هو هذه الكوارث بدمائها وقتلاها ومدفعيتها. هذا لا يساوى شيئاً.

يضحك ويتردد ثم يردف:

– كل شئ في الدنيا صراع. في المقابل، توصلت إلى اتفاق منح كلينا السعادة. وهذا هو الاتفاق الوحيد في الحياة الذى يمكن عقده مع الآخرين. لا تنسَ: مع الرجال، مع النساء، مع المجتمعات. قهرهم، تدميرهم، سحقهم حين تتوفر إرادة كافية فيما بعد للإخلاص إليهم طوال العمر. ومن يفتقر إلى تلك الإرادة ليس لديه حق. ها،ها،ها! لكنك لا تفهمني. لن تفهمني إلا حين ترى في عينيك آخر شعاع ضوء وفي فمك آخر قطرة دم. ها،ها! على أية حال، إذا نجوت، تذكر أحياناً هذا الشيخ.

يلمح بيانشي شيئاً جديداً يرسم ضباباً بعيداً وراء احتمال النجاة والعودة إلى إسبانيا: المقابر القريبة، والشق المفتوح، والرائحة الفاسدة تتحدث الآن إلى عقله قبل قلبه. يحس بشئ غير محدد. لا يعرف ما هو. لكن، مهما يكن فإنه يخلف في نفسه انطباعاً مضطرباً ومراً، أشد إيلاماً من العيار النارى الذى يحمله في كتفه.

حين يجتاز منعطف التل، في مواجهة السهل الرمادى -رمادى بلون الرصاص المترع ببقع باللون الأبيض أو الأصفر المنتفخ، لون الجثث العارية-، تخرج الوحشة للقائه وتحوطه وتمد المنظور فى بعد جديد، ينضح بالشراك و الأسرار والمخاطر والملائكة والشياطين. والخوف هو نفس خوف الطفولة القديم الذى يضفى على الأشياء تعبيراً إنسانياً وعلى الأشخاص مرتبة خرقاء كأنهم أشياء. يشعر بدوار، بعرق بارد؛ ليس هذا خوفاً بل زيادة فى ذلك الماء الذى ينفخ معدته ويصدر صوتاً عند السير كأنما يحمله فى قربة. يتقيأ، يواصل السير ويعاود التقيؤ. تقيأ أكثر من نصفه، وفى الحال يحس براحة، يحس برغد لم يعرفه منذ زمن طويل. الآن، تأتيه الأشياء فى انطباعها المألوف: لذا، يتبع عدم اكتراثه الحذر السابق رعب موحش وبارد. يود أن يحسب حساباته. سار حوالى 70 كيلومتراً و مازال أمامه أكثر من 50، ليصل إلى حيث نقل الموت معبره الذى لا يمكن اجتيازه.

يسير ليلاً والبندقية على كتفه السليمة، هادئاً إثر كلمات الشيخ الهارب. فى الجو برودة نافذة ورطبة. يقترب من البحر. والليل الحالك السواد تعمره أنوار قلقة تزيده غوراً. ويخيم سلام مهدئ، له نبض أزلى.

يفكر بيانثي فى أن كل نجم عالم كعالمنا، أو مجموعة عوالم لا بدء لها أو انتهاء. وأن حياة أى مخلوق تساوى أقل من بخار قطرة من البحر تبخرت تحت الشمس. ومع ذلك، يعتبر نفسه مركز الكون ومحوره ويعتقد أن النجوم موجودة فحسب لكي يتسنى له تحديد اتجاهه ومعرفة كم الساعة الآن. وإذا كان القمر مختفياً فمرد ذلك إلى أنه هكذا بوسعه أن يحتمي على نحو أفضل بالظلمة. لكن، ما هذا الوعى العبثى بنفسه؟ بيانثى يحرك رأسه آسفاً: " ثرثار أنا! " . يجهل التناغم المشؤوم الذى يتصدر كل شئ، والذى يفقده الإحساس بنفسه فى لحظات الخطر لتكتب له النجاة؛ وأنه فى

لحظات الأمان والسلام، بعد أن سد ظمأه ونام جيداً، في وسعه أن يطرح بعض الأفكار التى إن لم تكن مبعث راحة فهى على الأقل تحمله بعيداً عن اليأس.

إنها الحرب. هذه هى الحرب. الراية الصغيرة فى صارى المدرسة، "المارش الملكى"، التاريخ، الدفاع الوطنى، خطاب عضو البرلمان، أوبريت النصر. كل ذلك، محوطاً بالأوسمة، يتسبب فى هذا. فإذا كان ذلك هو الوطن، فإن هذه هي الحرب: رجل يفر وسط جثث ممزقة، مُثل بها، القدمان مهشمتان من الحجارة والرأس من الأعيرة النارية.

ينفجر ضحكاً. من شدة الضحك يضطر إلى الجلوس على حجر ليواصل ضحكه. بغتة، يصمت. مرت عدة ظلال مسرعة، لا تكاد تلمس الأرض. كانت ثلاثة ونهشت كل واحدة من الجثث الثلاث التى ترى إلى اليمين. لو لم يكن يعرف أنها ضباع لاعتقد أنها أرواح أولئك الجنود. يواصل السير، برعب الخائف. على مسافة خمسين خطوة، تطلق الضباع المتوقفة فى الظلمة أصوات احتضار أحمر، معتدلة، حادة، أشد إنسانية من أصوات البشر.

يسير بيانثي مستطلعاً بعينيه أحشاء الظلمات التى تحوطه على مسافة ثلاثة أمتار فى نطاق ثقيل. تخفت أصوات الضباع رويداً. وفى النهاية، تسكت. عادت من جديد إلى وليمتها.

(١٠)

بعد أن سار طوال الليل، بلا أحداث فيما خلا صراعه مع الظلال الكثيفة المحيطة به، يصل وادى أعروي. يعلم أن أول بروز هو فى النهاية تل أعروي، القليل الارتفاع والمنبسط السفوح. فوقه :المحصن. إلى يمينه النهر؛ و إلى اليسار، محطة السكة الحديدية، الصغيرة، البيضاء، بمشربياتها، نصف محصن ونصف مسجد. وفى الوسط، سور السلك الشائك والأكياس الرملية. ميدان الفجر يبدأ فى التخلى عن حذره. قبرة تثب بين البغال والصناديق الفارغة والموتي فى أحد قطاعات المدافع الرشاشة. يُباغت بيانشي بوحشية. لم ير طائراً منذ خروجه من R. ينتابه شعور لا يستكهنه بالشفقة على هذا الطائر الذى بلون الأرض والذى يحلق على مسافات قصيرة ويغرد. يفكر: هذه الأرض كغيرها فى بقية البلدان، كأرض إسبانيا. لا تزرع طلقات وتحصد موتى فحسب. ثمة قبرات كما في إسبانيا وربما وجدتَ مزارع وشجراً. الفجر يمد المنظور، وبيانشي يشعر بانه داخل فنار مترامٍ من الزجاج الآخذ فى الاتساع. تفوح رائحة شمع محترق،شحم، وبين حين وآخر رائحة بالوعة نافذة. يصرخ الضوء حوله، يستدعي الخطر والموت. ويقدم صوته بأصداء مكرورة من بعد مضبب، قد يكوَن بحراً أو سحباً أو خضار بلد فانتازى. ظله ممتد ويمر مداعباً أحشاء جواد ممزقة. الصباح فى أعروى لا يبالى، كأي صباح، بجنون البشر أو رعبهم. قذائف مدفعية غير بعيدة تذكره بحصار R. "مرة أخرى؟" أعروي، أعروي! مزيد من طلقات المدفعية وانفجارات

قذائف ناعمة. ذعر من البدء من جديد، من رؤية السماء ممزقة، من غليان الأرض في براكين صغيرة. الفرار، الفرار. النجاة بفعل نزوة خرقاء من نزوات العناية التي يلوذ بها في ريبة. "أي مصير مجهول ينتظرني: إذا نجوت فلن أنجو أنا بل ذلك الحيوان البائس، المتعب، القذر، بنفسه الخامدة". أشد ما في المرء أصالة ظل هناك، وجهه إلى السماء، ميتاً ومتحللاً أيضاً. أين؟ لا أحد يعلمه. قد يكون معلقاً في النظرة الخالية من التعبير –أو ذات التعبير الرهيب– لتلك الجثث.

يشعر بيانثي بأنه مطارد، منكشف، يشعر برغبة في الركض في أي اتجاه. أربعة أيام و أربع ليال وصورة الموت دائماً أمامه، متجددة في ألف شكل مغاير. بيانثي لا يفكر، لا يعقل؛ يدري فقط أن عليه الفرار وأن قدميه تنزفان ورئتيه تحتجان ويسعل على نحو رهيب ما إن يشرع في الجري. بعد انخفاض في مستوى الأرض يسبق أفقاً هزلياً وردي اللون –الفجر–، يسمع وقع خطا متسارعة وأصواتاً. بيانثي يريد التلاشي، الاحتماء. الوادي جد منكشف، ولا وقت لأي شئ. اضطراب شديد يشل قدميه. مثلما يحدث في الكوابيس المرعبة. فجاة، شخص ما يهز ذراعه:

– ماذا تفعل أيها المعتوه؟

إنه ريبيرو، واحد من جنود سريته، الذي حين يسمع الدوي القريب يلقي نظرة حوله ويطلق ساقيه للريح. يتبعه بيانثي. ريبيرو يفسر زاعقاً:

– إنها قواتنا، لكن ينبغي الفرار منها لأنها تفتح النار على الجميع. إنها مثل الجياد الجريحة ترى أوهاماً وينبغي أن نبتعد عنها ونتركها.

ينبطحان أرضاً. رغم أن الأرض تبدو منبسطة تصنع بروزاً طفيفاً وعلى بعد عشرين متراً تخفيهما تماماً. يحتفظ ريبيرو برباطة جأشه خلف القناع العظمي الشاحب، المستدير تقريباً، ذي الشعر الأشقر القليل. وتلوح البندقية بين مخلبيه كهرواة رجل بدائي.

– كيف حدث ذلك؟ ألم تكن في R؟

يتعجب لأنه تمكن من النجاة وبيانثي يؤكد:

– في R كنت! لكن هذه ليست ساعة الحكايات.

في صوته نبرة غطرسة. يقول ريبيرو بحقد غامض:

– تتحدث كمن أدى امتحاناً لدرجة حكمدار واشترى الأشرطة بالفعل. لكنك واهم! جميعنا هنا أدى الامتحان لرتبة ميت.

– إيه؟ أنا لم أفكر في الترقي؛ لكن إذا نجونا من هذا.. .سيكون الأمر سهلاً!

-متقدمون لامتحان درجة جثة وناجحون.

يضحكان وكل منهما تنتابه رعدة حيال سماع ضحك الآخر. ريبيرو يضيف:

– أنا كنت في أنوال. لم أذهب إلى R. فأنا من أفراد أركان الحرب، بواق. ذهب آخر إلى R ومكثت في أنوال مع بقية الفرقة. حتى الآن لم يصبني سوى عيار في بطني، عيار سطحي لم يصب اللحم كثيراً. الأمعاء سليمة، وأتبرز بلا مشاكل. وأنت؟

– اللعنة، ما أثقلك! ليس أوان الحكايات!

بيانثي يبصر جانب انحدار الأرض. يهيم الجنود على وجوهم بهمهمات مترددة. ريبيرو يفسر:

– وضعنا هنا سيء. هنالك دوريات مغربية راكبة وهؤلاء يجدون في إثرهم. أتسمع "المدفعية"؟ لا بد أنهم ينقرون الأرض على مسافة خمسين

خطوة من هنا، أمام المنحدر.

ينهضان مقرفصين ويركضان وركبتاهما في صدريهما. بيانثي يتبع ريبيرو. والضوء الشديد الآن يطاردهما: وظل جسديهما يخيفهما أحياناً. طفل مغربي يظهر فجاة. ست سنوات أو سبع، أسمر، ذاهل، يرتدي جلاباً يسقط فوق قدميه الحافيتين. بيانثي يتوقف حين يسمع صراخه، لكن ريبيرو يتقدم وحذاء الميدان الثقيل ذو المسامير يغوص في بطن الصغير الذي يخر ميتاً. بوحي غريزي، ينفصل بعضهما عن بعض بتكتيك حرب العصابات في انتظار المزيد. يرتقيان منحدراً هيناً. ينبطحان مرة ثانية ويزحف ريبيرو ويرفع رأسه في حذر ثم يتقهقر مسرعاً.

تفوح رائحة روث متحلل. ينتهي المنحدر بجرف غير متوقع، وأسفله، على بعد مترين، عدد من الجثث تعريها عجوزان بمهارة متعجلة فيما يدخن مغربي متقدم في السن نارجيلة "كِيف". إلى جانبه بندقيتان مصطفتان. يلاحظ ريبيرو أن ذراعي الإطلاق إلى الخارج. ليس بهما طلقات. ينتظر بيانثي أمراً من ريبيرو، وهذا يشير إليه بإيماءة أن يتأهب. يطغى على وجهيهما تقلص حيواني، وحشي. خنابتا الأنف تتشممان الدم الذي مازال يجري في عروق المغربي. يثب ريبيرو ويسقط فوقه، يحاول المغربي النهوض ويخفق بجلابه الأزرق في ارتعاد شديد. تصرخ العجوزان وبيانثي يطلق النار على إحداهما فتخر إلى جانب البندقيتين. ريبيرو يسحق شدقي المغربي بقدمه لينتزع السونكي من صدره، لكن حين يهم بيانثي بالتصويب ناحية العجوز الأخرى تنقض فوق ريبيرو بمدية من مدى ميخالا وبعد أن تصيبه تفر صائحة. يصطادها بيانثي بعيارين، مازالت تتحرك: يسرع ريبيرو إليها وظهره مخضب. يغرس البندقية بالسونكي في المرأة الجريحة ويسحب واحدة من البندقيتين المهجورتين ويستجمع قواه ويهوى على العجوز بضربة رهيبة بمؤخرة البندقية لكنها تتملص منها. تنشطر البندقية

شطرين على الأرض من مقدمتها. يعود ريبيرو محدباً فوق أحد جانبيه. يقفز بيانثي إلى أسفل ويطلق عياراً ثالثاً. ثلاثة أعيرة من أجل هذه العجوز البائسة! يشحب لون ريبيرو. وبيانثي يسأله:

– أهي إصابة غائرة؟

يلتفت ريبيرو إلى ظهره قائلاً:

– انظر، أعتقد ذلك.

يكتم أنفاسه ومن الجرح ينسال زبد أحمر كثير.

– هذه هي النهاية. أطلق رصاصة على رأسي واذهب ناحية هناك، أبعد ما يكون عن الطريق، دون أن تغيب عنك أعروي أو طريق زلوان. هناك، ستنجو، يا رجل، إذا تمكنت من الفرار من المغاربة أو من الإسبان. أطلق عياراً على رأسي. لكن قبل ذلك، اقضِ على هذا النذل وإلا سوف يصل إلى البندقية.

يعود بيانثي إلى الرجل بوثبة. يصطدم بتعبير الرعب في وجه المغربي، الذي ينظر إليه بعينين زائغتين ويتقيأ وخده إلى الأرض، فوق يده. بيانثي ينتزع مديته ويعاود غرسها في حنجرته مقاطعاً عبارة مرتعشة للمغربي أكملتها شفتاه بلا صوت:

– أنا صديق...

ريبيرو لا يكاد يتكلم لكن صوته يتردد، دون وهن، قوياً وجافاً:

– أطلق عياراً على رأسي يا بيانثي!

-سوف تعالج يارجل. حالات أخرى عولجت!

-هيا يا رجل! إذا كنت تقدرني، أطلق علي رصاصة. إنها النهاية، ولا أرغب في مزيد من الآلام. إن سألوك عني، ها أنت ترى ما حدث. كنت دائماً رزينا، ولا أقول إن الآخرين مخنثون، رغم أني حملت أحدهم على كتفي كانت التوت قدمه وظل يبكي في الحفرة. كان معه مشطا ذخيرة

ومسدس في يده. ولكن، فيم يهم؟ اجهزوا عليه أيضاً ولاجدوى لشئ. ليغفر الله له لو أنه يغفر للمخنثين.

أخذ صوته في الخفوت وفقد ريبيرو وعيه. بيانثي يخاله مات ويخرج من جديد ليواجه السهل، مستكملاً ذخيرته بطلقات سلاح زميله. لكن صوت ربيرو يسمع من جديد وبيانثي يتوقف، يعود إلى جانبه، يشده إليه شئ لا يستكهنه ويثير ضيقه. ينهض الجريح ويزأر:

– ألن تقتلني؟ أيؤلمك قتلي؟ احملني معك إذن. لا داعي لأن تحملني على كتفك، وإنما عليك أن تساير خطواتي وتدعني أستند إليك.

ليس في وسعه النهوض، لا جدوى. الضوء ثقيل كذهب منصهر فوق الضلوع. والجرح حارق. يركض خيل في بعد مبهم، وتسمع طلقات، شحنات كثيفة. ريبيرو يجلس ويزحف ويأخذ البندقية:

–هيا، اذهب! لا تتوقف عن العدو حتى أشجار التين الشوكي تلك؛ بالقرب منها في وسعك الاختباء حتى هبوط الليل. أضمن لك الوصول.

يخرج بيانثي ويزحف زميله، يستبين في نهاية الأمر ظله الملتصق بالأرض. لم تسمع له شكوى. يسمعه بيانثي وهو يطلق النار على فترات منتظمة، سريعة. بعض الطلقات تمر عالية وأخرى تنقر الأرض على مقربة منه. يرتاب من أنه ربما يطلق النار عليه؛ غير أنه حين يرجع البصر يرى ظهره ويرى أنه يفتح النار على جماعة من الفرسان. وأعيرة هؤلاء المصوبة نحو ريبيرو تمر بعيدة. يداخله شعور مباغت بالعرفان ويقول وهو يومئ كالسكارى: " كلهم يطلبون نفس الطلب. عيار في الرأس! كيف يطلبون ذلك من رجل! ".

يحمل في جيب سترته عياراً نظيفاً، براقاً، مصقولاً ومذهباً كقطعة حلي. عيار في الرأس سيطلقه هو على نفسه. وإذا كانوا سلموه ذلك العيار ليطلقه على "المسؤول عن هذا"، فإن بيانثي مسؤول مثل ريبيرو وأتائو وبيكيراس. جمعيهم مسؤول، لأن أي رجل يساوي أي رجل آخر، و إذا قال أحدهم "نعم" بوسع الآخر أن يقول "لا". ثم ماذا؟ الواقع أن جمعيهم قال "نعم" دون أن يعوا ما يقولون، والآن، هاهم يطلبون عياراً في الرأس، عياراً لم يجدهم في حينه كي يتفوهوا بكلمات متعقلة. وقع ركض الخيل يسمع قريباً منه، فينحرف عن مسار الطلقات. وهكذا، رغم أنه لا يراها ترتشق في الأرض، ولا يعرف من أين تصدر، أو من أين يصل إليه طنينها، يسمع قرقعة على فترات متباعدة ويعتقد أنه يرى كيف تقترب الفصائل المغربية، الرشيقة، وكيف يلهث الخيل. تؤلم ظهره يدان تقبضان على حزامه، مرة أخرى الخطاف المرشوق الذي يخترق قفاه، فيخفق قلبه في حمية وحشية، في انقباض عميق، على وشك الخروج من حلقه ممزقاً وسط دفقات من شئ له مذاق البوتاسا. يجري الآن بلا هدف، ولو أن غريزته تدفعه إلى الحيد عن السهل بلا وعي منه بنفسه، فيتقافز ويغز الخطا مدفوعاً بنبض خفي لم يتخيل وجوده. لم يعد ريبيرو يطلق النار. لا بد أن الفرسان قطعوا أوصاله بتلك النشوى السادية التي تتالق دائماً في عيونهم والتي لم ير بيانثي مثلها من قبل إلا في عيون الإسبانيات الماثلات أمام صورة المسيح على الصليب.

يرى نفسه في الظل الممتد، المنبسط. الجري جبنٌ. ريبيرو كان شجاعاً. وما الشجاعة؟ الخوف من الجري؛ لكنها، أولاً، الخوف منه كفعل سخيف. هذه الكلمات الثلاث: خوف، جري، سخف، تتصل الآن مثل هدير قطار مغاير ورتيب. يجري، يجري؛ يصل إلى حافة، ودون أن يرى ما في قاعها

يقفز ويسقط ويجر خزينة الطلقات التى يحملها على ظهره على المنحدر. أسفل، ظل موات، الغربان متخمة -غربان دائماً! -وخنزير يفر مزمجراً وفى فمه عضد بشرى.

المسلمون واليهود لا يأكلون لحم الخنزير؛ لكنهم يغذون تلك الخنازير الآن بلحم بشرى ليبيعوها فيما بعد لموردى الجيش أو للكتائب مباشرة. يبدو أن ثمة قبائل قريبة وبيانشي يود الخروج من الوهدة والصعود من هناك والفرار. بعد أن شاهد الخنزير، يشعر بحاجته إلى هواء نقى وإلى ضوء الصباح. الموت هنا فى القاع، وجبةٌ للخنازير، مصير لا يسعه إلا الخيال المعذب لواحد من أولئك الممسوسين الذين يخلص القس أجسادهم من الشياطين.

الوهدة تحتفى به كسجن. يظلم فكره وروحه؛ يختنق المرء فى ذلك الشق، ويرسخ نطاق المستحيلات هناك فى الخارج، عند المنحدرات الرمادية الوعرة، فيؤلمه الآن مثل ضمادة فولاذية شدت إلى القلب. وينخسه خوف من أن يسقط جزء من السفح ويسحقه، أو من أن يجتمع المنحدران فيدفناه حياً. تنتابه مخاوف غريبة؛ وحين يجرب البحث عن منفذ ويرى فوقه أن الوهدة تضيق وأن المنحدرين قائمين رأسياً، يصرخ ويرتد مذعوراً.

فى نهاية الأمر، حين يستطلع السهل زاحفاً، يرى جنوداً عزلاً يعدون نحو أعروي تشدهم إليها بقعة محطة القطارات البيضاء البعيدة والظلال الشرسة للحانات بين المحطة والمحصن. حول التل هنالك ما يشبه السوق: محال مغربية، خصاص ارتجالية إلى جانب المحطة، كتل ضخمة ذاتية الحركة -خيل، مدافع- بمعزل عن قذائف أعروي. أولئك الفارون ذاهبون إلى

حتفهم؛ لكن آخر منظر لأعروي، الحصينة والصامدة حتى الآن، سيكون خير عزاء لهم. يريدون الموت وهم ينظرون إلى المحصن الإسبانى متوهمين أنهم يقدمون شبابهم غير المجدي فداء لشيئ أو لأحد. يفرون، يسقط بعضهم فوق بعض، يتعثرون ويتراجعون ويواصلون الفرار في جنون. إلى جانب شريط القطار، هناك، على طريق السيارات الموازى له تقريباً، يتكوم الموتى. تتصاعد من بينهم، في تداخل المسافات، الرائحة الفاسدة وموسيقى دفوف ومزامير كثيفة وبطيئة.

بيانثى يعود على أربع إلى الوهدة رافعاً ركبته المصابة عن الأرض ويعرج ككلب، ثم يترك جسده يسقط من المنحدر. لهذه الوهدة الآن ألفة الملاذ. يختبئ ما وسعه في حفرة خلفتها أمطار الشتاء. الأرض جافة ويغطيها غبار رقيق. يحس بالتعب. عبثاً يحاول جمع شتات فكره. يلمح شيئاً كبارقة في ظلمة رأسه، والموت آتٍ دون أن تضيئ النار كل تلك الرؤى المبهمة التى يحدسها.

يتحسس وجهه المنتفخ، خده لم يزل متورماً واللثة تنزف من رجع مؤخرة البندقية، وجبهته متربة؛ وملمس كالفلين، بارد، بين أسنانه التي لا تنطبق لأن شيئاً يحول دون حركة الفكين. الشق الصغير والرأس يسمح له بالاختباء جالساً. والوهدة، وسط السهل الذى يطلق على امتداده أصداء قتال متقطعة، هي الحافة التى يبصر منها الانسجام الذى تخبئه في أحشائها الأرض التى يمور ظهرها بأهواء البشر. يفكر بيانثي على نحو مبهم. نحيا فوق سلام الموتى. والأديم ليس سوى تراب من ماتوا، الزهاد وحدهم وعوا ذلك جيداً. نحيا فوق الذكرى والتراث، ونمدد سلسلة بالغة البساطة من الآلام والموتى دون أن نلتفت إلى مغزاها الصامت، إلى تلك الحكمة التى تقدمها الأرض والتى هى كل حكمة العالم. الإنسان الضعيف يتحول إزاء هذه التأملات إلى مهوس بالنفي؛ أما القوى فيضحك ملء رئتيه ويتبنى

مثلاً أعلى نبيلاً حسب طبيعته، ثم يجرب فرضه متوسلاً تلك الوسيلة المعصومة من الخطأ التى هى الحب. فى إبهام تلك الحدوس، تنتاب بيانثي مشاعر حب نحو الأرض كمشاعر العرفان التى داخلته من قبل نحو الحصان الميت: حب هو تجانس طبيعي، كونى، من الأرض إلى الأرض. لا يكره أحداً، لا المغاربة ولا الإسبان المتسببين فى هذه الكارثة. طوال الليالى السابقة، وتحت إعراض النجوم المتناغم، تعلم أن ذلك التناغم المُعرِض ضرورى كى نتمكن بلا خطر من مواجهة وتمثل جوهر الأهواء التى تحكم العالم، كى نتمكن من احتوائها دون أن نتوقف عن الشعور بها حولنا ومعايشتها. يجهل كنه حدوسه، لذا ليس بوسعه أن يخرج منها بنتائج عامة. لكنها تحتدم فى ذهنه وتجرب التجسد والوقوف على قدميها.

النوم؟ مرة أخرى النوم؟ التفكر فى غير المحدد، الخوض فى التجريدات يعنى استدعاء الحذر، تحت الجوع وألم الجروح، الحذر الأقرب إلى النوم والموت.

– من أنت؟

شخص ما يسأل ثلاث مرات أو أربع فوق رأسه:

– من أنت؟ ألم تعد تدرى من أنت؟

تمر عدة دقائق:

– سأضطر أنا نفسى أن أقول لك إنك بيانثي، من السرية الثانية، الكتيبة الثانية، الفرقة 42.

يود بيانثي أن يفتح عينيه. يمر مذنب سرعان ما يصير سهماً نارياً فى عيد قروى:

– نعم، أنا بيانثي، لكننى لم أفعل شيئاً. أنا... – يحاول الاعتذار.

– لاتبال. الخنازير هى التى تأكل الجثث؛ لقد رأيتها.

– وأنت؟ من تكون؟

– الرب. أنا الرب. ألا ترى ذلك فى جلابى الجديد، فى البرنس الأبيض؟

– الرب إسباني.

– أصبحت مع المغاربة. الرب دائماً مع الأقوى.

– كلا. هذا ليس صحيحاً.

– لا أحد يكلمنى بهذه الوقاحة. أقول لك إننى صرت مع المغاربة. أترغب فى عقد صفقة؟

– أية صفقة؟ التى كان يتحدث عنها الشيخ جامع حداوى الخيل؟

– بالطبع. إذا لم يكن معك ورق رسمى، لا يهم؛ أحضرت كل شئ.

– بأية شروط؟

– أنت ميت حتماً. لكن: إسبانيا ستكون وفية لك. ستضمك إلى جوقة الجنود من شهداء أداء الواجب.

– اللعنة!

الرب يحك رأسه فوق العمامة ويزمجر:

– عليك!

يستيقظ بيانثي وفى الحال يعاوده الإحساس بأنه ينزلق فوق صعيد الحلم الوثير. لا يهم. لم يعد يخشى من أن يصعقه اتصال ذينك التيارين المغناطيسيين تحت الجبهة. نفحه حبه للأرض حدوساً جديدة، من بينها حدس النوم. النوم أو الموت. سواء؛ وهما فى نهاية الأمر: الاسترداد البشرى للمادة فى الكيمياء النشطة للأشياء الجامدة.

يغالبه النعاس وهو يسمع وقع أقدام وأصواتاً. أعلى الوهدة، يقترب جنديان. أحدهما حافي القدمين: والآخر يلبس فردة حذاء برقبة أسود ضخم في إحدى قدميه وفي الأخرى، فردة صغيرة بلون الجلد. ويعرج. في وجهيهما غير الحليقين ارتخاء متردد ومتغاير تحت محجريهما الغائرين وقناعيهم الأصفرين الملطخين بالحمرة. وهما، من رأسيهما إلى أقدامهما، بقعتان كبيرتان من الطين الجاف ذواتي وصلات معدنية بين الأربطة. يتحدثان دون أن ينظر أي منهما إلى الآخر أو ينصت إليه.

– زلوان سقط في أيديهم، والناضور. أنا سأتجه إلى "كابو دي أجوا" ومن هناك سأعبر المحيط إلى جزر الكناري. الجنرال N كان غائباً عن المحصن! والسرية الثانية توقفت ناحية مورد الماء. رأيت الرائد يتعثر وسط الحجارة ويسقط على وجهه فوق الأشواك. والجنرال في الداخل يمشط شعره! سأحطم روحك! سأشج رأسك! يابن البغي! أهذه طريقة في الحديث وأرواحنا جميعاً بين نواجذنا؟

أحدهما يتوقف ويجلس:

– اسمع، إلى أين نذهب؟ ألديك أية فكرة؟ نسير ونسير.. .فضلاً عن ان هذه الفردة ضيقة.

من فردة الحذاء السوداء، بلا رباط –حذاء مهرج سيرك–، يخرج شيئ متجلط، بين الأسود والأزرق. قدمه. ومن ثقب لا يكاد يرى يستخرج نسالة من القنب دخلت مع الطلقة. يعاود النهوض ووجهه متقلص ألماً ويذهب ويجيئ في توتر:

– إذا بردت عظامي فلن أعاود الحركة.

يلاحظ الآخر بتعبير غبي:

– ساقك، لقد فقدتها بالفعل، ستسري فيها الغنغرينا.

– صه، صه! تتشمم الموت.

– أأتشمم؟ من الذى لا براه فى كل مكان. انظر إلى أعلى.

يرد الآخر بتأمل بطئ:

– أأموت ومعى تصريح بإجازة؟ فى حوزتى جواز مرور من "سلا". ليلة فى المركب وثلاثاً فى القطار. انظر إلى السترة التى ابتعتها. بأربعة جيوب. علبة سجائر ماركة ريفينيا وطابعا بريد ونصف علبة بنزين. هذا ما كلفتنى.

يبسط السترة بعد أن أخرجها من المخلاة حيث كانت مطوية. اخترقتها رصاصة وتركت تقباً فى كل طية. ستة وثلاثون ثقباً. خراب اقتصادى وإحباط لطموحاته فى النائق. يعاود طيها ويردف:

– عرضوا عليّ أخرى مقابل علبة الصفيح وطابع بريد وقطعتين من نعل حذاء للمرتق، لكن تلك السترة لم يكن بها سوى جيبان.

– أعطنى إياها! فمعى خيط وإبرة وأنت لن تستخدمها، لأن الغنغرينا ستصل إلى قلبك وستموت مشلولاً.

والآخر، بعينين زائغتين، يشقها مزقاً ثم ينظر إليها واقفاً. يشرع فى السير فى حزم إلى أعلى الوهدة تاركاً زميله وراءه. وهذا يناديه بصفير قصير ونافذ، لكنه لا يلتفت إليه. فى المرة الرابعة، يلتفت، وبعينين أشد زيغاً يصنع بذراعه إشارة بذيئة، دون أن يتفوه بكلمة، ويتابع سيره يجر ساقه على نحو أليم.

ينظر بيانثى إلى الآخر بلا رغبة فى الخروج من مكمنه لأنه يخشى من أنه فى هذا الشتات الدامي قد لا يتسنى لرجلين أن يدافعا عن نفسيهما مثلما يفعل رجل واحد.

الهياجات الخفية، التى تزلزل الهواء فى دوامات أو تكنس السهل وتمشطه بأسنان فولاذية عاتية، تنفض على الجماعات بلا رحمة، ومع ذلك، تحترم الجندى الهارب أو تزدريه، على يقين من أنه هو نفسه سيفنى فى

الرعب. لكن الجندي يبحث عن مخبأ ويكتشف بيانشي:

ـ ماذا تفعل هنا؟ أدفنوك هكذا جالساً أم أنك لم تمت بعد؟

يضحك ثم تتقلص عضلاته فجأة، يرفع كلتا يديه إلى بطنه. يسأله بيانشي:

ـ أأصابوك في بطنك؟

يوافقه الغريب. يتهالك جالساً ويردف:

ـ أجل. منذ وقت قصير. لكن الآخر لا يعلم ويعتقد أنه وحده المصاب. ولكن، لا أحد يدري. ففي نهاية الأمر، من المرجح أيضاً أن يموت بالغنغرينا.

يقول بيانشي محاولاً إرضاءه:

ـ أو ربما تنجو أنت ويموت هو.

ينفي الآخر ويتحسس جروحه ويضغطها ويتشمم أصابعه:

ـ أصابوني في مقتل!

ينظر كلاهما إلى الآخر في صمت. يشرح بيانشي أن جروحه ليست مميتة لكن الآخر، بشماتة خفية، يقرر:

ـ من يدري؟ والغنغرينا؟ امكث أنت هنا، فهذا ليس مكاناً سيئاً لكي... لأن الجياد هناك، أعلى، تدوس الموتى! ذلك آخر ما يمكن تخيله!

سرواله مخضب كأنما يتبول دماً. يبتعد قليلاً. يحل حزامه ويجلس القرفصاء. دم الأمعاء، أحمر وكثيف. ثم ينهض، بالغ الصفرة، وسرواله عند قدميه، ويرى بيانشي بطنه العاري. وبيانشي يرى فيه صورة هزلية للمأساة، بعضو ذكورته تحت البطن الممزق. لا يود النظر إليه.

حين يسمع صوت ارتطامه يغمض عينيه ويتضاءل في جحره. أعلى، في السهل، تركض جياد وتمر فوقها دفقات طائشة من طلقات المدافع الرشاشة. حين يفتح عينيه يرى في عيني الجريح حقداً دفيناً، مفترساً. لو أن

البندقية في متناول يده لما تردد في إطلاق النار عليه، على بيانثي غير المصاب بجروح مميتة. بيد أنه لم يعد يستطيع الحركة أو الزحف. تحول إلى أنشوطة حول بطنه. في العالم الفتي والمزهر، كل شئ يظل من أجل بيانثي، من أجل آخرين أمثال بيانثي. وهناك أعلى الوهدة، تشتد العاصفة. إلى اليمين، أعروي تطقطق. يبتسم الجريح ويهز راسه، و لا يعلم أفي يقين أم في حسرة.

حوافر خيل فوق الحجارة، أعيرة نارية كالسياط. وفجاة، تقتلع الأرض من فوق السفوح وشيء ما ضخم يتدحرج إلى أسفل وله صوت خرق القماش واربطة وصخور تسقط. يتأخر بيانثي في اكتشاف أنه جواد بفارسه، الجواد مبقور والفارس جثة هامدة إلى جانب الجندي الجريح. جلد جمجمة الفارس مشحم، وتبرز الجمجمة كل تفاصيلها بإصرار مثير للغثيان، كمومياء دعكت بالزيت. يتبع دوى السقطة صمت عميق. الجريح السابق يصيح في الفارس:

– يا رجل، إيه، يا رجل!

عينا المحتضر ناشبتان في السماء. سقط الجواد فوقه، و لا يظهر منه سوى جزء من صدره ورأسه.

– أنا أصبت في بطني. وأنت؟ لكن هذه السقطة لن تجد من يجرؤ على حكيها.

يرى بيانثي أنه يقترب. يريح راسه فوق الجواد ويتاهب للموت في وداعة غريبة. ثمة الآن رجلان يحتضران. الجندي ذو البطن الممزقة لا يموت وحيداً في وحشة الوهدة القذرة. ها قد عثر أخيراً على من يموت معه. في الصمت، تفيد الحشرجة المزدوجة في مصالحة النوم، فيستقبله بيانثي كموت أكثر عذوبة، بلا حشرجة وبلا دم.

حين يستيقظ، يرى بيانثي خنزيرين يقلبان تحت الحصان بخطميهما

الطويلين. بيانثي يرميهما بالحجارة. لا بد أن ثم خيمة قريبة. يلاحظ الظل ويقدر أن الوقت تخطى منتصف المساء. قضى الجنديان نحبهما وتنقص الجندى المصاب فى بطنه إحدى قدميه.

السكون لا يسبر غوره والضوء لا ينفذ إلى الأشياء، وإنما يقف واهناً عند سطحها. السماء بعيدة. وحشة الوهدة تذكر بأرض المقابر المفتوحة، البرية، النيزكية الضاربة إلى الحمرة، البائسة. إلى أعلى، يرقد السهل. فى الصمت تأتى أصوات كنعيق الطيور الجارحة. تتسلق السفح وتطل إلى أعلى. طابور طويل من العجائز يعود إلى الأدوار بالغنائم يحرسهن بعض المغاربة. يعود بيانثي إلى الوهدة، يفتش الجثث. إلى جانب سرج الحصان ثم زمزمية وبداخلها يشدو الماء واعداً. يشرب فى هياج وسرعان ما يتعرف مذاق البول. يصعد ثانية.

تشحب السماء ناحية الشرق، والسلام هو سلام يترعه الغضب وتعمره عيون مترصدة. حتى أعروى، ليس السهل ابيض أو جيرياً أو جافاً كسهل يستيتين. تكثر الشجيرات و الأعشاب القصيرة. الرتابة الفجة السابقة آخذة فى التلاشي من الطبيعة كوعد بالخلاص. تحت وطأة الحمى التى تعود مرة أخرى، والإنهاك العضلى والجروح -خاصة جرح الركبة الملتهبة- يشعر فى معدته بجفاف الجوع الإسفنجى. يطلق بيانثي بصره على مستوى السهل ويشق الطريق المتخيل الآمن. سيلف حول المحطة ناحية اليسار ويمكنه فيما بعد أن يحتمى بحاجز شريط القطار ويعدو بلا خوف صوب زلوان والناضور.

(١١)

• لدى الإنسان الحبيس، السجين، أرق صورة للحرية هي الريح. وعند بيانثي، الضال فى متاهة بؤسه تحت السماء، فى السهل المزروع بالجثث، الحرية هى البحر الذى أحس باقترابه فى الظلال، قريباً من الناضور، من العبق الطازج والنفاد لشاطئ وأحياناً بهمس غابة أو حفيف أوراق يشفق بها النسيم. الأمواج تطرقع خلف المنزل الذى لاذ به البعض إثر شتاتهم المفزع من الناضور. شيخ من المدنيين، بعض رجال الحرس المدنى، وعشرون جندياً أو ثلاثون من مختلف الأسلحة.

نوافذ وأبواب بلا خشب تنفح البناية هيئة موحشة. تعرضت للنهب قبل مجئ تلك الحامية الضئيلة العدد لتعتصم به. جاء بيانثي عندما بدأ إشراق الصبح ودار حول البناية ودلف إليها من شرفة منخفضة. فى الداخل، ألقى بنفسه فى غرفة خلفية تلطخت جدرانها وأرضيتها بالدماء ونقرتها أعيرة البنادق. الوحشة والسكون أشاعا فيه رهبة.

حين سمع وقع خطا فى الطابق العلوى أحس بأن هنالك من يرافقه. حين كان يرتقى الشرفة سمع أغنية إسبانية، ربما كانت أغنية من بلنسية أو شيئاً من قبيلها. كانوا يغنون بنبرة شاردة ولكنه كان الصوت الرهيف الناجم عن السهاد. فى الغرفة كان هنالك مدخل بلا باب خشبى يطل على تمام الضوء، أطل منه بيانثي فى حذر. حوش صغير. فى أحد الأركان، كانت ترقد، أو تتحلل، ثلاثة أجساد جامدة. فى الركن المقابل، جندى مقرفص يفتش في روث خيل ويفصل بعناية حبوب الشعير التى لم تهضم.

حين رأى بيانثي، نهض:

– من أين دخلت؟ من أين جئت؟

– من R.

– اللعنة، لا تكذب! هناك لم ينج فار. أمررت باعروي؟

– أجل.

صمت. يجلس الآخر القرفصاء مرة أخرى ويحك ساقه. ثم ينزع من باطن قدمه شريحة ضخمة من جلده، متيبسة، كخيشوم سمكة. يتركها. يرفع إلى فمه حفنة من حبوب الشعير التى فصلها ويسأل:

– أمعك ما يؤكل؟ لا؟ فيم قدومك إذن؟ اصعد وقدم نفسك للرقيب.

يقدم إليه زمزمية يأتى بيانثى عليها. يردف الآخر:

– من ذلك السلم. لا أصعد معك لأننى فى نوبة حراسة.

– حراسة؟

– أجل، أحرس تلك الشرفة التى دخلت منها. لكن، لم يتأخرون فى أعروي فى الانسحاب؟ نحن سنقاوم هنا حتى مرور ذلك الجيش، لكن الطعام نفد والذخيرة كذلك.

يصعد بيانثى دون أن ينصت إليه. فى الجزء الثانى من الدرج يتوقف ويلتفت ويقول:

– أتنتظر أن ينسحبوا؟ من أين سينسحبون؟

لكن الجندى حمل بندقيته وذهب وهو يمضغ إلى موقعه عند الشرفة. يواصل الصعود. إلى اليمين، فى غرفة صغيرة يصلها الضوء عبر كوة داخلية، يسمع أنيناً. جسد ممدد على جنبه الأيسر، ونصف وجهه السفلى مهشم وملتهب وبه تقرحات كبيرة وكثيفة فوق بقعة من الدم. يغمض عينيه ويتابع سيره. جرحى آخرون، بعض منهم على قدميه، يسير كالسكارى.

– تمام يا أفندم!

يحددون له موقعاً للدفاع. يباغت بيانثي تماماً، فلا يعي جيداً ما كان من قبل ولا ما هو كائن الآن ولا مبررات وجوده بين جدران وسيره فوق بلاط. ليس شعوراً بالأمان، بل هو إحساس مبهم بالحبس. من قبل، كان الريف يمد أمامه، في كل مرة، ألف طريق للفرار والنجاة. أما الآن فجاءت الغرفة والممرات والاصطدام بالأوامر العسكرية لتصور اليأس والوحشة في مربعات وأشكال هندسية، ولتصنف إمكانات النجاة في خانات. قطعت السهل القاحل بادرة مدنية؛ لكن الناضور، كأية مدينة تعرضت للسلب حديثاً، تلون المأساة بأصباغ أشد قتامة. في قلب الطبيعة، ليست للموت هذه الأهمية. في الريف، تحت السماء، الموت مضمر وبديهي في كل شيء وعلى نحو وادع وعذب. أما المدينة –على طرف النقيض– المليئة برموز الحياة، والتي أنشئت تحديداً من أجل الحياة، فإنها تعزز ما في الموت من إظلام وقدرية. وبيانثي يداخله خوف أشد من ذي قبل وشعور بأنه حبيس ذلك الخوف كمن حبس في قفص.

الطلقات في الخارج لا تكاد تسمع. بين حين وآخر، تسقط في صخب قطعة من جير الحوائط. ينجحون في إدخال الطلقات من النوافذ. سال شيئاً –لا يتذكره جيداً– ورجل من الحرس المدني يجيبه:

– هذا الذي رأيته إلى جانب السلم مصاب وصل هذه الليلة زحفاً وتمكنا من حمله إلى الداخل. حطم المغاربة فكه بالحجارة ليستخرجوا الذهب من أسنانه. لم يعد له فم، بل عجين من اللحم والعظم. تعرفت إليه

في زلوان وكان حمكدار بريد. فيما بعد ساتطوع في العمليات القادمة لأنني أقسمت أن أنتقم من عدد من لصوص الناضور كانوا يصطنعون أنهم أصدقاء لنا ورأيتهم في الكنيسة يصلبون الجنود كما صلب المسيح، على أحد الجدر. ساعود متطوعاً.

يهز بيانثي منكبيه. ورجل الحرس المدني يصر:

- ألا تصدقني؟ ساعود وإن فقدت كل شئ، لأن ملف خدمتي جيد وأحظى باحترام رؤسائي؛ لكنني ساعود متطوعاً مع أية فرقة وساتخلى عن راتبي، ثلاثمائة وخمس وسبعون بزيتة، وأتحمل الجوع والقمل.

يدنو بيانثي من النافذة جاثياً على ركبتيه ويرفع بندقيته. رجل الحرس المدني ينبهه:

- لا خوف الآن بعد صخب ليلة امس. تلقوا ما يستحقونه وهم الآن يعالجون جرحاهم أو يصلون صلاة الضحى. في كم معركة شاركت؟ أنا شاركت في سبع وأربعين، بحساب هجوم واحد فقط من ثلاثة أو أربعة كل ليلة. أعتقد أنهم سيمنحونني وسام صليب آخر بمكافاة مالية، لكن شيئاً واحداً يشغلني. شئ واحد يحرمني النوم.

- وما الذي يحرمك النوم؟

- كلا! لا تبادل إطلاق النار ولا صرخات الجرحى تؤرقني حين يحين موعد راحتي. لكنني افكر في كل هذه البلبلة ولا اجد احداً يوصي بترقيتي ومنحي وساماً. من سيضيف كل هذا إلى سجل خدمتي؟ من سيدرجه في الأوامر؟ وبأي ترتيب؟

يتحرك قفزاً، بسترته النظيفة والمشدودة جيداً إلى ظهره. ينهض بيانثي فوق هاوية البؤس والخسة الأخلاقية اللذين يشعر بانه غارق فيهما ويلعن لأول مرة منذ أن خرج من R. حينما كان وحيداً في السهل، في الوهاد، منعه من ذلك رعب خرافي. في الغرفة المجاورة، يقوم بالحراسة جندي الحرس

المدنى ورقيب بدين، ذو فودين طويلين وعليه آثار هزال الجوع والأرق. وهو يتكلم بلا توقف ومن خلال صوته يبرز وجهه المحتقن. يكرر فى إصرار رتيب عبارة "كما ترى" ويسكن الحرف الأخير:

– وقلت لضابط الإمداد والتموين: "من يذهبون إلى مصنع الدقيق فى حاجة إلى خمس عشرة دستة من البسكويت"، كما ترى. لكنه كان يطلب إيصالاً موقعاً من الرائد. والرائد، كما ترى، كان قد مات. حينئذ قلت له إننى أرهن مرتبى مقابل البسكويت وعدة كيلو جرامات من السكر وقهوة. كما ترى، الضرورى. والمغاربة يقتربون والضابط يرفض. بعد ذلك، كما ترى، اضطررنا إلى الفرار وكل المؤن أكلها المغاربة.

– من كان ذلك الضابط؟ – سأل رجل الحرس المدنى بمظهر من يريد أن يوقع عليه جزاء.

– لن يفيد. فقد دفع حياته ثمناً لذلك، كما ترى. لكن،هنا، فيما بيننا، أقول لك إن ذلك الانسحاب خلص أكثر من ضابط إمدادات من السجن الحربى. يُنسى ما فات ونبدأ من جديد! وأنا أعلم، كما ترى؛ أعلم عن يقين، كما ترى، أن أكثر من ضابط من ضباط الإمداد والتموين جاء إلى هنا يغطى مؤخرته بورق صحيفة "برقية من الريف"، والآن يمتلك ثلاثة منازل تدر عليه ذهباً. كما ترى.

الجوع متراكم منذ ثلاثة أيام لكنه جوع تام، مطلق، بلا ظروف مخففة. الخطر محدق. ليلاً تتوالى الهجمات. ومع ذلك تدور حوارات غير مكترثة وتقال آراء جد غريبة عن الواقع القريب حتى إنك لتفكر: أأصابهم عته أم أنه كابوس مترع بالهذيان؟

بيانثى لم يعد يردد اتهامه المفضل الذى قد يناسب اللحظة على خير وجه. هذا البيت الزائف، بين مصنع وثكنة وسجن –يتوطد لديه الآن يقين بأنه مسجون مرة أخرى، محاصر– انتهى بأن أشاع الفوضى فى رأسه

البائس. حرس مدني، رجال مدفعية، مدنيون، مشاة مختلطون: وبقايا انضباط تناثرت شظاياه في المعسكر، وعليهم أن ينظموا ملحمة جديدة يكون خير شارح لها "ترجمان" في الأسواق الأندلسية أو مصور أيقونات.
انصرم اليوم في بطء. ثمة ماء، ولاشئ يؤكل. مكث بيانثي بجانب النافذة يترقب أي مغربي ليطلق عليه الرصاص. وعبثاً طلب أن يسمحوا له بالنوم شيئاً. يقومون على خدمة الحراسة ليل نهار. إطلاق النار نادر لأنهم، على الرغم من أن الأعيرة النارية تأتيهم في مجموعات مكثفة وتصطدم بالجدر وتنحت حواف النوافذ، لا يظهر المغاربة إلا نادراً. وحين يتلاشى الضوء، تصدر من الآكام القائمة في المواجهة، على الجانب الآخر من الطريق ومن ناحية شريط القطار، دفقات هوجاء لها دوي ناعم حول كل فتحة.

الرقيب "كما ترى" ينظم خدمات الدفاع عن الطابق الأرضي. في الخارج، عدد من الرشاشات يضيء أنجماً مختلفة فوق الآكام. بعض قذيفة تسقط فوق البناية دون أن تنفجر في معظم المرات. يفتح بيانثي النار على أية كتلة، لكنه سرعان ما يدرك أن ما معه من ذخيرة لا يتعدى علبة ونصف العلبة –75 طلقة– فيتوقف عن إطلاق النار ويجلس تحت النافذة ويصمت منتبهاً لطرقعة الرصاص. كل طلقة من الداخل ترج الجدر وتمر لحظة يبدو فيها المنزل كأنه يصدر صريراً تحت إعصار يضرب في غضب كل الأبواب الداخلية.

بيانثي يصمت ويغفو. يتذكر مشهد أعروي ليلاً. جنود هاربون باحوا له بأسرار فاضحة عن قادتهم. كانوا يتعجلون الإفصاح عنها –بين اللعنات–

قبل أن يداهمهم الموت. حملتان انتحاريتان إلى منابع الماء بلا نتيجة؛ وفتاة الحانة التي كانت تقطن خارج الحصن تذهب وتجئ بين الموتى ليلاً وتحمل جرتين أو ثلاثاً يومياً. وبالطبع، لم يكن كافياً لأكثر من ألف رجل. أضاف أحدهم قائلاً: "وذلك كي يتحملوا إلى أن يستسلموا. لأنهم كانوا سيستسلمون". أراد الجنود شن حملات بالمدى بلا أية غاية سوى إيجاد طريقة لترك ذلك الحوش البائس الذي كانوا يتفحمون فيه أحياء ومع هبوط الليل كانوا يخرجون في اتجاه زلوان في مجموعات صغيرة ثم يسقطون ممزقي الأوصال تحت حوافر الخيل وتحت الظلال الكثيفة. بيانثي لم يشأ التوقف، مر بالحصن من بعيد وجاوزه. نيران رشاشات أعروي أمست بطيئة أو كأنها متعبة، وكثيراً ما كانت تتعطل الماكينات. أما المغاربة فكانوا يترقبون: يقتصرون على انتظار خروج أكثر الجنود إصراراً أو، في نهاية الأمر، أن يخرجوا جميعاً أيضاً ليصطادوهم بسهولة. كانوا يغنون، يصيحون. وأصوات رجولية كانت تغطي السهل وتسب الجنرالN وتسخر منه لأنه حاصر نفسه في أعروي هرباً من القتال تاركاً وراءه الطريق مزروعاً بجثث الجنود. بيانثي كان يسمع أصوات المغاربة، نقية في الليل، من الآكام التي إلى يسار شريط القطارات، ويضحك أو يؤكد حسب النبرة الأصوات الموجهة للجنرالN. دون أن ينتبه، كان يشعر بالتماهي مع المغاربة فيما يخص الجنرال N. بعيداً عن الحصن، بعض دفعات من رصاص الرشاشات كانت تمر في شكل قوس إلى أسفل. كان يتحدث إلى جندي جريح جلس ليستريح ثم أصيب برصاصة جديدة في صدره فخر صريعاً والكلمة في فمه. فنهض بيانثي وواصل طريقه. مدافع أعروي نفسها هي التي كانت تقتلهم. كان ذلك بالغ المأسوية والبساطة حتى إنه لم يكن ثمة مبرر للقلق أو الركض كما في السابق. لن يصل إلى زلوان ولا يفكر حتى في الناضور حيث يقولون إن المغاربة سلبوا وأحرقوا كل شئ. تابع سيره تطن في أذنيه

آخر كلمات الجريح:

– لماذا؟ من المسؤول؟ أنت، أنا، الآخر؟ أهم هؤلاء الفتيان المنسحقون على الأرض كالعقارب؟

كان حكمداراً. التفت حينئذ إلى أنه حكمدار. بيانثي أردف:

– أيها الحكمدار، نحن أقوياء ولدينا أسلحة جيدة! لم يهزموننا أولئك القذرون؟ أنا أعلم لماذا. لأنهم على حق، ولذلك ثقله. لو أننا جميعاً نكون فى صفهم وتذهب إلى مليلة!...

– أنت مجنون. أنا لا أسمح أن جند...

بلا صراخ، بلا إيماءات، سقط، لبث هناك ووجهه إلى النجوم، وعيناه مفتوحتان. الشحنات تنقر الأرض على مسافة قريبة. شرع بيانثي فى السير فراراً من المسار الرهيب للطلقات الآتية بلا شك من المحصن والمصوبة نحو جسده. أمامه، تركض مجموعة متلاصقة قوامها أكثر من عشرين جندياً. انتظر بيانثي كى لا ينضم إليهم وفى الحال عاد صوت الضجيج المألوف فى أعروي تحت دوي مئات من حوافر الخيل. وفى أعلى أكمة ثلاثة أو أربعة من العساكر المغاربة الذين كانوا موالين لنا ثم فروا، الجالسين الآن فى وضع مريح، راحوا يصطادون الجنود الهاربين فيما انقض قطيع من العجائز على الجثث ورحن يخلعن ثيابها بسرعة وحذق، دون أن يكسرن زراً أو يلطخن ملابسهن بالدم إلا فى أقل الحدود. ثم كن يقربن كشافاً ضوئياً من فم الجريح أو الميت، وإذا كان يحمل ذهباً فى أسنانه كن يبدأن عملهن فى خفة بأن يحطمن أسنانه بالحجارة.

تمكن بيانثي من بلوغ الناضور دون أن يدرى كيف. امتطى صهوة جواد اضطر إلى تركه بعد قليل لأنه كان جامحاً: وبالقرب من القرية الصغيرة،

الجديدة والمتناسقة كمنتجع أمريكى، رأى جثثاً تتدلى من الأعمدة أو مرشوقة فى الأبواب أو ممدة على الأرض. اضطر إلى الدوران دورة كبيرة وبطيئة حول القرية، وحين بلغ شاطئ البحر شعر بإغراء القفز فى الماء والسباحة حتى الشواطئ الإسبانية، تلك الشواطئ البعيدة المفقودة وراء قوس الماء البعيد.

لكنه تسلل إلى مطحن الدقيق. كان بيانثي ينظر إلى البحر بلا عون، بلا غوث مهما يكن ضئيلاً: مركب مصفح، طائرة... ثم ما لبثت أن سرت شائعة: "سيأتى قطار حربي". وشريط القطار؟ ألم يقتلعوا القضبان؟ لأنه إذا كان ثمة قطار سيأتى فلا بد من إصلاح القضبان فى نفس الوقت الذى يتقدم فيه القطار؛ وفى هذه الحالة، من سيحضر الحفارين؟ سرعان ما تحسب المزايا والعواقب. بوسع القطار أن يأتى، لأن القضبان لا تزال لم تقتلع حتى بالقرب من الناضور؛ لكن المغاربة لديهم مدافع فى مرتفعات الجرجرة، فوق شريط القطار. وهى عشرة كيلومترات تسيطر عليها القمم التى إلى جانب القضبان وحتى مليلة. وعلى الجانب الآخر، البحر. لو أن القطار المصفح وصل إلى هنا ورفع المغاربة القضبان إثر مروره لن يستطيع العودة. لابد من أخذ كل شئ فى الحسبان. والسفن الحربية؟ لايوجد عمق كاف حتى "مار تشيكا" ولا تستطيع الإبحار. لكن، على الرغم من أن المنطق يستبعد إمكان مجيء القطار المصفح، تبقى فى الهواء فكرة الإنقاذ الآخاذة ويسمع صرير بعيد قد يكون صرير العربات المصفحة بألواح من الفولاذ والمزودة برشاشات ومدافع لحماية العربات.

الليل يحاصر مطحن الدقيق ويوجه إليها هياجاته. بيانثي لا ينهض. فيم يفيد؟ على أية حال، سيدافع عن هذه الحجرة المظلمة، متيقناً من أنه سيطلق الطلقات الخمس والسبعين المتبقية معه على من يجرؤ على تجاوز عتبتها. إطلاق النار يشتد فى الخارج. وحين يتوقف تسمع صراخات،

شتائم من تلك التي تتداول فقط في المغرب والتي تعلمها المغاربة منا.

الإعصار ولج المنزل؛ والأبواب -الخفية لأنها لم يبق منها باب واحد- ترتجف في خبط جاف وتدوي وتصطدم فيما بينها وتتدافع. سخونة كثيفة، غائرة ورطبة، كأنما توالي الفرقعات هو الذي أحدثها.

يظهر حكمدار:

- ماذا تفعل هناك؟ أأصابوك؟

ينهض بيانثي في صمت ويفتح النار على كتل تتحرك ناحية الحاجز. الرؤية أفضل الآن. تستبين الظلال التي تذهب وتجئ فوق ذلك الظل الآخر، الأقل عتامة، ظل الأرض. يطلق الرصاص بلا توقف. يذهب الحكمدار قائلاً:

- والقطار؟ أتسمع صوت القطار؟

عبر النيران لا يسمع إلا نبض البحر العنيد ضد الصخر. خلفية مسالمة، تعزز صخب الهجوم وتعقد الأفكار حتى تطل بها على هاوية الجنون السحيقة. ألا يوجد المزيد من الطلقات؟ محال المقاومة ليلة أخرى.

نحو الفجر، يفكر بيانثي في أنه لو لم يدخل مطحن الدقيق لكان الآن في مليلة. فراش وثير في المستشفى وماء عذب مثلج والأكل حتى لمس الطعام بالأصابع. لكنهم حين لا يخفون لنجدتنا فإن مليلة أيضاً سقطت تحت سيطرة المغاربة، لذا فالأمر سواء أدخل هنا أم أعروي أم وصل إلى مليلة. من الحجرة المجاورة يأتي رجل الحرس المدني ووجهه مخضب بالدم. تخفت النيران. يجلس على الأرض، ظهره إلى الحائط، ويومئ بلا اهتمام:

- لم يصيبوني في المخ.

لكنه يبصق دماً وينزف أنفه أيضاً. سترته الزاهية تلطخت كلها.

وأســفــاه! سترة جديدة. خلع طماقيه وحل رباط سرواله، لأن قلة النوم تسبب تورم القدمين والمفاصل. يكرر:

– لاشئ. لكن ميدالية التضحية فى سبيل الوطن لن يحجبها عنى أحد . أكثر من شهر حجزاً فى المستشفى سيسجل لى.

يصيبه دوار ويهن صوته. فى رشاقة زائفة ينهض ويذرع الحجرة متجنباً نطاق النافذة. يتمضمض بالماء ويبصقه كله دماً من فمه وأنفه. فى الخارج يستأنف إطلاق النيران فى جلبة تصم الآذان. من الناضور تأتى أفواج من المغاربة فى صخب متفائل وسعيد. يفكر بيانثي: "هذا أسوأ ما في الأمر، هذا ما يقشعر له البدن. يبدون كأنهم هم السادة" .

يعود رجل الحرس المدنى إلى موقعه فى الحجرة المجاورة ويأتى الرقيب "كما ترى" برفقة شيخ من المدنيين.

– تعلم من هذا الفتى الذى جاء من R سيراً على قدميه، كما ترى.

– لكن، ماذا سيحدث هنا، أيها الرقيب؟ ماذا يحدث؟ لقد ذبحوا زوجتى وأولادى فى الناضور: وسلبوا ممتلكاتى. وأنا الآن هنا. ماذا ينتظرنا ايها الرقيب؟

– المدنيون الآخرون الذين قدموا معك يحاربون في أسفل كالجنود المحنكين، كما ترى. هم أيضاً لديهم أسرهم، هذا قولي.

– لكن ماذا سيحدث؟

– لاشيء يارجل. هو أمر هين جداً. في غضون ثمان وأربعين ساعة إما ان نكون في مليلة أو متنا من الجوع أو يكونوا شقوا قلوبنا بطعنة، كما ترى، ليس أمراً معقداً.

يذهب. بيانثي، بإيماءة، يشير إليه بأن يجلس على الأرض ويشحن له البندقية. بما أن هنالك رجلين يمكن إطلاق النار بلا توقف. كم طلقة معه، مائة وخمسون؟ ثلاث علب ذخيرة؟ يبكي العجوز ويشحن البندقية على

نحو أخرق. كلا، يا رجل، خمس طلقات أسفل وواحدة في غرفة الاحتراق: أي ست طلقات. يجيد بيانشي التصويب على الهدف. ومن جديد تؤلمه كتفه ويؤلمه خده. في الغرفة المجاورة تسمع صرخة وشيء يرتطم بشدة. يرى بيانشي على الأرض جزءاً من ساق بشرية. البقية يحجبها الحائط. رجل الحرس المدني؟ يطل العجوز:

ـ أجل يا سيدي، رجل الحرس المدني. ماذا سيحدث هنا يا فتى؟ آه، يا إلهي! أصبحنا كالوحوش.

تخف النيران في الخارج. ومع ذلك يطلق بيانشي النار بسرعة أشد.

ـ أتجيد إطلاق النار؟

يومئ العجوز بالإيجاب.

ـ هيا، أطلق النار، وصوب دائماً على من يرتدون جلابيب زرقاء.

ينهض العجوز. يطل. يثب وثبة ثم يخر على الأرض وقدماه إلى أعلى. يرى بيانشي جبهته المثقوبة ويلعن. للحرب نواميس غريبة تتحقق دوماً، بدقة شاذة. تصفي الجبناء أولاً كأنما هم عوائق أمام بهائها الخاص والوحشي، وتحترم الجسورين والمغامرين.

عشر دقائق من إطلاق النار السريع، والمغاربة يعودون إلى مخابئهم، مخلفين وراءهم بعض القتلى. من البديهي أنهم لا يتعجلون الأمور وأنهم سينتظرون وسيصوبون نحو النوافذ من مواقعهم الحصينة، سينتظرون أن يجبرهم الجوع ونفاد الذخيرة على الاستسلام.

بيانشي يتوقف عن إطلاق النار ويحصي ما معه من طلقات. يعتبر

طلقات العجوز خير عون له. العجوز واقف على قدميه، لم يمت. يتقدم نحوه، يحشو البندقية، يطل بلا اهتمام من النافذة، يطلق النار مرتين، ثلاثاً. ينثال الدم على حاجبيه ويغطي عينيه. يجبره بيانثي على التراجع ويسلبه البندقية. سرب من الطلقات ولج من النافذة وانفجر في طوب الجدار العاري المتهدم. يتهالك العجوز في ركن، زائغ البصر، وإحدى عينيه شبه مغلقة. لا تسمع له أية شكوى. بعد ساعات، مات العجوز وشخص ما -هو نفسه؟- كتب بقلم الرصاص على الحائط، بجواره: "هنا قضى نحبه خوان جارثيا سولير، تاجر نبيذ من لقنت، بعد أن رأى بعينيه كل أفراد اسرته يقتلون بخصة". يحك بيانثي بظفره قوس حرف "الصاد" في الكلمة الأخيرة لتصبح "بخسة"، ويأخذ الطلقات التي كان يحملها في خاصرته. في وجود تلك الجثة في وضع الشروع في النهوض والتي تنظر بعين وحيدة مفتوحة، تخيم على الحجرة الآن وحشة لم تكن تلاحظ من قبل. يعود إلى النافذة، لكن عين خوان جارثيا سولير ناشبة في قفاه فلا يستعيد هدوءه. يمدد الجثة على الأرض ويقلبها على وجهها.

لا يحاول المغاربة الهجوم. من حين لآخر، يرد عليهم بشحنات صائبة. وهكذا ينصرم النهار. يمنعهم الجوع من الحديث، من حمل البندقية، من الوقوف. خمسة أيام بلا طعام، منذ أعطاه الشيخ الهارب رغيف الذرة. مع هبوط الليل، تقترن بالجوع قلة النوم. والرقيب، في حيويته الخارقة، لا يتحدث عن الطعام أو النوم. يذهب ويجيء، يتحدث عن وقائع كل لحظة وعن القطار المصفح وعن الجنرال N الذي سينسحب من أعروي

والذي من المؤكد أنه سيسترد الناضور ويتحصن بها. لكن بيانثي لا يلتفت إليه. ينفحه الجوع خموداً معنوياً أشد ويعلم كيف يواجه ما يرى وما يسمع. يحضر الرقيب ويطلب منه عشرين طلقة. بعد أن يعطيها له ينبهه:

- لم تعد معي سوى عشرين أخرى.

مستنداً إلى الجدار، بجانب النافذة، ينعس تحت الطلقات المتفرقة، السخرية والتهديد اللذين يأتيان من الخارج. يسمع أيضاً وسط الظلال داخل المنزل أنيناً بطيئاً ممتداً، زائفاً، لشخص فقد وعيه بنفسه. الجندي ذو الفكين المهشمين، ربما.

لكن الجوع، الجوع المتجسد في الظلمة، يعتصر بطنه، يطوي صدغيه كمن يفتل حبلاً حتى غار خداه فلا أحد يعلم هل تخرج لحيته من عظمه أم من جلده: الجوع يحرمه النوم. أليس مخالفاً للوائح أن ينام، الآن بعد أن عاد اتصاله باللوائح؟ لكن بيانثي يسلم نفسه للامبالاة ناعمة ومرتخية، لامبالاة مريحة كتابوت مبطن ووثير. عيناه المواربتان، إثر اعتياد الظلمة، تنظران في هوس إلى الباب، المتحرك في جموده كباب، لا أحد يمكنه أن يواربه أو يفتحه، بسبب ربلة ساق جندي الحرس المدني. ساق بضة، مكتنزة، بيضاء.

تمر فكرة كالبرق، وعلى الرغم من أن بيانثي يطردها، تخلف وراءها أثراً، بذرة. وبعد قليل، تنبعث من جديد وبيانثي، قبل أن يرفضها، يفكر: "أيصير الإنسان أشد همجية من الوحوش، لأن الوحوش لا تأكل بنات جنسها". ثم يتأمل: "غير أننا لو أمعنا الفكر، لوجدنا أن الأساس هو البقاء". يجرب رفض هذا الهوس رفضاً قاطعاً، لكنه حين يسقط فيه مرة أخرى لايملك سوى التفكر: "أسينتبهون إليه؟ بوسعي أن أقلب الميت على ظهره فلا أحد سيذهب ليرى إذا كانت سمانتا الساق سليمتين". في نهاية الأمر، يتسلل إليه والمدية في يمناه. كلما اقترب حفزته نشوى الأكل: لكنه،

على أعتاب الفعل، على مسافة قدمين من الجثة، يحبس أنفاسه. لا أحد في الحجرة المجاورة، النافذة مهجورة: لابد أنهم جميعاً هبطوا إلى الطابق الأرضي. يتقدم ثانية. صوب الجانب الآخر من الجثة، شخص يزحف أياً لكنه سرعان ما يفر في اتجاه السلم. بيانثي يتراجع، يحبس أنفاسه، يبلغ النافذة، يتهالك على الأرض ووجهه إلى الحائط. طلقات في أسفل، لم يزل شخص يئن أنيناً زائفاً كالأطفال حين يغالبهم النعاس. يسمع وقع ركض في أسفل ويستأنف تراشق النيران. يهم بيانثي بالنهوض لكن جسده يثقل عليه بشدة فينام وخده إلى الأرضية الباردة. هوس اللوائح يترع نومه بخطوات منتظمة وبصراخ الأوامر. صوت خمسين ضابطاً ورئيساً معاً يوجه إليه الأوامر. وبوّاقان أو ثلاثة يقلدون صياح الديك. يقول بيانثي:

– ثم ماذا؟ ما ينبغي أن نفعله؟

– ألا ترى أنك خلفت وراءك أكثر من عشرة آلاف قتيل؟

– بلى ياسيدي، وماذا ينبغي أن نفعل؟

– أمازلت تسأل ماذا ينبغي أن نفعل؟ الخطوة المعتادة، اللعنة! لو أنك سرت بالخطوة المعتادة في حينه لكان لنا شأن آخر!

مرة أخرى يقلد البواق صياح الديك.

– انتباه! بالخطوة المعتادة!...هوب!

الرؤساء والضباط يصرخون معاً، ويسيرون بالخطوة المعتادة في أماكنهم، كالخورس في أوبريت:

– تحيا إسبانيا!

بيانثي يرى السهل مغطى بالقتلى. عشرة آلاف، وألفان آخران في أعروي. عيون الرؤساء والضباط الخمسين تحدجه، تنتظر أن يردد الهتاف. وبيانثي، حين ينتبه، يسرع هاتفاً:

– تحيا!

ممدداً على الأرض، يرى في مواجهته انعكاساً له: منهكاً، خائر القوى، بائساً، محتقن الوجه. خزائن الطلقات والبندقية تعززان رسمه الهزلي، الذي لم تتبقَّ فيه أية بادرة شفقة: غاب التناغم عن هذا الألم وهذا البؤس، وتفاقم بعدهما عن أي احتمال أو أي زعم إنساني حتى إن الشفقة لن تبلغهما. يرى إلى نفسه في مباغتة وازدراء، خارج وعيه الجسدي بحياته. يتأخر برهة في تذكر أنه مستلقٍ، ممدد ووجهه إلى الحائط.

أما اليقظة فتمنحه شعوراً بالسقوط في بئر معتمة، مترعة بالهمس، بالظلمات الرطبة. في الحلم، كان يرى صورته تحت ضوء غير واقعي غير أنه أحياناً كان بالغ السطوع كضوء الشمس. والآن، وهو يستيقظ، يغوص في ظلال الفجر ويشعر كأنما يسقط في كابوس حقيقي. شخص يهزه:

– ماذا تفعل يا ثيرنيولا؟ لقد جاءوا حتى الباب وشاء ثلاثة منهم الدخول من النافذة. يبدو أن الجنرال N قد سلم في أعروي كل الفرقة، بلا سلاح، وقضى عليهم. جاء أكثر من عشرة آلاف مغربي من هناك. كم طلقة بقيت معك؟

– خمس عشرة!

-حين تنفد اهبط إلى صحن المنزل!

يأتي الفجر، ككل فجر، مُعْرِضاً وساكناً في شحوبه الصوفي. فيما بعد، تسقط الشمس على المنزل وتعكس ظلالاً ممتدة. تبحر نوارس في الزرقة وتقوم بصيدها الصباحي على مستوى الماء، حمائم رسمها تلميذ رسماً ساذجاً.

يفكر بيانثي في كلمات الرقيب. فيم الهبوط إلى صحن الدار؟ هل

يفكرون في الخروج والهجوم بالسونكي؟ ما عادوا يتحملون وزن البندقية ولا سيقانهم عادت تحتملهم. اعلى جبل الجرجرة، تسمع قذائف المدفعية، ناحية مليلة. أيقصفون القرية؟ شيء يتهدم في الطابق السفلي. بيانثي، واقفاً في النافذة، يفتح النار على المغاربة الذين يحاولون الاقتراب سدى. من النوافذ الأخرى، تطلق ستة أو ثمانية أعيرة أخرى، وعلى الرغم من أنها لا تصيب الهدف توقف تقدمهم. وبعد أن يطلق بيانثي آخر رصاصة يهبط إلى صحن المنزل. في أحد الأركان هنالك دلو ماء ينظر إليه بيانثي بلا اكتراث مع انه لم يجرب الماء منذ يومين.

جميعهم هناك تقريباً. الغائبون يحرسون النوافذ أو يتحللون فوق البلاط. يطلق المغاربة قذائف مدفع والطلقات وشيكة النفاد -بقيت ست أو سبع-؛ ومنهم من لم يأكل شيئاً منذ عشرة أيام. روث الخيل فُحص بعناية للتأكد من خلوه من حبات الشعير. ومع ذلك، هنالك من يريد مواصلة الدفاع عن النفس بالسونكي أو بالنواجذ. آخرون -ومنهم بيانثي- يرون انتظار الليل ثم الخروج تحت جنح الظلام صوب مليلة. لكن قذائف المدفعية تطن في مرورها وتتجه نحو البحر. لو أنهم أجادوا التصويب بقذيفتين أو ثلاث لما نجا فأر. واحتمال النجاة الوحيد الاستسلام وتوقع أن يكون الملل أصابهم بعد مذابح أعروي. يحتفظ كل منهم في أعماقه بشيء من الطاقة لكنه حين يرى وجوه الآخرين يهز منكبيه: "هذا أنكى من الموت"، ثم ينظرون بحسد إلى الجثث في الفناء.

- ينبغي دفنهم.

يذهب ثلاثة. الجثث كثيرة. علينا أن نشق أخدوداً ضخماً وليس لدينا ما نستخدمه. على معجن مقلوب كتب أحدهم بمسمار: "أنا من السرية الثانية واسمي رامير..." . ولم يكمله. يقول أحدهم مشيراً إلى أقرب جثة:

- هذا جاء هنا حياً.

وكمن يغالبه النعاس يقول آخر بصوت بعيد:

- كنت أعرفه. إنه راميرو إيثيسا جونثالث.

يجثو على ركبتيه وبنفس المسمار ينتهي من كتابة الاسم ثم يذهب. عجالة تأكيد البقاء هذه، بكتابة الاسم في أي مكان، هي أشد التهوّسات بؤساً وإجماعاً في الإنسان الذي ألفى نفسه بغتة أمام الموت.

فتحت الأبواب ونزعت مهمات الجنود. كيف حدث ذلك؟ حين كانوا يتشاورون في الطابق الأرضي رفعت الراية البيضاء: مزقة من قميص ميت. يرتفع صوت: لا تحطموا البنادق، لاتخفوا ذراع الإطلاق. قلق لحظي فيما يكومون البنادق بجانب الباب. بعد ذلك، بأمر من عدد من الفرسان المغاربة، يصطفون في جانب. بحساب من دخلوا في الأيام الأخيرة هم خمسة عشر أو عشرون.

بيانثي آخر من يصطف. يلتقط المغاربة البنادق ويعدونها دون أن يلتفتوا إلى الأسرى. فيما بعد، مجموعة تحمل شارة الشرطة المغربية تدخل الفناء، والجنود، بعد أن أصبحوا بلا أحزمة، في ذلك العري المنكمش والمجعد من الزي، يخرجون من فتحة شارع يحيط بالمبنى -أساس سور توقف العمل في بنائه-، بعد أن خضعوا للاستجواب:

- مريض؟

- لا.

- مصاب؟

- نعم.

- يمكنك السير؟

ثم يمر الأسير ويقف عند الباب الآخر مراقباً. بعضهم يكذب، بعد أن يتردد قليلاً، يتمتم مرعوباً بانه مصاب ومريض ظاناً أن ذلك سيعود عليه بنفع. من يقر بعدم قدرته على السير يقتاد إلى الفناء. وحين يجتمع هناك ثلاثة أو أربعة يسمع دوي شحنة طلقات. يرى بيانثي أنهم يعدمونهم رمياً بالرصاص وينبه قدر استطاعته اقربهم إليه. يذهب آخران إلى الفناء، ومن جديد تسمع دفقة سلاح. بيانثي يجيب قائلاً إنه جائع فقط وإنه ليس مصاباً أو مريضاً. بقع سترته تفضحه؛ لكنه يفسر ذلك بانها من أثر نقل الجرحى والقتلى. يعبر الشارع. سيكشفونني، سيأتون ليتأكدوا هل أنا جريح، وسأموت كالآخرين. كلما اقترب منه واحد من الوطنيين تعززت مخاوفه.

جالساً في الشمس في صف قصير من عشرة أمتار أو اثني عشر، يرى الآكام في المواجهة، و"القصبة" المشيدة للقوات الوطنية ويستخدمها الآن المتمردون مقراً للقيادة. جزء من الناضور يُرى إلى الخلف، وراء مطحن الدقيق، ويمتد مفلطحاً تحت الشمس في سكون ظاهر لا تعكره الخرق التي، من مكان إلى آخر، لا تغطي بعض الجثث. سكون طاغٍ كسكون ضواحي مدينة صناعية في يوم عطلة.

وقضبان شريط القطار تبدو كأنما رفعتها فرقة حربية لتقوم بإصلاحها أو بتحويل مسار الخط.

بلا سلاح، بلا معدات، يشعر بيانثي بانه خالٍ من المسؤولية، بأمان شاذ وجديد. فالمسؤوليات السابقة لم تكن تحمل في طياتها الوعي بأداء الواجب بل بنظام جمعي إجباري. اللحظة القادمة لا يعلمها لكنه يخمنها مجدداً ذكرى الأسرى الذين كانوا يصعدون إلى دراوشة ويجرون مدفعين. من يراقبنا؟ إنه ذلك الشيخ الذي يحمل بندقية مشحمة ولامعة ويغني أغنية

حزينة بين أسنانه وهو جالس القرفصاء، ثم ذلك الفتى ذو الخطم الناتئ الذي يجرب إحكام حامل البندقية والذي حين يراقب الأسرى يفعل ذلك بنظرة مظفرة ومزدرية متسائلاً بإيماءة تحدٍ ماذا سيحدث لو أن أحداً اجترأ بدوره على النظر إليه.

وأخيراً، يقول محركاً ذراعه حركة بذيئة:

– جئتم من هناك، من أنوال؟ حسن، ستعودون إلى هناك، بل إلى أبعد من هناك، إلى قبيلة ريفية.

يقول من بجانبه:

– سيرسلوننا نحو الداخل.

يحس بيانثي تحت جمجمته بتجويف كثيف من الهواء الساخن يعكر نظرته وأحياناً يصيبه بالدوار. ينهض مذعوراً، خوفاً من أن يفقد وعيه، وحين يرى العجوز يصوب بندقيته نحوه يعاود الجلوس. في الحال، تأتي جماعة من فرسان بجلابيب وبرانيس زرقاء. يتحدثون بالعربية، دون أن يهتموا بالأسرى، ويرحلون بقفزة، ركضاً، صوب الناضور. يقف الحراس ويُنهضون الأسرى. يقودونهم إلى القصبة. يفكر بيانثي في عدم اكتراث: كي يعدمونا رمياً بالرصاص.

هناك، قبل إيداعهم الزنازين التي كانت الإدارة الإسبانية أعدتها للوطنيين المتمردين، يوزعون عليهم خبز الشعير. في هذه اللحظة وحدها يعون أنهم تحت رحمة المغاربة، أنهم عاشوا ويعيشون حياة بائسة وذليلة بشكل خانق، يطهرون ذنوب غيرهم، لأن أعوام كلٍ القليلة لا تسع شراً

آثماً إلى هذا الحد. لا يتحدث الجنود فيما بينهم، ليس لديهم ما يقولونه أو يفكرون فيه. ينظر بعضهم إلى البناية المهجورة بعد أن دافع عنها ببسالة ورواها بدمه.

مازال بيانشي يشعر في رقبته بالأثر الحاد لنظرة الجثة. أحدهم، أكثرهم ذهولاً، يغني، وذلك الهدوء يضايق الحارس الذي يقذفه بحجر كما يقذف كلباً يصر على النباح. بيانشي أكل الخبز في بطء ثم لبث ساعات ونظرته معلقة بقدميه المتيبستين والمتشققتين، لا يفكر في شيء. قرب الأصيل، يوقظ من بجواره الذي يرقد وعيناه مفتوحتان، ويقول له بصوت خفيض:

– اسمع، أتدري هل ستكون الليلة مقمرة؟

– ستكون هناك صفعات!

-في أي يوم نحن؟ الاثنين، الثلاثاء أم ماذا؟

– لا اثنين ولا ثلاثاء ولا نحن في أي يوم من الشهر. هذه الأيام لا وجود لها في أية رزنامة، وإذا ظهر القمر فلن يكون كما كان. ألا ترى أن كل شيء مستغلق؟

يقول أحدهم بوجه خال من التعبير على نحو رهيب:

– أأنت من كتيبة 42؟ أكثر من عشرين من 42 سقطوا هناك وراءنا؛ كانوا يركضون فيرشقهم المغاربة بالسيوف. قتلوا ملازماً كذلك.

– دعنا نرقد، اللعنة!

-وملازماً كذلك؟

– كانوا قادمين من أعروي ويريدون التحدث إلى الجنرال N وتقديم تقرير مكتوب. أتدري ما أقول؟ حتى المغاربة يسدون خدمة للجنرالات.

بيانشي يتثاءب:

– تقديم تقرير ضد جنرال! يكفي أن تقول ذلك! وها أنت ترى إذا كان بوسعهم الآن تقديم التقرير!

-أيها الحمقى! أفي وسعنا أن ننام؟

ــ قالوا إن علينا أن ننقل إلى هنا شريط القطار والرواقد. مهما يكن الأمر ستتعفن هنا يا رجل!

يدخل مغربي شديد الحزم، وبصوت رخيم ورجولي يأمر:

ــ هيا، هيا، إلى الصف!

يضفي التعب والجروح عليهم نحواً من التثاقل فيوسعونهم لكماً وضرباً بمؤخرة البندقية. الذي كان ينعس وعيناه مفتوحتان لم يزل في موضعه، يغط في نومه. يركله المغربي بقدمه ويهزه: ودون أن يصحو تماماً يغمغم الجندي: "أنذال!".

بعد خروج الأسرى في طابور تسمع خبطة ناعمة. لبث الجندي الناعس في نفس موضعه هامداً وقد تهشمت ثلاثة ضلوع وعظمة الترقوة.

النجاة.

الحرب.

أداء الخدمة العسكرية.

سلام الموتى.

(١٢)

بيانشي استعد للفرار. بيقين أنه لو عاد إلى أنوال سيلقى حتفه، وجد الدوافع الحاسمة لمحاولة الفرار صوب مليلة. عشرة كيلو مترات: الجبل إلى جانب؛ وعلى الآخر، البحر. الجبل محتشد بالمتمردين: أبراج حراسة مصوبة نحو الطريق بقنابل يدوية ورشاشات ومدافع. لن يصل إلى مليلة، لكنه يفضل الموت وحيداً، وجهه إلى البحر، وهدير الماء في مسامعه. يخشى جير سهول أعروي، دراوشة، يستيتين؛ يخشى السقوط فيها، البقاء محنطاً تحت الشمس قبل أن يموت. يقترب المغيب. مازالوا يعملون، سيهبط الليل عليهم ومع الظلال الأولى يمكنه أن يتسلل يسار حاجز الطريق، على جانب البحر، ويركض. على مسافة ثلاثين خطوة، سيختلط زيه المغبر بالظلال، وحين تتراكم هذه حوله سيسهل الفرار.

قد يصل إلى مليلة. كل شئ يتلخص في ألا يرسلوه مع الفرقة التي تجلب الرواقد وأجزاء من شريط القطار؛ في أن يبقى هناك مع من يبقى عند حاجز الطريق، يفك ويخلع الحديد. يعمل حوالى خمسين رجلاً في مجموعتين، والمغاربة يغنون جلوساً، ببنادقهم مستعدة وأعينهم ساكنة متمهلة وفطنة معاً، متحرية. يقول جندى:

– أغداً نرحل مرة أخرى إلى أنوال؟ أبلغ بنا الأمر هذا الحد؟

يراقب بيانشي الظلال، الممتدة الآن ساعة المغيب. الآن، الضوء يكتسي عذوبة، يتخذ درجة الياقوت الأصفر، لون الشفق. على مسافة أربعين خطوة أمست الظلال مبهمة. يمكث وهلة أخرى منحنياً، ينظر ورأسه إلى

أسفل إلى الحارس فيما يصطنع أنه يعمل. عدة دقائق أخرى. لو أنه انتظر لحظة واحدة سيكون الفرار مستحيلاً، لأن جنود الفرقة الأخرى ينتهون من أحمالهم وسيكون هذا آخر مشوار. لكن ما زال هناك ضوء: سيكون الضوء مرة أخرى هو من يطلق صوت الإنذار، سيتقيأ شرراً على ظهره الهزيل النحيف.

ينهض؛ يلقي آخر نظرة. وهو يهم بالقفز، يسمع إلى يساره صوت. الحارس يبلغ الآخرين فينهضون جميعاً؛ يسقط بيانثي على الجانب الآخر، يزحف على الرمال الساخنة، يجرى. يلتقى بجندى آخر يصعد مسرعاً. يقول بيانثي:

– أيها الأحمق، إلى أين؟

– كنت أريد الفرار لكننى خائف.

– مم؟

– لا أعرف. أنا عائد إلى هناك.

– أأنت مخبول؟

– مخبول من يعاود البدء مرة ثانية بإرادته. هناك –يشير إلى مليلة– أعانى من الجوع والبرد، أحتمل الضرب بالعصا ولا أحوز سنتيماً واحداً وأحيا كما لو كنت فى سجن. وكل هذا لمه؟ لكى يحدث ما رأيناه الآن. الجرح الوحيد الذى أحمله أصابنى به ضابط، وأنا أرى أن المغاربة يتعاونون فيما بينهم وليس هنالك كل تلك النجوم ولا كل تلك الأعراق. كلهم رجال وأنا رجل آخر مثلهم.

يجرى بيانثى بكل قواه؛ وسرعان ما يسمع طلقات خلفه؛ ولكنها

طلقات بالغة الخطأ والارتجالية حتى إنه لا يحس بمسار الأعيرة. بالوعة صرف سفوح الجرجرة. يمكنه أن يختبئ فيها ساعة الخطر؛ الآن تشتد كثافة الظلال ولا تكاد تحتجز شيئاً من ضوء السماء. لكن الحاجز ينحدر إلى أسفل، والبالوعات يتضائل بروزها عن الأرض، وفى لحظة بعينها تختفى إلى اليسار قليلاً من برج المراقبة ويمتد شريط القطار فوق الريف المنبسط. أعمدة تلغراف مقطوعة، نقطة حراسة مهدمة ويصدر عنها ضجيج حفل -دفوف ونايات-، كأنها قادمة من تحت الأرض.

من الناضور لن يدركه أحد الآن، مهما يركض. الظلال باتت بالغة الكثافة، فعلى مسافة خمس عشرة خطوة لا تستبين الأشياء. يركض أسفل كتلة جبل الجرجرة غير المنتظمة التى يعن أن محور دوارنها أحياناً فوق رأسه، ويهدده بالانسحاق تحته، والتى تشق السماء بغتة كسحابة عاصفة. غياب البعيد ينفح الهواء خفوتاً طازجاً ورطباً، بمناى عن السهول الجيرية الخانقة.

ساعة من الهرولة تنهك قواه فلا يمكنه متابعة السير. يتوقف بجانب كوخ على الطريق يبرز ظله الحاد. طلقة بندقية تحك أذنيه. ينبطح أرضاً ويهم بالتراجع زحفاً، نحو البحر الذى انفصل عن شريط القطار بحوالى أكثر من كيلو مترين. يطارده رصاص الحراس. مغاربة؟ أم طليعة دفاع مليلة؟ على أية حال، عليه الفرار، مواصلة طريقة، تجنب تكرار كارثة مطحن الدقيق. الأعيرة تنطلق من الكوخ الذى يراه بيانثي الآن أكثر وضوحاً محصناً بأكياس الرمل. طنين قنابل يعقب طلقات مدفع.

يقترب من مليلة؛ هاهى أكشاك السكك الحديدية المحصنة كأبراج المراقبة. لا بد أن قواتنا تحميها؛ لكن من العبث محاولة الدخول. مازال يلف حولها من بعيد. سلسلة أخرى من طلقات المدافع ويرتفع عمود من الغبار والدخان فوق الكشك. أسقطوا كل الساتر من أحد الجوانب. بيانثي

يركض. أعيرة نارية خلفه، ناحية البحر البعيد الآن. مازال يركض بعيداً عن الطريق الذى يظهر تارة ثم يختفى إلى اليسار. والأرض تحت قدميه تعلو وتهبط وتتذبذب كالبحر تحت الريح.

ساعة أخرى ويصل إلى ضواحى مليلة. يرى ظلال مضمار الخيل وخيام ميدان محتمعة. خطوط من الأسلاك والخنادق، وشحنة رشاش تمر عالية. يجرب الالتفاف حول حي "الريال" لكن التحصينات تتضاعف وأقل صوت يستدعى طلقات الرشاشات. تتكاثف الظلمة صوب طريق السيارات. المدينة غارقة فى الظلام لعرقلة مهمة نيران المدفعية.

بيانثي منبطح، ووجهه فى بركة ماء، قد يكون ماء الرشاشات، يحبس أنفاسه. ثم يصرخ. من بعيد، يسمع صوت تحت الأرض، غير مكترث ومتعب: "حكمدار النوبة!". تمر عشر دقائق بطيئة، رهيبة. صوت آخر يتحدث من الظلمة:

– إلى اليسار هنالك ثغرة فى السلك الشائك. ادخل من هناك.

يتناقلون أمراً لا يكاد يفهم إلا من الجرس المكرور لنفس الكلمات. بيانثي يزحف إلى اليسار، متجنباً ملمساً بارداً ولزجاً لسيقان عارية ومزق وبعد قليل يثب فوق كيس رمل ويسقط داخل الخندق. يسأل أحدهم:

– أأنت مصاب؟

يجيب بيانثي أن نعم. لكنه سيدخل المستشفى. ليست الإصابة خطيرة: هو فقط جائع ومتعب.

يهز الرقيب منكبيه. ينظر إليه فى فضول.

– ساعطي "التمام" . انتظر.
حينئذ يقترب منه بعض الجنود:
– أجئت من R؟
– أقتل الجنرال S نفسه بعيار؟
– في أعروى، هل استسلموا؟
أسئلة حمقاء، بلا معنى، لها نبرة الثكنات تلك التى تجرد الأحداث من واقعها وتحولها إلى تفاصيل معتادة فى الخدمة:
– جاءت إلى هنا قوات من سبتة وتطوان. لكن هؤلاء الآن لا يدخلون في خفرات الحراسة. لكى تؤدى الحراسة بشكل مريح لا بد أن تاتي على الأقل ثلاثون كتيبة أخرى. فى الليل لا ينقصنا بعض القصف؛ أما فى حالتك، لو فهمت، فستدخل المستشفى وكل شئ على مايرام.
يعود الرقيب:
–هيا، ثرنبولا، قدم نفسك.
يتجه بيانثي إلى الخيمة التى تلاصق جداراً. مثلث القماش مفتوح. يلازمه شعور مبهم بالرضا. شعور لا يستكهنه. لأول مرة يقترب هادئاً من ضابط. تربط بينهم الآن –جنوداً وضباطاً– أسرار كثيرة. يسقط مرة أخرى فى النظام بوعى ناضج وفطن فيما يتصل بالطاعة العسكرية.
–أتأذن لى ؟
ضابط يرتدى قميصاً جالس يقرأ على ضوء كشاف جيب.
– "تمام" ياسيدى الملازم!
-إيه؟
– "تمام" يا سيدى الملازم!
ينهض فى شدة غضبه:
–أى مـــلازم واى لعنة! لا تنظر إليّ بهذا الوجه الغبى وإلا سأزهق

روحك! ألا تعرفني! ألا تعرف النقيب أرناو؟

بيانثي يرى على كم السترة، على السرير، شارة النقيب، يهمهم:

ـ نعم يا سيدى. أنا من ثرنيولا.

ـ لا يهم، النقيب أرناو معروف فى كل مكان. اقسم لك أننى سأترك لك ذكرى طيبة لو وقعت فى متناول يدى. ماذا تنتظر؟ اغرب عن وجهى!

يخرج بيانثى ويسمعه يدمدم:

ـ ما أحمقهم! ألا يستطيع المرء أن يخلع سترته أبداً؟

لكن مستشفى الفونسو الثانى عشر ليس قريباً كما خمن. عليه ان يتحسس طريقه، يبحث عن الطريق الذى لا يتذكره جيداً. بغتة، يستحضر ذكرى لها علاقة بالنقيب. رأى هذا الرجل فى سيارة، واستبقى جيداً تعبيره الفظ والمرتاب. وأخيراً يتذكر أنه كان من بين من يرافقون الرائد الذى هشم أصابعه بمؤخرة المسدس، بالقرب من دراوشة. لقد تمكنوا من الوصول والنجاة. يفكر بيانثى فى ذلك بسمت حاقد وحانق.

يسير الآن بين منازل ماهولة ومسالمة. هذا هو حى الريال وشارع المواخير المحترمة. من يدرنها، بدل أن يدخنّ تبغاً بنصف ريال، لديهن سلة تطريز وصداع. والجنود يحضرون إلى هنا فقط حين يحتكمون على نقود كثيرة، لأن الحى بعيد عن وسط البلدة ويجب أن يستقلوا سيارة أجرة. لكن طليعة القوات الآن متمركزة فى حى الريال والفرصة مواتية. إلى جانب باب، تتحرك ظلال مضطربة:

–هيا يا فتاة، فنحن ثلاثة فقط.

–أولئك المدنيون، أبناء من أنجبتهم، سبقونا. لكن لو فتحوا لنا لن يبقى منهم أحد.

–مدنيون، حسن! أمس كنت أقوم بالمراقبة، وأى صخب أيها الفتيان! طردنا كل المدنيين من ثلاثة مقاهٍ. "هيا، فلنمسك بهم أحياءا". كانوا يقفزون من النوافذ.

ويردف وهو يهز رأسه يمنة ويسرى:

–آه، الكاذبة!

يضحك الآخرون. يطل رأس من الشرفة:

–أيها السادة، كفاكم! قلت لكم إن البنات راقدات.

يمر بيانشي. يستوقفه صوت.

–ما هذا؟ الم يعلموك إلقاء التحية ؟

–رأسي مكشوف. لا أحمل "طاقية".

–ماذا تقول؟ صه! انتباه!

بيانشي يطيع. قدماه لا تحتملانه ورأسه ثقيل وثمة طنين فى أذنيه يسبب له الدوار.

–وهل لأنك تسير بلا شئ على رأسك لا تؤدى التحية؟

يهم بالرد. الحيرة تمنعه من ذلك فى تلك اللحظة، فيما يامره أحدهم:

–لليمين، للأمام، بالخطوة السريـ. . .عة!

يطلق بيانشي ساقيه للريح بخطوة "جمباز". يامره الآخر "لليمين در" حين يبتعد قليلاً، ثم "لليسار در"، وهكذا يمر أمام المجموعة مرة بعد مرة، سائراً حوالى اثنتى عشرة خطوة فى كل اتجاه. حين يسمع لهاثه وتردده يخلون سبيله. يقول أحدهم:

–هذا البائس يعرج!

فيضحك خمستهم.

أخيراً يصل بيانثي إلى المستشفى. يدخل فناء واسعاً ومكشوفاً. في الطريق المقابل، من سلم أحد العنابر، تقترب منه راهبة.

-ماذا تريد؟ عم تبحث؟

-كنت في طريقي إلى هنا. اليس هذا المستشفى؟

-بلى. ماذا تريد؟

-أنا جريح.

-آه، فهمت! أليس في كتيبتك حقيبة طبية؟

-بلى، من قبل، لكن اطلقى الآن كلباً سلوقياً ليلحق بالحقيبة والكتيبة!

-ماذا تقول؟ من أين جئت؟

-من أنوال.

-يا إلهي! تفضل. هل اصابتك خطيرة؟ لا داعى لمضايقة الطبيب المنوب، أليس كذلك؟

ينتقل بيانثي إلى حجرة صغيرة باردة وشبه خالية من الأثاث تذكره -دون أن يدرى السبب- بحجرة البلدية في قريته حيث أجروا عليه الكشف الطبي للمجندين. الحق أن بها ميزاناً بمقياس اطوال وخريطة. الممرض الشاب والبدين يقيسه بالنظر.

-أين؟

بيانثي يريه يده اليسرى المتورمة. ينتقلان إلى غرفة أخرى يوجد بها

عدد من صنابير الماء وأوان طبية وشاش أبيض وزجاج فى كل مكان. يعري صدره. فى انعكاس الزجاج يرى نفسه هيكلاً عظميا: ترسم ضلوعه ظلالاً متوازية، وعظمتا الترقوة مثل مقبضي حقيبة كبيرين. الممرض يداوى ويسال. لكن يبدو أن ردود بيانشى لا ترضيه، ردود مبهمة ومقتضبة: "الجوع، نعم يا سيدى، دائماً...بالطبع، فى أنوال...أعروى أعتقد أنهم استسلموا، لم أدخلها، مررت بها من بعيد ولم أمكث لأرى...مثل الذباب، أجل يا سيدى... هذا ما كنت أفكر فيه، فى أننى لن اموت متاثراً بمثل هذه الإصابات".

يقول له الممرض إن الحظ حالفه، لأن رصاصة الكتف نقرته فى اللحم ودون أن تكون غائرة، وكذلك العيار الذى أصاب ركبته، لكنه لكى يشفى ينبغى أن يمكث على الأقل خمسة عشر يوماً خارج الخدمة. بعد أن ضمد جروحه، يحقنه بسائل أسود فى بطنه ويقيس نبضه مرة أخرى. تُرى على وجهه دهشة بالغة. كان التطهير شديداً، ويحس بانشي أنهم وضعوا تحت الضماد جذوة مشتعلة. يخرج من العيادة برفقة الراهبة التى تومئ إليه وتتقدمه إلى المطبخ. تقدم له قدحاً كبيراً من القهوة بالحليب ثم تصحبه إلى الفناء وتتركه هناك:

-والنوم؟ أين أنام؟

-امعك التصريح بالإعفاء من الخدمة؟

-كلا يا سيدتى!

تتحدث الراهبة بصرامة مهذبة ومقنعة:

-إذن، لا يمكنك البقاء هنا. يجب أن تذهب إلى فرقتك.

-الحق... لم أنم منذ عشرة أيام ولم أقرب الزاد تقريباً. أنا مصاب! استحلفك يا أختاه! لا بد أن هناك أسرة شاغرة.

-أجل، أجل. لكن، كيف بوسعنا أن نحتجزك بلا تصريح من فرقتك؟

مستحيل، مستحيل. الأمر ليس بيدى. لقد فعلوا أكثر من الواجب بمداواتك؛ فليسوا مجبرين على معالجة كل من يأتى، فتلك مهمة إسعاف الفرقة، لكننا هنا لسنا متزمتين بصدد الأوامر. من حسن الحظ أنه ليس ذلك المرض الذى عاد إلى إسبانيا الشهر الماضى! فذلك كان يحفظ اللائحة ن ظهر قلب ولم يخط قط خطوة لا تكون صحيحة. كان مبالغاً، فى رأيي. وكان شخصاً ممتازاً، بلا شك. ولن أكون أنا من ينتقده، محال.

يذهب بيانشي، حزيناً، دون أن يستمع لها. بعد ثلاث خطوات يتوقف:

–وشكراً لك على كل شئ.

يجيبه الصوت الأنفى العذب:

–الشكر لله.

فى الشارع، يتردد. هذا الأمر أصابه بحيرة أشد مما أصابته الأحداث السابقة. أمامه، هنالك وادٍ، أرض ممتدة وفى النهاية: حانتان، تعيشان بلا شك على المستشفى. ربما ذهب إلى هناك غير أنه لا يملك سنتيماً. يداخله شعور بأن الجميع أهملوه والأنكى شعوره بأنه أهمل نفسه. لا يجد مبررات أو دوافع للاحتجاج.

يأتى من البحر نسيم عذب وبارد ينخر عظامه. القمل يسبب الضيق والجروح مازالت تحرقه. مع ذلك، كانت القهوة بالحليب لذيذة وثقيلة بمذاق قشدة طازجة رائع. يجلس فى طريق صغيرة. يخرج الحارس من برج الحراسة ويجول:

–ماذا تفعل هنا؟ أتنتظر أحداً ؟

–كلا – يجيبه بيانشي رافعاً منكبيه ثم يردف حتى لا ينقطع الحديث–: الجو بارد، أليس كذلك؟

–ادخل موقع الحراسة إن شئت.

بيانثي ينهض ويقبل العرض في صمت، بعرفان دفين. فكل هذا يعن له بالغ الحيرة، برودة متسول، أشخاص يتمسكون باللائحة، هدوء، تزمت من لم يطل على الحقيقة الكبرى التي رأى –قبل قليل– أنهم يخفونها بين الري والعروض العسكرية، بين الكلمات الذكية الرائحة: وطنية، انضباط، شجاعة. يرتدي الحارس ملابس رائعة، كمن يعمل في المكاتب. عند الباب، تجبره قذيفة مدفع على الالتفات. أصوات مبحوحة تصدر من الداخل.

– ست عشرة.

– خمس عشرة.

– كلا، ست عشرة. وهذه سقطت بالقرب منا.

ممددين على الأرض، في أوضاع عنيفة، يرقد اثنا عشر أو خمسة عشر جندياً بملابس الميدان. الانطباع الأول يذكر بالجثث التي ظلت ليل نهار تحدد معالم الطريق إلى المدينة. لا ينامون على السرير الطويل ذي الألواح الخشبية لأنه مرتع للبق. يجلس بيانثي على الأرض. يقدم له حكمدار نبيذاً وسيجارة و"يسحبه من لسانه": لكن بيانثي لا يحكي سوى ما حدث له مع الراهبة. يقول له الحكمدار معتقداً أنه تلقى الإصابة في حي الريال:

– اذهب إلى الثكنة. النقيب الطيب كان بوسعه أن يعطيك تصريحاً لدخول المستشفى: بيد انه ربما كان غائباً. حتى الثكنة هنالك مسيرة ساعة أو أكثر. أولاً، تخترق كل مليلة ثم تخرج من البوليجونو وتصعد منحدراً في الريف حتى كبريريثس ألتاس.

– حين أصل ستكون الثانية فجراً . . . إذا وصلت.

يلقى بنظرة على أقرب العنابر.

– لو أن في وسعي العثور على مرتبة . . .

– لأنك لا ترغب في ذلك. الآن لا توجد حراسة. تتسلل إلى أى من هذه العنابر، وترقد وفي الفجر تذهب. لن ينتبه إليك أحد.

يخرج مع الحكمدار الذى يرشده إلى الأبواب الخلفية للعنابر، على ارتفاع درجتى سلم بجانب المرحاض. "تدخل خلسة وترقد في أول سرير شاغر" . يحزم أمره ويصعد مرتجفاً من نفاد صبره. السرير. مرتبة من الصوف فوق ألواح معدنية. النوم وعدم الخروج من هناك أبداً. الوسائد: بيضاء ووثيرة، لكي يتوسدها رأسه. ومشجب للملابس، لأن المرء هنا ينام عارياً، وليس كما في الميدان. النوم ومواصلة النوم دائماً. فوق المرتبة الصوفية والوسادة الوثيرة.

يحزم أمره ويدخل. الصالة –المستطيلة– غارقة في خفوت عذب. وعلى ضوء مصباح زيتى يلعب أربعة رجال الورق مرتدين مآزر المستشفى الطويلة. يلعنون بصوت خفيض، ويخبطون بمقبض اليد على اللوح الخشبي الذى يستند إلى أفخاذهم. تركوا الأسرة واجتمعوا تحت هذا الضوء، الوحيد المسموح به. الخادم، عجوز مدنى ومعاون للممرضين والراهبات، ينعس بجانب الباب، مستلقياً على أول سرير.

حين يدخل بيانشي، يخفون الورق في قلق. وفي الحال يتمالكون أنفسهم ويسبون الدخيل. يستيقظ الممرض العجوز وينهض:

– لا تورطوني، اللعنة. أسمح لكم باللعب ثم تسعون إلى خرابى لأقل سبب. ألم ينته هذا؟

يلتقت أحدهم إلى الفراش. ثم جندى يحتضر، نظره معلق في السقف في إصرار بارد وترتجف شفتاه لأقل حشرجة. صليب صغير فوق بطنه.

المصباح مضئ والآخرون بالطبع يستغلون الضوء فى لعب الورق. نفس الشخص الذى طمأن الممرض يواصل حديثه مشيراً إلى بيانثي:

– ليس عليك أن تنهض بعد لحمل الجثة، ولكن يؤسفنى أن أبلغك بأن لديك حالة "دخول".

لحظة رهيبة حقاً تمر على بيانثى. يسأل الممرض العجوز شبه نائم "أهو أنت؟". وبيانثي لا يدرى بم يجيبه. يزمجر العجوز:

– إن لم يأت معك الممرض النوبتجى فلا فائدة.

– هيا أيها العجوز، أعد السرير للفتى، فهو يحمل قملاً من الخط الأيمن وبراغيث من الخط الأيسر –ثم يردف– : الرهان متساوٍ، ليست هذه طريقة لعب. لنرا حسن، انتهى الرهان!

بيانثي يهمهم:

– لا حاجة لإحضار ملاءات. لا بأس بها هكذا.

هذه النبرة المهذبة تكشفه. يضحك أربعتهم فى مقابل حشرجة المحتضر. يباغت العجوز ويطلب الشهادة المرضية. ينتبه الأربعة فى دهشة. فيشحب وجه بيانثي، فيقذعه العجوز سباً مقتنعاً بأنه يريد التسلل إلى الداخل. بيانثي يأخذ بتلابيبه ثائراً:

– أتصمت أم أسحقك؟

يضحك الأربعة ويشجعون بيانثي:

– اسحقه، اسحقه!

يأمرهم أحدهم بالصمت:

– صه. يبدو لى أن ذلك انتهى.

توقفت الحشرجة. يزمجر العجوز:

– من حسن الحظ أنه لن يعاود إيقاظى مرة أخرى.

يذهب بحثاً عن سرير نقال. يكتسى جسد المحتضر صفرة ويتضاءل

ظله. يدفع الرجل العجوز بيانثي إلى الخلف وفجأة يجد نفسه على الأرض. عند خروجه، يصطنع حكمدار الخدمة، الذى راقب ما حدث، عدم الالتفات ويتجنبه. يخرج جندى خدمة أيضا من مرحاض نفس العنبر ويقول لبيانثى:

– يحاول الحكمدار التسلل إلى أحد تلك الأسرة، وأرسلك إلى هناك لتستطلع الأمر.

من جديد فى الشارع، يفكر: "بالطبع، كان يجب أن أذهب إلى الفرقة". وهذا يشجعه، فيغز الخطا. الجو بارد فعلاً. رغم أن ذلك يبدو غريباً، تحميه خزائن الطلقات والأربطة من البرد لأنها تشده إلى ملابسه. المدينة هاجعة؛ لكن يلاحظ فى الحال أنه ليس نوماً مجدداً للنشاط وإنما هو كابوس هائج، من الذعر. ثمة عائلات تسير نحو المرفأ تحمل متاعها القليل، وأخرى انتقلت إلى المدينة القديمة التى تنهض كقلعة محصنة بجانب البحر. يُرى الخوف المدني فى المسارعة المحمومة للنسوة اللائى يذهبن ويعدن عبر بوابات منازل الجوار، وفى درامية بكاء بعضهن وصراخهن عندما تدوى قذيفة مدفع أو الرشاشات البعيدة التى يذكر صوتها بلقلاق طائر الحجل. يتوقف بيانثي لحظة عند عتبة منزل فتحوطه عدة نسوة. عبثاً يحاول الرحيل.

– من سرنيولا؟ إنه من سرنيولا، المسكين.

يسألنه ألف سؤال سخيف فيصبنه بالحيرة.

– أصحيح أنهم استأصلوا للجنرال S أعضاءه التناسلية؟ –ودون أن

ينتظرن إجابة- : ما أشد حقدهم! وأنت ماذا صنعوا معك، أيها المسكين؟

يتدخل عجوز من بلنسية يدخن غليونه بعيداً عن الجماعة:

- هيا، اتركن الفتى.

تبكى امرأتان وسط صيحات شفقة:

- تكفى رؤيته، المسكين، أمسى كالمومياء! أولادنا المساكين، من زج بكم في هذه المذابح؟ أأصبت بأى عيار؟

- ثلاثة.

تبهج بيانثي هذه الشفقة الباكية واللزجة وإن تلقاها بمتعة آثمة، كفعل مرذول، وتولد فيه شعوراً بنفاد الصبر غير المفسر.

-خمسة أعيرة، خمسة، يحملها ابن أحشائى.

ينصت العجوز البلنسى فى لذة إلى شحنات الرشاشات.

- إيه، كم تغنى يا سرنيولا. هل تعتقد أن أربعين كتيبة ستكفى لاسترداد كل هذا؟ كلا! لا بد أن يحضر إلى هنا أكثر من سبعين ألف رجل مباشرة. والآن فى مالقة عشر كتائب سترحل جميعاً إلى مدينة مليلة القديمة؛ لكننى هنا تملكت ثلاثة محال أخرى كمخزن. أنصت إلى شدو الرشاشات.

بيانثي يحكى الهزائم المتوالية فى أنوال ودراوشة واعروى. تبكى النسوة ويقاطعنه بصيحات. يعلق العجوز على كل حالة:

- لم يبق أحد حياً، أليس كذلك؟ بديهى. لا أقول ثمانين ألفاً! لا بد من مائة ألف جندى كبداية.

فيما بعد، يلمح بيانثي برغبته فى أن يتركوا له مرتبة يرقد عليها. تنظر إليه النسوة نظرة متفحصة، ويرى بيانثي أنهن يفكرن فى قذارته، فى القمل. يوضح:

- لا رغبة لى فى مواصلة السير حتى كبريريثس. مرتبة قديمة فى أى

ركن– يكذب متيقناً من أنهن لا يصدقنه–: لا أحمل قملاً.

أصبح مهوساً بفكرة المرتبة، والصوف الوثير، ليستريح بعض ساعة. كان يحلم بالمستشفى لقضاء هذه الليلة ولا يستسلم للإحباط الكامل. لكن طلبه يقابل بغرابة ويعتذرن. ليس لديهن ما يفيض عن حاجتهن. تخرج امرأة كوب نبيذ. يأخذ البلنسى نفساً عميقاً من غليونه ويضيف:

– ألم تتأخر؟ سرعان ما ستأتى دورية المراقبة إلى هنا.

في نصف ساعة يعبر المدينة المرتعبة تحت قصف المدفعية الإسبانية التى استولى عليها المغاربة. مدفعية فاعلة: يكفى أن تنصت إليها وترى كيف تدفن القذائف فى الأكوام الخربة، إلى جانب "الدوكر" أو "ألفونسو الثانى عشر". وكفاءة المدفعية الإسبانية يعيها بيانثي الآن أقل من أى وقت مضى. يسير بنظرة قاتمة وخامدة. حين لا يكون وراء العين طموح إلى المشهد المثالى الخاص بكل منظر طبيعى، تأتى النظرة خاوية. هكذا ينظر دائماً المعتوهون. أما المجانين فيرون فقط المتخيل، ولهم نظرة شديدة التنائى، شديدة التعبير عن اللامادى. وبيانثي ينظر بكلتا الطريقتين. العته والجنون يتصافحان فوق واقع ميت.

يتوقف فى الأرض الفضاء حيث يبدأ منحدر القناصة، رياضيي الحرب، بعنابرهم وأهدافهم الحسابية. من هنا، لابد من الخروج مرة أخرى إلى الريف وارتقاء منحدر صخرى طوله أكثر من ثلاثة كيلومترات للوصول إلى الثكنات المشيدة بين جرف وعرْ على البحر والمنحدرات الأولى لجبل الجرجرة. فى الأرض الفضاء، إلى اليسار، هنالك عين ماء كبيرة وأثرية بها خزف عربى مصنوع بقوالب ألمانية. يقترب بيانثي ويشرب من ماء مليلة

الماسخ. تطل مسوح عبراني على الصنبور المجاور. بيانثي يسأله:

– هل تعتقد أن بوسعي الصعود إلى كابريريشس؟

فيرد هذا دهشاً ومتحفظاً:

– أنا لا أعتقد شيئاً؛ لكن ليس من الحكمة الصعود من هناك، يوجد ثلاثة منحدرات على كل جانب. –يتحدث بإسبانية وعرة–. "مغربى–قطع–رأس–إسبانى–شجاع–يشتكى–بعد ذلك–قائد سلاح–سرنيولا".

يذهب في شئ من الارتياب. يبدأ بيانثى الصعود ثم يتراجع ويقترب من أكشاك البوليجونو. يرقد بين اثنين منهما وينام ووجهه إلى النجوم. يطل الهلال من فوق قمم الجبال المطلة على البحر المحتشد فى أحايين أخرى بالشمس وطيور البحر. تهب نسمة "ليبانتى"، ريح الشرق، وتجلب شذى الجزائر ورمال الصحراء.

من البوليجونو يسمع همس بحارة وكحول وبغاء، أرغن يَدَوى يختنق مكتوماً فى فناء وسط ضجيج حظيرة. تسمع عبارات متفرقة من مناقشة على باب حانة "الذوق الحسن". جوقة الفلامنكو الكولونيالية تحصل أرباحها خلف ستائر مخدع. "كم يساوى سيد نقيب فى حملة؟" تتلاشى العبارة فى ضحكات، وصوت الأرغن اليدوى يذوب فى الظلال. سكتت نغماته لكن ألعاباً ملونة، نارية، تحل محلها. يفر ثلاثة بحارة من أفراد دورية المراقبة ويصرخون محذرين الآخرين:

– هيا... هيا... هيا!

حين يستيقظ بيانثي ثمة شبورة تمزقها ريح الشرق وتجرفها. جسده يؤلمه، مفاصله لا تستجيب له، وتخشبت عضلات صدره وبطنه. يتأخر فى محاولة النهوض. وحين تسقط الشمس عليه، يتحرك وينهض ويستأنف بلا رغبة صعوده نحو الثكنات.

الطريق -المألوفة الآن- تجدد فيه انطباعات قديمة. صخور عارية، جرداء؛ عدد من الخصاص إلى جانب طريق السيارات، ثم الطبيعة الميتة -الرمادية الضاربة إلى الرصاصي- التي تنهض فوقها النجمة الوردية لأول طاحونة آلية تدور أجنحتها الخشبية ببطء وتصر مفصلاتها. ترفع الماء إلى الثكنات؛ لكن، حين تتحطم أنابيب التوصيل وتقتلع أجزاؤها، لا يصل الماء. في مكان أعلى، طاحونة أخرى ترقد فوق قاعدة معدنية ثلاثية. يمتزج صرير الطاحونتين ويترع اللحظة بدرامية هزلية. يثير هذا الصرير توتر بيانثي مثل صرير سكين بطيئة تخدش زجاجاً.

للثكنات هيئة أقرب إلى هيئة معسكر، بعنابره الخشبية المصطفة حول أرض مستوية واسعة ومحوطة بجدار له شرفات. يسود صمت يعزز الشعور بغور الوحدة وثقلها. يشعر الحراس بالسأم ويتكئون على أطر الشرفات: يذهب إلى عنبر سريته فيجده خاوياً، بالواح ومقاعد متراصة بترتيب الغائبين يعيد إلى ذاكرته زملاءه الذين أبيدوا في R. يخرج ويتجه إلى موقع الحراسة. يرسله الرقيب إلى عنبر المشاة وينصحه بأن يسجل اسمه للكشف الطبي. يجلس على سرير، ونظرته مثبتة في الأرض، وينتظر. ثمة أربعون أو خمسون آخرون، ثياب ممزقة ووجوه صامتة وأعين تنظر دائماً إلى أبعد مما ترى. فيما يرى من إيماءات ويسمع من كلمات هنالك غياب للاتساق. لأن أحداً لا يكاد يتكلم. يركض بواقان -في حوالي السابعة عشرة- أحدهما إثر الآخر وحزاماهما في يديهما، وحين يضايقان شخصاً يفران ضاحكين من ركلة القدم أو من التهديد. إلى جانب بيانثي، يمسك رجل كالهيكل

العظمى بنصف رغيف على ارتفاع الكتف، ويأكل فى بطء. مع كل حركة ينذر فكاه بتمزيق جلده الحليق حديثاً. ينظر إلى بيانثي في جمود تمثال.

– والخبز؟ أليس معك خبز؟

– ماء، هذا ما أريد.

فى الإناء، فوق السرير، ثمة قليل من الماء. بيانثي يهش الذباب الذى يغطى حافتها كبطانة من المخمل وتسقط اثنتان فى الماء. يشرب. الآخر يتحدث دون أن يتوقف عن المضغ؛ لكنه يأكل آلياً، بلا جوع، كأنما تبدو له بالغة التأنق مسألة الأكل هذه.

– الذباب المسكين يجب أن يشرب أيضاً. فهو لا يؤدى الخدمة العسكرية وغير معتاد الظمأ مثلنا. لأنه، هل رأيت رقم الـ٤٢ على ياقة الذباب؟

– الذباب ليس له ياقة!

-لكنه ظمآن. ألأنه ليس بشراً ولأنه من الوحوش لا ينبغى أن يشعر بالظمأ؟

– اخترقت زمزميتى طلقة. ولكن الثقبين لم يكونا ظاهرين لأن زغب قماش غطائها كان يحجبهما، ثم تمكنت من استبدالها. وإلى أن يرغبوا فى ملئها لن يلتفتوا.

فيما عدا ثمانية أو عشرة ممن خرجوا من مكتب الرائد، جميعهم تقريباً لهم مظهر مؤس. متشردون، متسولون عليهم آثار الجوع، زيهم العسكرى ممزق، مظهر بائس عامة. أعطوا أحدهم -يبدو أنه جاء عارياً- ملابس جديدة أكبر بكثير من مقاسه فأخذ يجول ويداه فى جيبى سرواله متظاهراً بالضيق وعدم الاكتراث. حين يبدأون الفحص الطبى يخرج بيانثي عدواً. يقول الحكمدار، نوبتجى الأسبوع، صارخاً:

– فليعد من هم تحت الفحص من العيادة فى الحال.

يفسر أحدهم أن ثمة تفتيشاً على السلاح والذخيرة. بيانثي يقول:

– لو شاءوا التفتيش على سلاحى عليهم أن يبحثوا عنه فى R.

– وإذا سجنوك؟

– سوء حظ!

يمارس الطبيب الكشف الطبى بأحكام مضمرة بعد أن حذره العقيد. يكتب عبارة "إلى المستشفى" لجندى واحد فقط. ويكتب لبيانثي "خدمة"، فيسأله الجندى بعد أن فقد سيطرته على نفسه:

– فى رأى سيادتك، أأنا سليم؟

لكن الطبيب ينادى:

– لنر، التالى.

يصر بيانثي، يرتعش غضباً:

– عليك أن تسمعنى أولاً، أيها الملازم. لا أحتمل الوقوف على قدمى، أنا مصاب...

– ماذا تقول، أيها الغبى؟ أى كلمات هذه؟

بيانثي، على الحافة، ينساق لغضبه:

– أنا جندى، وسيادتك رائد: لكنني قبل أى شئ رجل وأنت طبيب. وسيادتك تهمل أداء واجبك إذا...

– هيا، هيا! لا تدرى ما تقول! اغرب عن وجهى!

– أقول فقط ما يعن لى. وأنت تهمل أداء واجبك، وتعلم جيداً أننى لست مؤهلاً للخدمة.

يرفع الطبيب يده، ثم يكبت سورته وقد احمر وجهه من شدة الغضب. تراجع بيانثي إلى الخلف وقذفه بزجاجة فى رأسه فى زئير:

– لا تلمسنى وإلا شققت روحك. فانت كالآخرين، كالجميع، كذلك الجبان...

الرقيب رقميهما: 72340 و8211 فيما بعد يبحث عن قائمة الأسلحة ويتصفحها ثم يسأل:

– وبندقيتك؟ أين بندقيتك؟

إنها هناك مع الجثتين. فقد بندقيته، ليس أقل من بندقيته. وإن هو أحضر بندقيتين أو مائتين لا يهم ليس لذلك أية علاقة بالواقعة الإجرامية المتمثلة في فقده لسلاحه هو. يسأل القائد:

– أهما على الأقل من بنادق السرية؟

يجيبه الرقيب بالنفي. والقائد، بإيماءة حاسمة، يقول لبيانشي دون أن ينظر إليه:

– حسن، اذهب. سنرى فيما بعد.

وحين يذهب يناديه:

– أأنت الذي حملت الرائد؟

– أجل ياسيدي.

– وكيف لم تحضره إلى هنا؟

بيد أنه لا ينتظر حتى يجيبه، فيضيف، كئيباً، بحسٍ محذر لطيف، مشيراً إليه بأن يذهب:

– يبدو لي أنك في مأزق.

في المعسكر نتحدث ونحن نأكل أو نشرب الماء القليل الذي أحضرته عربات الماء. يرددون في كل مكان: "أدخلنا القول" . من بين المفقودين هنالك ذلك الصبي الذي كان يناقش حامل النقالة والذي كان بوسعه الانسحاب على قدميه لولا أنه فضل أن يحمله صديقه على النقالة. يقول بيانشي في جمع من الجنود وهو يحكي لهم ما حدث لهم:

– اللعنة... لو أطالوا مدة خدمتي سأقتل نفسي برصاصة.

يأتي عريف العيادة ويضمد له ركبته ويحقنه حقنة سوداء في بطنه.

المترعة باصداء جوفاء، وهم يصرخون بأرقامهم فى الطابور. وحين يخرجون، ينشرون فى المقدمة عدة جنود من بينهم الثلاثة المحبوسون. والثكنات التى كانت من قبل تسع خمسة آلاف جندى أضحت خاوية. ضابط الصف الذى يتقدم مع الطليعة يقول لبيانثي فى نبرة حميمة:

– ماذا فعلت؟ سيحاكمونك، وذلك قد يقضى على أى رجل إلى الأبد.

– لايهم، أيها الضابط، أنا مقضي على بالفعل!- ويضحك ضحكة خالية من التعبير تجعل ضابط الصف يسحب نظره عن بيانثي، مرعوباً.

(١٣)

مـرة أخـرى فى المعـسكر. عـودة إلى الوراء. بيـانتى وأنا نجلس أمـام صندوق تغليف، نحتسى الزجاجة الثالثة. من بين ألواح السقف الخشبية المنفرجة وخشب الحوائط، تتسرب أشعة الشمس مركزة وحية. هذا فرن: بفضل الجعة لا نحترق. على الظهر والصدر تسقط قطرات عرق تحت السترة.

– وماذا حدث فى المحاكمة؟

– مدوا خدمتى عامين آخرين. مدة خدمتى كانت تنتهى فى ذلك الشتاء، بعد ستة أشهر من الانسحاب من أنوال.

– إذن . . .

– ستنتهى الآن، فى شهر فبراير القادم.

– فترة قصيرة.

أتى بإيماءة ضيق، يتلمظ بلسانه:

– لا يهم! ماذا سأفعل حين أعود؟ فيم يهم أن أعود أم لا؟ أقول لك إننى لم أعد أهتم. لا أحد ينتظرنى هناك. وحتى إذا كانوا ينتظروننى فلن يتعرفنى أحد، وحتى لو تعرفونى لن يفهمونى، ولا أنا سأفهمهم.

ثم يترك نظرته تهيم على السقف.

– لم تعد بى قوة لأداء مهنتى؛ وإذا امتهنت أخرى على أن أبدأ تعلمها. كان بوسعى أن أصل إلى شرائط رقيب لكن لى رأساً أخرق فضلاً عن سوء الحظ.

أشعر بالإحباط، ولى فى الاشياء رأى مختلف لا يفيد إلا فى إثارة قلقى وهو ما يصعب المسيرة. لا ينبغى التوقف كثيراً للتفكير. أنا رقيب، وسارقى قريباً إلى ضابط صف: لا ينبغى أخذ انطباعات سلبية من هذا النوع. فضلاً عن اننا سنخرج فى الفجر، فى ساعة مبكرة جداً، لمواجهة الموت، وينبغى ان نحتفظ برباطة الجاش والحماس.

مرة أخرى فشلت التوقعات. وككل الأيام، دقت نوبة الصحيان فى الخامسة، وعلى هذا فلن تخرج الفرقة اليوم. لكن شيئاً ما يتم الإعداد له. فقد ضوعفت قوات حماية الطريق عن أمس. من المعروف أن الفرقة الثالثة غير مكتملة، وأنهم ابدلوا اليوم الكتيبة المتمركزة فى أبراج المراقبة لكى تنضم إلينا. يتأكد إذن خروجنا وإن لم يدر أحد متى. تم تفتيشٌ على الأسلحة والذخيرة. الصباح الأبيض والبارد فى الساعات الأولى أخذ يشتعل نحو الثامنة، وبعد ذلك بساعتين تسطع الشمس وتنفذ إلى كل مكان. يؤلف الذباب سحباً بين الخيام ويتقلب فى الهواء الساخن والقذر الرائحة. داخل الخيام، يجلب الضوء المصفى فى الذهب سطوعاً خانقاً، سطوع فرن. بل سترة وبلا قميص بوسعنا أن نحتمل، لولا وجود الذباب الذى يأتى ويلتصق بكل مكان. ربما ينبغى أن نتعلم تحريك الجلد كما تفعل البغال لنتجنب ذلك الجمباز المرهق باستخدام اليد. سرعان ما ستحين ساعة الخروج إلى الساتر لرؤية مجئ القول واستقبال ضابط الصف الجديد. يقولون إن مجموعتين من المغاربة النظاميين قادمتان أيضاً لتكملة الفرقة. يحضرونهما فى شاحنات. ثمة بين الرقباء فضول بالغ لمعرفة ضابط الصف الجديد. لا يكاد الصباح يحتمل شحنة النحاس التى تصهرها الشمس. فتعيدها الأرض وقماش الخيام على هيئة اشعة ويتكاثف الهواء فى ذهب سائل. ترقد الجرذان ويحلق الذباب فى طيران بطئ ويحتشد على أبواب المطابخ بين كل ثمانى خيام أو عشر. هذا الشهر انا مسؤول عن طعام

جمهورية الرقباء الصغيرة، وفي مناسبة مقدم ضابط الصف يجب إعداد طعام استثنائي. سأذهب لأبتاع شيئاً من السوق الصغيرة التي تقام كل يوم بجانب سور السلك، ناحية النهر. ما يربو على العشرين من المغاربة يقدمون من أدوارهم ببضائع بائسة. هم جميعاً من العجائز. لأن الشباب في حرب معنا -القوات والفرق النظامية- أو مع المتمردين. يحضرون البيض، التين الشوكي، دجاجة، زوجاً من طيور الحجل. ساروا عشرة كيلومترات أو اثني عشر للمجيء إلى هنا. حين يرى بعض الأهالي حكمدار الضرائب قادماً، يجمع بضاعته ويذهب. وقيمة ما يبيعون لا تبلغ خمسة ريالات أو ستة ويفرض عليهم ريال كضريبة. وبذريعة أنهم أباء أو أخوة مغاربة متمردين يسلبهم طباخو الضابط أو الرقباء بضاعتهم أحياناً. بعض النسوة العجائز، في ثياب العهد القديم، وبنقاب العفة وقد تحول إلى شريط قذر بلا نفع، يحضرن من خيامهن البعيدة علب شاي ونعناعاً وبعض الجرار أو القدر، فخار فقراء. خرج عسكريان مغربيان إلى السوق ويتداولان بلغة الشلحة مع عجوز قيمة علبة شاي. التاجر مصر على السعر والعسكريان يساومان. شيئاً فشيئاً ترتفع أصواتهم على همهمة السوق. ومن جديد، يلاحظ الفارق بين المغربي الحر، المتمرد، وبين "المتحضر". فالأخير أصابته عدوى الثقة بالنفس ومرح الجندي الإسباني. في نقاشهم الحامي في لغتهم تسمع صيحات بالإسبانية -اللعنة! إلى الجحيم! ابن البغي! -ثم يواصلون بلغتهم الغامضة. وتلك وسيلة سهلة وأكيدة لمايزتهم بمجرد النظر.

تنتعش السوق. تحت الشمس، يغلب على ثياب الأهالي اللون الأبيض. بعض الجلابيب البنية اللون وزي الجنود الكاكي يضفيان شيئاً من التباين على اللوحة. يظهر عريف الضرائب. وعبثاً يحاول عجوز إقناعه بأنه لم يبع شيئاً. يريه على الأرض خمساً من بيض دجاجة، موضوعة في عش صغير. يصر العريف ماداً يده:

- هيا، فك كيسك او ارحل!

يفجع المغربى مؤدياً التحية العسكرية بيد نافرة العروق فوق العمامة.

- سيدى العريف، انتظار. لو، باع، أنا، بدفع، مرة، مرة، خمسة، خمس سنتيمات، خمس.

لكن العريف مصر. والمغربى، يائساً، يمسح السوق بنظرته. بعيداً، تسطع الشمس على سونكى فرد حراسة. يقول المغربى للعريف إنه كان يعتقد أنه سيكون رحيماً به:

- أنا - يفكر - أنت - يكون - شخص - لى. تمام يا أفندم!

يعاود أداء التحية العسكرية ويعتدل بعد أن يحمل البيض.

من جانب سور السلك، تأتى طفلة فى حوالى الحادية عشرة أو الثانية عشرة. عينان طفوليتان تجلاوان فى وجه وادع وعذب. ملابس كانت بيضاء تسقط لتغطى قدميها. وحين تفطن إلى أننا ننظر إليها، تأخذ خرقة من فوق كتفها وتغطى بها نصف وجهها وتمسك به بأسنانها. لا يفصح جسدها عن تفاصيل بلوغ. رقيق، لا يوقظ الشهوة بحيث يثير ذلك الحذر النفور منها لأنه ينم عن اهتمام سابق لأوانه. حين تتقدم نحو السوق تسقط فجأة وتجلس على قدمها وتمسك الأخرى بكلتا يديها. بكاؤها صاخب وغير مكترث. أقترب منها فتنظر إليّ من وراء دموعها بدهشة وخوف. من بين أصابعها يخرج دم أحمر بشكل فاضح. تسير حافية ووطأت زجاجة مكسورة. الجرح يخترق باطن القدم. من المؤكد ان فرد الحراسة يحمل معه صندوقه الطبى الفردى. يعيرنى إياه وأعالج قدمها على

افضل نحو ممكن. دون أن تتفوه بكلمة، وقدمها ملفوفة فى الشاش، تذهب وهى تعرج. عند عودتى إلى السوق، رقيب آخر يلكزنى بكوعه ويقول وهو يغمز لى بعين:

– خذ حذرك، لأن هذه الطفلة قروح زهرى وسيلان وكل الريبرتوار.

بعد زوال المفاجأة الأولى، أدهش أنا نفسى لأننى فوجئت. بديهى. أبواها وأخوتها ذهبوا إلى الحرب. يفح الجوع فى الأدوار وبعض الأطفال والعجائز. ويحاول هؤلاء عبثاً أن يكسبوا قوت يومهم من أجل من تبقى، فيحملون بضاعتهم إلى السوق. وفيهن تصبح البراءة، إن وجدت، مصدراً آخر للخطر. الجنود يستغلون كل شئ. وربما، يوماً ما، يحل السلام ويعود الأب والأخوة إلى الأدوار لزراعة الأرض. لكن الحقد سيظل فى القلوب وسينتقل من الآباء إلى الأبناء.

أتجه صوب الطريق الرئيسى الذى يشطر المعسكر شطرين متساويين. يوجد هناك مقر القيادة وخص كورّيتو، القوتان العظميان فى المعسكر: العسكرية والمدنية، هذا المقصف فرع لمتجر المؤن الكبير الذى يمتلكه كورّيتو فى مليلة. منذ أقل من أربع سنوات كان يسير وراء الجيش ومعه حمار صغير وجرتا ماء. كارثة أنوال ربما كانت كارثة لآخرين ليس لكوريتو الذى يملك اليوم عشر شاحنات ويمد عدة فرق بالمؤن وأقام فى كل معسكر خصاً يحوى كل ما يمكن ان يداعب شهية السادة القواد والضباط: تبغ، مشروبات روحية، معلبات فاخرة، جعة فى زجاجات، صحف. صحف قديمة جداً، بالطبع. وممثل كوريتو هو ابن أحد اخوته له هيئة مغنى تينور

فى الأوبرا، بشعره الجعد. يختلط بالقادة ويزدرى الجنود بشدة حتى إن كثيراً منهم لينتابه حرج فى حضوره ويفضلون عدم الذهاب للشراء من هناك. لم يرد أن يبيع لبيانثى "خمساً" من النبيذ لكى لا يضطر إلى النهوض من مقعده. بيانثى أحاطه علما:

– من واجبك أن تعطينى نبيذاً دائماً طالما جئت إلى هنا ونقودى فى يدى.

أما كوريتو –الذى يدعونه بنفس اسم عمه، كامتداد له– فقد نظر إليه من أعلى إلى أسفل بمظهر أبناء الذوات حقاً وضغط على الحروف:

– قذر!

ذهب بيانثى مصعوقاً، وقد اصفر وجهه من الحنق. ومنه عرفت أن ذلك الكوريّتو جندي، رغم أنه يرتدى ملابس مدنية ولا يؤدى أى نوع من الخدمة. أتصفح طاولة الصحافة. صحف قديمة جداً: لكن سيأتى القول فيما بعد ومعه شاحنتان لكوريتو تحملان الأنباء. فى مكان قريب، بيانثى فى صحبة جنود آخرين:

– ماذا تفعل؟

– أمرونا بالمجئ إلى هنا لتفريغ شاحنتى كوريتو.

كنت أجهل هذه العادة، وإزاء دهشتى يضيف بيانثي:

– أى حيلة لنا؟ هذه أوامر القائد.

يشجعه صمتى فيضيف:

– لا أدرى ماذا يجرى هنا مع كوريتو؟ بل أعرف بالفعل. من يعملون لدى القادة وتقطن أسرهم مليلة وكذلك أحد أبناء قريتى يعمل فى متجر كورو حكوا لى الحكاية. كل القادة يشترون من متجر كوريتو والسداد بعد الحصاد. جميعهم يقترض حتى إن كوريتو لم يطالبهم بالسداد قط. ثم يقدمون للجنود الحمص بالدود والأرز عجيناً لا يمكن لأحد أن يأكله. لكن

هذا ليس كل شئ. فى متاجر كوريتو يعمل أكثر من خمسة عشر جندياً وخادماً من بين جنود الفرقة، يعملون كالعبيد لقاء الوجبة...، وأى وجبة! ابن قريتى يشعر بالحنين إلى طعام الثكنات. فى أحد الأيام، وبعد أن أفرغوا ثلاث شاحنات تبادل عدة كلمات مع زوجة كوريتو، فهددته بإعادته إلى السرية، لا أكثر ولا أقل، كأنها عقيد، ولما كان من السرية الثالثة المتمركزة فى الخطوط الأمامية اضطر إلى الصمت. لأن السرية عندما تعود إلى مليلة ويطرد كوريتو جندياً لأى خطأ ارتكبه تلقى به السرية فى الحبس؛ لكن إذا كانت السرية فى الميدان، إذن، "هيا، كى تتلقى قذائف المدفعية وتمشط الموانع!" . هذا ما يحدث مع كوريتو، وأشياء أخرى لا أقولها، لأن الخدمة العسكرية هى الخدمة العسكرية.

يقول بيانثى إنهم حملوا الموتى صباحاً وإن أحداً لم ينتبه إلى سرقة أحذيتهم. يضيف ضاحكاً:

– وضعوا دياث أورينيا فوق بقية الجثث. انبعثت منها رائحة فاسدة، وفى هذه الشمس، لك أن تتخيل الغربان تكاد تجن وراءها

سحابة غبار بعيدة تعلن عن مقدم القول. كلا؛ قد تكون الكتيبة التى أبدلت عائدة لتنضم إلى الفرقة لأن هذا ليس طريق مليلة، ولابد للقول أن يأتى من طريق آخر. مع القول ستأتى شاحنتا ماء، ومنذ نصف الساعة والجنود مصطفون بأوانٍ وزمزميات لملئها ما إن تصل الشاحنتان. يخرج ضابط النوبة:

– ماذا تفعلون هنا؟

لا أحد يجيبه. فالأمر شديد البداهة. يصرخ الضابط خارجاً عن شعوره:

– لا أريد رؤية أحد حتى أمر توزيع الماء.

وطأة الضيق لنقص الماء تثقل حياة المعسكر وتطغى عليها كشمس اغسطس، كالتعب العضلى أو السأم. المستجدون مهوّسون بالماء ويقضون حياتهم فى تخيل من أين بوسعهم ملء الزمزمية، ثم بعد ملئها، أين يخبئونها حتى لا يفطن إليها احد. أما المخضرمون فقد تخلوا عن الماء. فهم كالجمال، تكفيهم جرعة نبيذ في الحانة كل خمسة أيام، حين يدفعون إليهم بالفضلات. وتكفيهم يومياً قهوة الصباح. ويسألون المستجدين أحياناً:

– أمعك ماء؟

– أجل.

– حسن، ضع عليه تراباً.

ويضحكون فى متعة كأن ما قالوه مثير للدعابة فعلاً. أثناء المسيرات تكفى مضمضة الفم مرتين، دون شرب الماء لأنه يزيد من شدة الظمأ. وضيق الشهور الأولى يمتع المخضرمين: "تشرب أكثر من إسفنجة"، أو: "ستربى ضفادع فى بطنك". وإلى الشعور الدائم بالعطش تتداعى آلام البطن، فالماء "لزج" وماسخ وكريه الرائحة. يقال عمن يرقد على الأرض، يتصبب عرقاً ويداه على بطنه، إنه "فى حالة ولادة". يشيع خدر رهيف وشفيف، خدر مقابر. يشكو أحدهم من القيظ وسط جماعة مختبئة خلف خيمة، دون أن تبتعد كثيراً: فيرد آخر:

– أما أنا فلا. فأنا حساس للبرد.

يصيح آخر:

– حساس للصيف، تقصد.

– لا يهم. المسألة هى أنك فى إسبانيا لا تنتبه إلى البرد أو الحر، فيما عدا ساعة الحصاد.

حين يلوح القول، يكون على مقربة شديدة من المعسكر لأن ثمة منحنى في الطريق لذا يظهر بغتة. يستقل النظاميون –سريتان– ثلاث شاحنات في المقدمة، وحين يلمحون المعسكر يقيمون صخباً عظيماً. يجلسون على الجانبين وأرجلهم للخارج، أو يقفون فى الداخل ببقع طرابيشهم القرمزية وخصائل شعرهم الأسود فى الهواء. تتوقف الشاحنات ويزداد صخب الأصوات. أى عطل هذا؟ تلهث المحركات، بعد التوقف. يتحدث السائق ويلوح بيديه. إنها جثة المغربى التى نبشت قبل أيام ومددت على الطريق، وقد تحولت الآن إلى عجين متيبس، مسيخ.

فى النهاية، يتقدم فى بطء. تنحرف الشاحنة الأولى قليلاً؛ لكنها بلا شك دهست قدمى المومياء تحت الفراغ الذى تخلفه الإطارات فأخذ جسدها يرتد إلى أعلى، يرتفع ثم يسقط، ثم– بغتة– يرتفع ويصطدم بالنظاميين الجالسين على أحد جانبى الشاحنة. لم يتبق من الجمجمة سوى اللحية، الأثر الإنسانى الوحيد. يتعالى الصراخ بنبرة ندية مقصودة، تحاكى صراخ النساء المذعورات. يتتابع مرور الشاحنات التى لم تعد تنحرف عن الطريق، والجثة ترتفع وتجلس وتعاود السقوط وترتد فى حركات تشبه المباغتة والاحتجاج. وبيانثى بعد أن تجمدت حساسيته يضحك أيضاً. لكن بعضهم يحتج:

– ثم نشكو مما يفعله المغاربة بنا ونسميهم وحوشاً.

فيضيف آخر:

– لا تكن واهما. انكى الوحشية هى أن تموت. فيما بعد، لا يهم أن يضعوك فى صندوق زجاجى أو أن يمر القول من فوقك. لماذا يجب أن تنتابنا شفقة على جثة وليس على رجل حى؛ لو أن هذا البائس عاد إلى الحياة ستكون أنت أول من يقتله.

الشفقة غير مواتية دائماً فى هذه الأنحاء. وأكثر منطقية منها سلوك النظاميين وهم يتسلون بتلك اللعبة المروعة والبريئة. تدخل الشاحنات مسرعة ترج شحنتها البشرية. يهرول بيانثى لينضم إلى فرقة كوريتو. وأنا أتجه نحو مركز المعسكر لانتظار الصحف. يهبط النظاميون ويفردون سيقانهم وأذرعتهم فيما يصطفون فى قطارين طويلين. الرقيب المغربى "بلقاسم"، المتأنق والنظيف، بصورته الجانبية الملتحية كسمسار فرنسى، ينظم قسم النظاميين المغاربة. انتباه! بعد ذلك، بعسكرية مبالغ فيها، يضم كاحليه ويرفع يده إلى طربوشه: "تمام".

يتراجع على عقبيه، يدور على كعبيه، بسرواله الفضفاض مثل تنورة وفتحته التى تصل إلى ركبتيه وتثير بالغ الضحك فى الإسبان. "انصراف... هوب!".

ثمة خص ساكن، بمعزل عن الصخب، فى داخله عجوز يقلب جذوات الفحم بين حجرين ويضع فوقهما إبريق شاى متسخاً ويعلوه السناج. بعشرين سنتيماً يخرج ذراعاً عليها خرق من فوق عدة صناديق تطمح إلى أن تكون طاولة، ومن ركن معتم، ساخن، قذر، له حرارة حمى أو شمس أو

فحم، يخرج كوباً مذهباً من الشاى الرائق، بورقته من النعناع الطافية عليه وعبق لاذع. الحصيرة المفروشة على الأرض أمام الحائط لا تنى تستقبل من وصلوا حديثاً ويدخلون فى ضجة أكثر اعتدالاً. من مجلسه، وقوراً ومهيباً، كبطريرك، يقدم العجوز بلا عجالة كوباً بعد الآخر. يحيي بعضاً منهم، يمد لهم يده، تتلامس الأصابع دون ضغط وكل يرفع يده إلى قلبه وشفتيه. بعد قليل، يخرج العجوز ناياً من قصبتين ملتصقتين من طرف ومنفصلتين قليلاً من الآخر، كناى آلهة الغابات عند الرومان. يبدأ فى العزف. الصوت رهيف وعميق معاً، رقيق ونافذ. لا يصدر الصوت من قصبتى الناى فى نفس الوقت، ورهافة الصوت الفائقة تترع الهواء بذبذبات وتجرح النخاع وتداعبه حين لا تتفق النغمتان. وتعتقد فى احتمال وجود صوت مميت. تخفت الحوارات.

مازال الناى يكرر نغمة قصيرة وعذبة فى إصرار فينهض البعض ويدلف إلى الغرفة المجاورة تاركاً خفيه بالباب. فى تلك الغرفة غير محتمل أن يوجد سوى الله أو امرأة جميلة. فالمغربى إما أن يذهب إلى الصلاة أو الحب. لكنهم بالفعل ذاهبون للصلاة لربهم، نفس إله المتمردين، إله المسيحيين. يبدو أن صوت الناى يوقظ قوى التصوف بعد أن مر هؤلاء الرجال بالشاحنة فوق الجثة المنبوشة.

شاب هرقلى لم تأسره الرغبة الجنسية ولا الدينية يدنو من العجوز وينزل من أعلى دفاً ضخماً ويقرب جلده من النار. من حين لآخر يخبط عليه فى الوسط، قريباً من إطاره حتى يشتد، ويدق ويتذبذب فى تناغم مع صوت الناى. يقذفه فى الهواء ليتلقفه مغربى آخر يبدأ فى نقره بكلتا يديه. يرقص الشاب فى شيء من المهابة، بخطوات قصيرة جانبية، يرفع ويخفض كتفه مع الإيقاع، محركاً رأسه وزر الطربوش فوق عينيه فيما يشجعه الآخرون بأصواتهم. هؤلاء الجنود، الذين يفرقهم عن أبناء سلالتهم ذلك

الشيء البالغ الحياة والدوام فى ضميرهم والذي هو الخيانة، تجمعهم أواصر وتيقة بأبناء وطنهم: "سيدى محمد العربى" الذى يصلون له مع الغروب والشاى والرقص. الأول والأخير يمكن أن يمتزجا فى إحساس دينى واحد ويضيفا، فى المقابل، ملمحاً مميزاً: ذلك السمت الغائر، الصارم قليلاً، الكاشف عن خيال مختمر؛ وخلافاً مع مصيرهم الخاص لأسباب تبدأ وتنتهى فيهم هم. هنالك بعض الوجوه التى نفح القلق تعبيرها المتوحش بالفعل قساوة تمثال من الخشب يذكر برؤوس مقابض العكاكيز.

يقترب جندى إسبانى نظامى. أطلق لحية عربية، حليق الرقبة حتى الفكين، يستخدم رصيداً من عبارات بلغة الشلحة. هو أيضاً يرقص فيعقب أحد المغاربة:

- أصبح ريفياً*.

ويقول "بلقاسم" الذى قدم فى التو:

- أجدادى إسبان من قرطبة.

يرد إسبانى:

- أجدادك! كم عمرك؟

- عشرون عاماً أو ثلاثون.

السن عندهم حسب المظهر؛ والشيخوخة آتية فى غير حاجة إلى تذكر تاريخ الميلاد أو عمل حسابات مغضبة. بلقاسم يدخل للصلاة ويمازحه الإسبانى بصدد صلواته. يهز الرقيب منكبيه:

- الأمر سواء. أنت للمسيح وأنا لمحمد. المسيح كان نبياً صالحاً، صالحاً جداً؛ لكن محمداً خير منه -يشير إلى جبهته-، أرجح عقلاً. الله واحد، إلهى وإلهك.

والإسبانى -بلا سبب- يضحك فى بالغ الرضى. يمازحه بصدد تحريم

* أى من أهل إقليم الريف بالمغرب.

اكل "الحلوف"، وحين يسمع في الخارج صوت البوق يخرج ركضاً. إلى الوراء، تبقى الموسيقى، أبلغ أثراً بسبب تباين دق الدف الشهواني.

مع القول جاء بالفعل ضابط الصف الجديد، رجل فى الخمسين من العمر، رمادى الشعر، ضئيل الجسم، حاد الملامح ورشيق كسنجاب. حين يترجل ينظر إلى جميع الجهات.

– تمام، سيدى ضابط الصف، مرحباً.

– مرحباً، أيها الرقيب، من السرية الثالثة؟ يسعدني ذلك. اى متاهة من الخيام. لكن هنا لابد أن المكان لا باس به. من المؤكد أنكم من خيرة الناس. ظاهر على وجوهكم. والآخرون؟ أنا لست زميلاً سيئاً، لكن فى الواقع لست صبياً مثلكم. لي ستة أولاد وزوجة. الرحلة، تقول؟ مؤخرتى أصابها قليل من الرضوض من هذه المقاعد المعيبة. لكنها مسلية. رأيت هنا وهناك آثار قصف، اشياء ممزقة، وعند الخروج من الناضور ... يا للفظاعة! حسن، وفى أعروى؟ مررت من هناك ألمس الحديد. أصلبة ومقابر. ثم قبل دخولنا المعسكر، جثة الطريق كشخص فى "مرقص"، ترتفع وتركل الجنود. ليست مسالة تاثر لكنها تثير الغثيان. فانا "صفراوى" المزاج قليلاً، الأطباء يقولون إنه الكبر، لكن لا شئ مؤكد. أحضرت معى "بيكربونات". وجندى المراسلة؟ آه، حسن يافتى! أخفض يدك. الظاهر أنك خبيث قليلاً، لكن فى هذه الأنحا يفضل أن تكون خبيثاً لا احمق. من أين جئت؟ من المرية؟ سريع الغضب وأعشى قليلاً. افتح عينيك فالفرصة سانحة. من أى دفعة؟ خ

حذرك، فنظارة الميدان فى هذا الصندوق. والنقيب؟ قالوا لى إنه لا يتدخل فى شئ، وهذا قد يكون طيباً وسيئاً، حسب الأحوال. لابد من توفير ثمانين وجبة أو مائة شهرياً بين مرضى غائبين ومحتجزين فى المستشفى ومستجدين وملحقين. مائة بالتمام والكمال. فلو حدث أن . . .

قصف طائرات. رعد شديد يأتي بطيئاً، زاحفاً، متغير الشدة. يحدج ضابط الصف بعينيه الصغيرتين الرماديتين.

– مدفعية ثقيلة؟

– لا ، طائرات.

– آه، عجباً. كانت قريبة. النقيب ليس مزعجاً جداً؟ لا ينبغى أن نأمن الماء الهادئ. انظر يا فتى كيف يرتفع الدخان، مذهل، يبدو حريقاً. أين نظارة الميدان؟ بسرعة يا رجل، لا يبدو عليك أنك من البسيط.

– من المرية يا سيدى ضابط الصف.

– من المرية، ألم تقل لى من قبل البسيط؟

انفجار آخر أقرب من السابق. يصطنع ضابط الصف ضرباً من الدهشة المبتهجة:

– هدية للرائد أنسواجو. أعتقد أنه وحش أسود.

يضحك الجندى فى مداراة. "ياله من ضابط صف خفيف الظل"، يتحدث إلىّ ممسكاً بذراعى، ويلتف حولى ويوقفنى فى كل لحظة.

– البس طاقية والشمس حارقة. فاتنى عمل إيصال من أجل قبعة. كل شئ مر بسرعة. وها أنا هنا. لا أصدق أن تهتموا بى إلى هذا الحد فى وجود آلاف مؤلفة من الجنود. بيد أن الإقامة هنا ليست سيئة. لكن المعسكر هو المعسكر. هل فكرت أين سأقضى الليل يا فتى؟

– لدينا وتد جيد منتزع من سور السلك وهراوة. فيما بعد سأحضر

عارضتين خشبيتين وحبلاً.

– أتريد شنقى؟ اللعنة!

وصلنا إلى الخيمة. تعارف، فضول، دعابات عنيفة فى جو من الزمالة الفجة. تقضى حياة المعسكر على العادات المهذبة. يتحدث ضابط الصف عن حاجته إلى الاغتسال فيقول له جندى المراسلة:

– ماء، لا يوجد. فيما بعد سيحضرون برميلاً، لكنه من أجل الطبخ.

يتحسس ضابط الصف وجهه، شعره الرمادى. عيناه محتقنتان. الرمل الناعم وغير المرئى يحك رقبته حكاً خشناً، ويهيج عينيه. لا يهم! بطاطين الفراش مليئة أيضاً بالرمل! لا جدوى من إزالته، فبعد نصف الساعة يعود إليها.

– حين تهب ريح الشرق ستجد رملاً من هذا فى سرتك، بين ضروسك، بين أوراق سجلات السرية.

أثناء الغداء، استمر القصف مع فترات توقف وجيزة، ومع كل انفجار راح يرتجف فى مقعده –صندوق ذخيرة واقف على جانبه–: وينظر إلينا منتظراً منا أى تعليق وحين يرانا لا نتكلم يقول هو:

– كان قريباً جداً من هنا –ثم يكمل طعامه.

بعد الغداء، يتناول "بيكربونات"، ويتجشأ. ثم يجلس مرة أخرى ويشرع فى الكتابة إلى أسرته. قبل ذلك، يعلن فى رضا:

– الطعام طيب! وإذا كان الفراش والخدمات "من نفس الصنف"، بوسع الشهور أن تمر.

الرقيب لوكاس، بدين، على وجهه أثر الجدرى، يزم شفتيه على نحو لا يصدق ويضحك ضحكته المكتومة فى بطنه:

– ألا تعلم، يا سيدى ضابط الصف، أننا سنرسل القول إلى T؟

وضابط الصف –من شدة المفاجأة– يترك القلم ويطرح عدداً من

الأسئلة، اللازم لتأكيد النبأ أو نفيه.

– حسن، لم أكن أنتظر ذلك، بهذه السرعة...

فيما بعد، يقلع عن الكتابة إلىٰ بيته. ولوكاس يبحث عنا كي يحكى لنا هذا الموقف ضاحكاً ضحكته المكتومة التى لا تتعدى أسنانه وتلاحظ من اهتزاز بطنه ومن صوت معين يخرج من حلقه.

النظاميون معهم نقود طازجة ويملأون الحانة. يخرج بيانثى للاقاتى ويقدم لى سيجارة. من المعتاد أن أفعل أنا ذلك لكنه–إزاء دهشتى– يوضح:

– فى الحقيقة، كوريتو ليس شخصاً سيئاً. لقد أعطانا علبة سجائر لقاء تفريغ الشاحنتين.

علب السجائر تلك ثمنها خمسة عشر سنتيماً. كلمات بيانثى، عيناه، تنضح عرفاناً. أقول إنه جنون فى حين أن بوسعه أن يرقد قليلاً هناك فى الظل.

– لماذا؟ بعد ذلك هناك تفتيش على السلاح وعلى الذخيرة، كما أن ضابط الصف يريد منا أن نصطف للتفتيش على ميداليات الهوية ليرى إذا كان كل منا لديه ما يثبت هويته. وأنا فقدتها. عليهم أن يعطونى أخرى إذا شاءوا معرفة من أنا قبل أن يرمونى فى حفرة.

يعاود الضحك. بعد ذلك بخطوتين ألتقى الرقيب ديلجراس الذى قدم مع الكتيبة التى انضمت إلينا. كان مسؤولاً عن موقع فى برج مراقبة ولم نكن التقينا منذ ثلاثة أشهر. يتحدث على نحو متدافع لأنه يريد أن

يحكى كل شئ فى نفس الوقت.

– نجوت بمعجزة. أية فوضى! الذى سبقنى سلمنى ساعة "الغيار" الذخيرة الاحتياطية تنقصها ستة آلاف طلقة. أى هرج! هناك، الجميع أيديهم في الوحل: ذلك الموقع مشؤوم. من حسن الحظ أن قائد السلاح قال لى إنه سيضطلع بالأمر. تفهم ألا ذنب لي وأن جبلاً من الأوراق المختومة انهال علي.

ثم يحكى أشياء طريفة، وأخيراً، يغمز لى بعينه:

–أيها الوغد! لكم مارست "حق الانتفاع" مع روسيتا!

وضحكنا كثيراً. نحن صديقان بحق، نتفق فى الأمور الأساسية، وإذا كنا نختلف فى الفرعيات فذلك دائما مبعثه السأم. لديه رأي واضح وناضج فى الأمور. هو مثقف ويحتمل الخدمة العسكرية كأمر سخيف لكنه عارض. منذ حوالى ثلاثة أشهر وكتيبتانا تتناوبان –كل ثلاثين يوماً– خدمة المواقع وأبراج المراقبة فى هذا القطاع، بحيث تستريح كتيبته فى المعسكر فيما تتمركز كتيبتنا فى الموقع، والعكس. لحظ محبب فى خيمة الحب منحنا نحن الاثنين شرف التميز عن الآخرين. فتاة قوية البنية وليست ذميمة، فى الثلاثين أو الخامسة والثلاثين ولها هيئة ربة منزل. فى غيابى يصبح ديلجراس حبيبها، وأنا فى غيابه. وهى تقول ببالغ الرضا إننا "أولاد ناس".

– والآن؟ كيف سنتدبر الأمر؟

يتسع قلبها لكلينا جيداً. نعاود الضحك ونذهب إلى حانة بلانكا لنتناول الجعة و"الحلزون". هناك، طرأ على ذهننا أن نؤدى مشهد غيرة أمام روسيتا. المسكينة، فى بؤس هذا المعسكر، تستبق موت شبابها وجمالها لتعيش حياة حقيرة، بلا بهجة، بلا ملاحة، حياة معتمة ووحشية. وشجارنا بسبب الغيرة –فنحن من "أولاد الناس" -قد يخلف فيها أثراً طيباً. وسرعان

ما ستستعيد لحظة من شبابها البعيد وعبق البكارة والقرنفل. ومن المؤكد أنها لن تعاود الشرب حتى الثمالة لفترة طويلة. لابد أن نتوسل كافة الوسائل حتى لا تفطن روسيتا إلى أننا دبرنا المشهد، وإلا سيكون وقعه عليها شديد القسوة.

في الحانة، نرى حكمدار المؤن، فتى طيب، خطيب الصبية المغربية ورفيقة روسيتا. هذه الصبية من قبيلة بني ورياغل وتلازمها الصورة المرعبة التي توحي بها تلك القبيلة: قبيحة، مسودة دون أن تكون سوداء، صارمة إلى حد الوحشية. ويخلف الحكمدار انطباعاً بأنه يتركها تحبه، لشدة ضجره وكرمه: لكن الحقيقة هي أن كل الأموال التي يرسلونها إليه من منزله ومن ريع ممتلكاته يبذله في هدايا وفي الحلي والحرير الذي يلفها به. نخفي عنه خطتنا، وفي الحال نعثر على ثلاثة زملاء نثق بهم وبوسعهم أن يسدوا لنا يد العون كخورس يصلح ذات بيننا. قبل ذلك، ثمة شراب العرق. ديلجراس ادخر مرتب شهر ويدعونا إلى الشراب. أحد الزملاء يحمل أربطة والبندقية لأنه في نوبة حراسة. يذهبون برفقة ديلجراس وأنا أقوم بجولة قرب الحانة وأتسلم في خص كوريتو بعض الصحف وحين أقدر أنهم جميعاً عند روسيتا، انقض على المكان. حين يرونني، يرفعون الأقداح والأكواب. أرفض النخب دون أن أشكرهم. وفي جدية من يشعر بالغيرة أتوجه إلى روسيتا وأسالها:

– ما هذا؟ ماذا يفعل هذا هنا؟

تضطرب قليلاً:

– ما عساه يفعل يا رجل؟ ديلجراس صديق عزيز، لقد جاء من برج مراقبة ويرغب في شئ من التسلية. لا أعتقد أنا أن . . .–تتردد– لأنني، في الحقيقة، إذا كنت سوف . . .

أقاطعها في استهجان أرعن:

–لا أحد يسخر مني. ولا يجب أن تعتذرى لأنك كما يعرف الجميع، لذا لا تنتظر منك سوى حقارات. لكنى أقسم لك أن ما فعلته...

أتقدم فيتدخل الآخرون:

– ليس معقولاً يا أنطونيو...

– على رسلك يا رجل...

في أحد الأركان، ديلجراس، متحفظاً ومترفعاً، يفكر في الرد. وأنا أواصل الكلام مصطنعاً استهجاناً حانقاً. وحين يروننى متردداً يتدخلون بأصواتهم واحتجاجاتهم وينقذون الموقف. فضلاً عن أن ترددى كممثل كوميدى لا يسمع الملقن يبدو ثمرة طبيعية لتوترى. تنظر روسيتا إلى كلينا بعينين أخرجتهما المفاجأة من محجريهما:

– لكن، أيها الفتيان، من فضلكما، أأنتما جادان؟

يتكلم ديلجراس أخيراً:

– دعك منه. إنه لغبى.

– سنرى من منا الغبى.

– ماذا سنرى منك؟ غبى وجبان. لو لم تكن كذلك لرأينا. هذه المرأة لى وإذا كان معك مال فهى لا تحتاج إليه مادمت أنا فى المعسكر –ثم يشير إلى الباب– اغرب عنا!

تتدخل روسيتا وقد انتفش شعرها:

– هذا لا. فأنتما تعلمان أننى فيما عدا ثمن الشراب لم أقبل منكما قط سوى بعض الهدايا؛ لا أنت ولا هو...

أدفع روسيتا بذراعى، بحيث تصطدم فى رفق بالحائط الخشبى. فتقول وهى تبكى من السعادة:

– لكن، يا أنطونيو، ليس معقولاً يا بنى!

يحتدم الشجار. يتجنب الزملاء أن نتبادل الكلمات؛ لكن ديلجراس،

حتى يضفى حدة على كلماته التى لم تكتسب بعد العنف اللازم، يركل صندوقاً فتسقط الزجاجات والأقداح على الأرض. وروسيتا التى تناوب النظر إلى كل منا -لاتدرى أتبكى أم تضحك- تجرب الكلام، لكن ضجيج الأصوات يخنق كلماتها؛ تحاول التدخل لكننا نعاود إسكات كلماتها بسبابنا.

الصبية المغربية ومانويلا تطلان من الباب وتقولان بتدلل:

- "مشاجرة" فى رقم سبعة.

وتردف مانويلا:

- لقد قلت ذلك دائماً: إن روسيتا هذه بنت بغى حقاً وستمنى بسوء العاقبة.

أخيراً، يفرقون بيننا ويخرج كل منا من ناحية. أصل إلى قطاع كتيبتنا وأدخل الخيمة دون أن ألتفت إلى الأشياء. يراجع ضابط الصف السجلات، ويراجع جوالين من الأحذية المصنوعة من القنب. روى له لوكاس، بأسوأ نية، عن فشل رتل الشاحنات أمس وأول أمس. يربط بين الأحداث. اليوم تم إخلاء موتى وجرحى الأمس، ولوكاس يعطيه أرقاماً فلكية تقريباً. يتحدث إلي وأنا أرد بنعم على كل شئ، وأطلق زفرات مرة وأخرى لأتخلص من شعور بالضيق لا تفسير له. عشرة شهور فى المعسكر لا أرى سوى عجائز الحانة أو فتيات المعسكر الثلاث. أفكر فى تاجج روسيتا. ويأتينى صوت ضابط الصف -الذى لم يزل يتحدث- من بعيد، كأنما يصدر من عالم آخر. يأتى رقيب مقهقهاً:

- كان رائعاً. كأنكما كنتما ستقتتلان. ألا تدري يا سيدى ضابط الصف؟

ويحكى له. لا أحتمل الإصغاء.

كل كلمة تتردد فى قلبي، تجعله يتذبذب بصدى موجع. وفى ذات

الوقت، أستهجن هذا الضعف، هذه السحرة الفجائية، لا لشعور ما أو عاطفة بل لسلوك مرذول بتٌّ في حمق أبجله، أضعه في مرتبة سامية ضد عقلي وإرادتي.

أنهض وامضي. قدماي تحملانني آلياً إلى خيمة روسيتا. وحين أنتبه أحتاط للأمر وأذهب من طريق أقل مباشرة، وبشئ من جفاف الحلق أتلفت حولي لأرى ما إذا كان ديلجراس، الذي كان خرج من هناك في إثري، عاود الدخول.

(١٤)

بعد ذلك بقليل، خلال التفتيش على السلاح، وحيال رؤية بيانشي منسحفاً تحت "الشَّدة" وقبعته التي تغطي نصف أذنيه لكبر حجمها، أشعر بقلق غير مفسر. لا أكاد أنظر إلى بندقيته ثم أتقدم، ولا أقول له شيئاً. تضايقني فكرة أن ما أشعر به نحو بيانشي هو احترام كبير؛ لكنه احترام مرتبط بالازدراء الذي يثيره انعدام شخصيته ومظهره الجسدي المنكسر بعد خمسة أعوام من وهن الروح.

منذ بدء التفتيش والهياج لا يتوقف في المعسكر. سيطلقون نوبة استحضار في الثانية فجراً، ولابد لكل شئ أن يكون على أهبة الاستعداد. أصوات أبواق هنا وهناك: تفتيش آخر. قيادة التشكيل الأيمن حددت أهدافها. وفي خيام الرقباء ثمة حديث ونقاش. بعضهم يعرف جيداً الأرض التي ستكون مسرحاً للعمليات، ويتحدث عن صعوبات ومزايا. وبقبل الليل وسط صخب زائف لحمل. حركة في خص الهاتف. وما إن يسقط النوم فوق الأعين التي ألهبتها الشمس والجفاف تطلق الأبواق نوبة الاستحضار. لابد من الخروج. السترة على اللحم، بلا قميص، وحذاء الميدان الواسع ذو المسامير. والأربطة بـ"الشَّدة" كاملة: البندقية، الزمزمية التي نسيت ملأها. وحين أخرج، تكون طوابير طويلة اصطفت في الظلام: أوامر، سعال، دفعات، أصوات احتجاج. بعد قليل، كل شئ انتظم. أكثر من ساعة من الوقوف في الصف، غير محتملة، مهلكة، بالشَّدة على الكتف. والبطء وسط ذلك الحراك الغريب من الاصطفاف ينقل على الرقبة

ويؤلمها. كالإبل، نقف على قدم واحدة ثم على الأخرى في تمايل شبه منتظم. في الظلام، يقف طابور الفرقة، وتصطف البطاريات متأهبة، والجرارات التي ستجر المدافع الكبيرة لمجموعات الاستطلاع وعربات الاقتحام. الوحش العظيم يلملم أعضاءه، ويشد عضلاته في جنح الظلام. وكشافات الجيب هي ألف عين ترمش في عصبية.

من قبل، كنا آخرين: نبيذ، حانة، خوف ليلي من المغاربة ونهاري من النظام. لكننا، في النهاية، جنود؛ رجال يفكرون ويتحدثون؛ كل واحد شعرة، ظفر، سن في ذلك المخلوق الوحشي الذي بعد أن تمطى يطل الآن بخطمه الفولاذي من سور السلك بهدير محركاته وصريره المصفح. في الظلمة، كل هذا يتراءى في عظمته الدرامية. يبلغ الأمر مبلغ الاعتقاد في جمال الحرب. نسمة ملحمية تحرك حافة القبعة، وجندي أندلسي، حالم دائماً، معتداً لكن في غير زهو، يقول:

ـ ما إن ننتشر ساصطاد المغاربة كما نصطاد "الزيز" في قريتي: بخبطة قبعة.

الآن، يتضح أنهم يقدمون لنا القهوة. يمر الطباخون وجندي المؤن يجر مطبخ الميدان. يعطوننا كذلك وجبة باردة. هنالك من يملأ الزمزمية قهوة وهنالك من يشربها مبللاً الخبز فيها بصعوبة. الملازم المعاون يذهب بالدفاتر هنا وهناك. ضباط آخرون يتحدثون إليه فيبتعد ملوحاً بيده:

ـلا تاتوني باعذار!

يحصي الشاحنات، يسجل ملاحظات، يتحدث إلى جماعات من

الظلال المبهمة، ومن حين إلى آخر يسمع صياحه:

-سأحولك إلى مجلس تأديب!

له صوت واهن، ندى، يحاول أن يضفى عليه مابوسعه من شدة.
الرقيب إيريارتى يلكزنى ويقول:

- فى كل لحظة يريد أن يخلف انطباعا بأنه رجل.

يدهشنى سماع إريارتى يتحدث هكذا لأنه أكثر المعتدلين فى الكتيبة.
وأخيراً، نتقدم لنسير فى الترتيب المحدد ويسمع صوت النقيب يردد أمر البوق:

- للأمام، فى طابور سيرا...

إلى اليسار، السماء مخددة أفقيا باللون الوردى. سيبزغ الفجر. تحددت خدمات الحماية، المقدمة والتشكيلات. والمؤخرة ستتكون بعد الانتهاء من الخروج من المعسكر. يعطى أمراً: "احذروا الحرائق". لكن لا جدوى. طلع الفجر والجنود يدخنون وبعضهم يلقى أعواد الثقاب المشتعلة على جانبى الطريق. معظمها ينطفئ قبل أن يصل إلى الأرض، لكن يكفى أن يظل عود ثقاب واحد مشتعلاً حتى يشب حريق فى قطاع من عدة كيلومترات من العشب البرى المنخفض. وهم يحظرون ذلك لأن بقية الطابور فى حالات سابقة لم تتمكن من مواصلة السير بين النيران المشتعلة على جانبى الطريق. هذه الرغبة فى إشعال الحرائق تتأجج عند المرور بحقل لم يحصد بعد، بأى شئ نافع حيث يكون الضرر بديهياً ومؤكداً. فالقوة، حيوية كل فرد حين ينتظم فى الطابور، أول ما تجلبه هو الشعور بعدم المسؤولية تجاه الشر. وهو شعور لا يولد فى شخصية الجندى بل يلازم النظام العسكرى، القدرة على الهيمنة، التماهي مع هدف التدمير. ويحب الجندى التأكد من ذلك.

مع الفرقة،ياتى عدد من كلاب المعسكر يتقافز وسط الطابور والذى، ما إن يرى شخصاً مسالماً من الأهالى ممن سمحت لهم المقدمة بالمرور لأنه يحمل اوراقاً سليمة، ياخذ فى النباح بشدة لكن دون أن يتجاوز الخطوط الجانبية.

تبدأ أول تجربة، تعب الكيلومترات الأولى، الذى يبدأ بعد مسيرة أربعة كيلومترات أو خمسة وينتهى بعد تخطى العشرة. وأنا رحت أتاخر حتى أصبحت فى مقدمة السرية التالية. بيانثي يسير وسط آخر جنود السرية مغلقاً فمه ورأسه إلى الخلف، متنائياً ومثابراً. تثيره حنقه مسألة أن من أمامه يسير بخطوة غير منتظمة، لأنه حين يقصر الخطوة يصطدم وجهه بمخلاته. إلى جانبه يتحدث أحدهم إلى حامل النقالة الذى يرافقه:

-لم تكد تمضى ثلاثة أيام حتى عينوك حامل نقالة. بهذه العصى على كتفك ولاشئ أكثر. أهلاً بالكيلومترات. لكن فيما بعد، عند الالتحام، ستضطر أن تحمل أحدهم، لا مفر. وإذا كنت أنا من نصيبك، فلديك سبعون كيلوجراماً.

-وهل تعتقد اننى سوف احملك أكثر من خمسة عشر أو عشرين خطوة؟ من اجل ذلك توجد عربات الإسعاف!

-وإذا كان طريق السيارات بعيداً؟ فالشاحنات ليست عربات مصفحة. تحتاج إلى طرق ممهدة.

-إذا لم نجد الشاحنات فثمة دواب بمحفات.

-هذا أسوأ، لأنكم حينئذ مثل دواب النقل. فدائماً يستبدلون المرء بمثيله والدواب تحل محلكم.

مازالت الفرقة تسير تحت ضباب الغبار الحيرى. يصمت الجندى المجاور، يفكر برضا فى احتمال ان يحمله الآخر على كتفيه. "لقد أصابونى بعيار مرة..."، يبدأ الحكى لكن أحداً لا يلتفت إليه.

بعد الخروج من المعسكر بساعة، يسمع هزيم المدفعية. بعد قليل، يمر عالياً جداً سربان من الطائرات فى تشكيل، ثم يخلفاننا وراءهما. بعد الإنصات إلى قذيفة المدفعية، يقول أحدهم:

ـ تلك قذائف قطع البحرية.

فيما بعد يسمع القصف بطيئاً وعلى فترات متباعدة لكن الدوى يصلنا متقطعاً، أشد وضوحاً واختلافاً. فى هواء الصبح الهادئ، الساخن الآن والمتكاثف، يحدق خطر رهيب:

ـ الطيور ستحترق.

مازلنا تحت الغبار. قيادة الفرق سيراً على الأقدام إجراء طيب. فإن تسر خمسة عشر كيلومتراً تتلاشَ غريزة البقاء أو، على الأقل، ذلك الحرص الفطرى الذى قد يحمل الكثيرين على التردد قبل النهوض عن الأرض لمواصلة التقدم فى مجموعات اشتباك ومع العشرين كيلومتراً التى تنتظرنا سنصل هناك كالدمى؛ وسنطيع الأوامر طاعة عمياء؛ كما أن التعب وحمى الطريق تلك، والعطش، والقيظ لن تجعل أحداً ينتبه إلى أنه يموت إلى أن يرى نفسه فى العالم الآخر. ومن يستقلون الشاحنات حتى مكان الانتشار، ويصلون منتعشين وبطاقاتهم النفسية كاملة يثيرون الشفقة. قد تجعلنا القيادة نسير على أقدامنا لتوفر النقل، لكن تلك الملاحظة سليمة.

يرتقى الطريق الآن سفوحاً جبلية، ثم ينخفض ويدور حول تلال. الطبيعة تشتد وعورة. نسير في طريق متقارب صوب البحر الذى لا يرى؛ ولكنه على يمين الطريق، متوارياً خلف خمسين كيلومتراً من القمم الجبلية.

حين يسمع الجنود اسم موقع يصيخون السمع. لا أحد يعلم تحديداً إلى أين نتجه ولا المهمة التى كلفنا بها. بعد التفسير الخاص بـ"القول" انتشرت تكهنات أخرى. مازلنا نسير آلياً. تصطدم البندقية بالطبق الزنك الذى بداخل المخلاة مرة وأخرى. هنا وهناك، يبصقون غباراً رمادياً وفوق

الغبار يترك العرق آثاره. السير، السير في الوحدة اللانهائية للميدان المتجهم، المحدب، تحت هزيم المدفعية البعيد، ساعة، ثم أخرى. تكون الساعة حوالى التاسعة حين نرى، دون أن نتوقف عن الصعود، دخان الانفجارات.

دخان أسود ضارب الى الرصاصي ينقشع ببطء في الهواء الساكن. الضباط المعاونون يتنقلون بين الصفوف على ظهور الجياد، في نهر الطريق، يعطون الأوامر. لابد من متابعة الصعود، لكن مجموعات الاشتباك التي في المقدمة والجناحين ازداد عددها وانتشرت لتغطي مرتفعاً لاينتهي. أم أنهم ليسوا رجالنا؟ وحدات رشاشات تمرق ركضاً، تتقدم خارج الطريق وتغيب مؤقتاً عن الأنظار. نواصل السير ونعاود رؤيتها. نصف ساعة أخرى من السير الهادئ، غير المكترث. الطابور طويل ومتشابك للغاية ولاجدوى من محاولة الإحاطة بما يجري، لأن التحركات الفجائية والأوامر هنا وهناك مازالت تحدث في مقدمة الطابور دون أن تنعكس علينا. مازلنا نسير مثلما فعلنا منذ أن تركنا المعسكر. لكن أحداً لم يعد يتحدث. وبيانثي، برأسه المائل الى الخلف الآن على نحو أشد، وضع البندقية على الكتف الأخرى ومازال نظره مثبتاً في قفا من يتقدمه.

تحلق الطائرات فوقنا، ثم بعد أن تجاوز المرتفع الذي إلى اليمين وتواجه الوادي ترتفع راسياً تقريباً. وتتقدم حوالى ثلاثة كيلومترات وتلقي بقذائفها أو ترشد قذائف القطع البحرية. يرى بعض الصواريخ في الهواء ويمكن تقريباً متابعة مدارها المسرع ثم البطيء ثم المسرع من جديد. لا أحد

يتكلم. وكلما توقف من يسير أمامنا برهة توقفنا وخلنا أننا وصلنا. لكنه وهم زائف. مرة أخرى السير، مرة أخرى صوب الوادى الذى نواجهه الآن مباشرة. كنا تجاوزنا مرتفعاً وها نحن نتوقف أخيراً أمام مرتفع أيسر، وتطل من فوقه الآن السرايا الأولى. تتتابع الأوامر. لكن الدوي بالغ الشدة حتى صار مستحيلاً سماع تلك الكلمات المتفرقة التى هى الثنايا التي يمكن من خلالها اقتناص السر.

لا أحد يتكلم، لم يعد أحد ينظر إلى الآخر. تتعلق الأنظار بالطائرات، بالانفجارات التى تملأ الهواء بأصداء متعاكسة ومتقابلة رهيبة. يغيب عن الأنظار النظاميون المنتشرون أمامنا فى صفوف غير متساوية وراء بروز في الأرض. نتقدم الآن فجأة بالخطوة السريعة. يلوح الوادى مشوحاً بالانفجارات. ويسمع الآن صوت الرشاشات. نواصل العدو. انتشرت السرية التى أمامنا وتستمر فى تقدمها بلاحذر. ونحن نسرع فى خط راوٍ، ومازلنا فى الطابور، بنفس الخطوة السريعة، الآن ندرك وجهتنا. من وراء أكمة، يعود جنود بالبغال بعد أن تركوا هناك وحدة مدافع رشاشة. وأمر الانتشار يردده الضباط والرقباء بإيماءات مكرورة. نحن الآن فوق الأكمة. يبدو مستحيلا أن يشتتونا هكذا. لا أرى سوى جندى إلى يميني وآخر إلى يسارى، ملتصقين بالأرض. يحذر بيانثى الجندى الذى إلى جانبه:

– لا تبحث عن الأشجار الصغيرة فهى فقط ستحميك من الشمس. ابحث عن حجر حتى ولو فى حجم قبضة اليد.

تمر فوقنا قذائف مدفعية مجموعة الأستطلاع التى تطلق النار من خلفنا، منحرفة قليلاً، ونفيد منها كمرجعية. يتمزق الوادى فى انفجارات رهيبة وتعمره أعمدة الدخان وقذائف الأسطول تخترق الهواء. إنه "الدعم" لكنه لايرى فى اى مكان. ربما تكون هذه الكيلومترات العشرة حتى البر محتشدة بالمدافع والقوات والرشاشات. والطائرات أيضاً تحلق على ارتفاع منخفض. لا

ريب أن "الدعم" موجود هناك. موقع T لايرى. ونحن؟ نحن ماذا نفعل؟ بعد نصف ساعة من القصف في بعض المنحدرات التي تكشف هذا القطاع من الوادى، تتقدم مجموعات الالتحام من النظاميين. كيلومتراً إلى الأمام، يمتزج الجنود -متضائلين ومنكشفين- بأرض الوادى ولونها الأبيض الضارب إلى الحمرة. رشاشات لم نرها من قبل تفتح النار وتدك الفضاءات التي بين أماكن الانفجارات. وأخرى تتخذ مواقعها إلى جانبنا في سرعة. ونحن؟ الرشاشات تسكت أيضا في انتظار الأوامر. بيانثى ينظر إلى المدفع الرشاش الذى بجانبه ويحذر الحكمدار:

– أسد لي معروفا ولا تضايقنا بفوارغ الطلقات!

-اللعنة! ابتعد قليلاً!

يبتعد بيانثى قليلاً مزمجراً، يفكر بمنطق طريف: "يجب أن تتمركز الرشاشات في مكان لا يضايق أحداً". ويوضح في الحال:

– قبل مهاجمة العدو أو إلحاق الضرر به، تجب مراعاة عدم مضايقة الزملاء.

يدور بينهما نقاش قصير بالإيماءات، بدون كلمات، تحت دوى قذائف الطيران وبطاريات الصواريخ المتمركزة إلى الخلف. الآن ترى الطلقات وهي تنقر بين صفوف النظاميين. تكثف النيران، وبعد أن اكتشف الهدف، توجه رشاشاتنا شحناتها إلى سفح المنحدر، على بعد ألف متر لا أكثر. وعبثاً يحاول النظاميون التقدم. ومن نفس المنحدر يطلق المغاربة النار بدورهم بدقة مثابرة، ومجموعات الالتحام عندما تعاود التقدم تخلف وراءها بعض الجنود على أرض الميدان. نيران الأسطول والطائرات لاتتوقف وتكتم الأصداء تحت سلاسل من الدوى الخشن والرخو. والنظاميون المنبطحون مرة أخرى لا يتقدمون رغم الأوامر. بعضهم يتردد، لا يجرؤ، ثم يتهاوى إلى الأمام قليلا.

موجة بشرية أخرى، شجاعة ورشيقة، تهب بخطى سريعة وتهرع ناحية النظاميين. إنهم "الترثيو"*. بيانثى ينتبه جيداً ويده على خده. بين هؤلاء والنظاميين تنافس؛ وقد يكون جنود هذه الفرقة هم الأكثر شجاعة. لكن مسألة الشجاعة هذه –يفكر بيانثى– لها مساوئها، فإذا التفت إليها الجندى الشجاع فلا محيد عن أن تثبط همته. من التفت إليها الآن هم النظاميون على ما يبدو. يفرون. وبعض الجنود المغاربة يتقهقر. فيما ينتشر جنود الترثيو ويتقدمون بعيداً بينما يشق طابور إمداد صغير طريقه وسط شبورة الانفجارات صوب الجبل. الدعم. إنه الدعم. يتقدم جنود الترثيو، يهاجمون مسلحين بالمدى. يتردد النظاميون فيقدم ضابط على ظهر جواد ويصرخ في وحدة الرشاشات:

– افتحوا النار على النظاميين!

تطلق الماكينات رصاصها على مجموعات الاشتباك. تأتى أعيرة عالية، الأولى هذا النهار، وبيانثى، غريزياً، يعد بندقيته. ينتشر صوت: "أعلى، سبعة". في أى اتجاه نطلق النار؟ أعلى، سبعة. هكذا. طلقات العدو تمر منخفضة. الضابط مرة أخرى، مترجلاً:

– ألا تجيد هذه الرشاشات التصويب؟

الحكمدارات والرقباء المسؤولون عن الرشاشات، والذين يخطئون التصويب عمداً، يطلقون نيراناً منخفضة وشحنات الرصاص تصيب مجموعات الالتحام. خمسة عشر أو عشرون ممن ينجون من الرصاص يركضون، يتقدمون، ينضمون إلى الترثيو.

* قوات خاصة بالجيش الإسباني.

لكن الخندق الأول تم إخلاؤه. المغاربة لم ينتظروا فرقة الترثيو وينتقلون الآن بحذر إلى اليسار. يغيرون مواقعهم دون أن يفروا. تصوب نيرانهم نحوهم ويرى كثيرون منهم يتساقطون، لا يدرى أحد أقتلوا أم أنهم يلتمسون النجاة. أسفل الأكمة الممتدة تترامى هضبة تسدها من ناحية اليسار ثلاثة مدرجات جبلية. من هنا حتى البحر -عشرة كيلومترات- القتال مستمر بلا توقف من ثلاثة أيام. هناك إلى أسفل، سحقوا أمس الكتيبة 35. لكن الدعم سيدخل اليوم. فإن لم يصل فيمكن لهذا أن يصبح أنوال أخرى. ينبغى للدعم أن يدخلT. هاجس غامض لكنه نابض فى كل يد مرتجفة، فى كل نظرة معتمة، يتنبأ بذلك . يجب أن يدخل الدعم بالماء والذخيرة الوفيرة والخبز واللحم والسكر حتى لتتكرر فىT مأساة R.

يصوب بيانثى على أهداف أصبحت ترى. بقع بيضاء، رمادية، لحظية بين أكياس رمل الخنادق؛ وضباب وجيز يتواصل بين نيران البنادق والمدافع الرشاشة تسمع فجأة فى طرقعتها المبحوحة والبعيدة والتى تبعث من جديد وسط شظايا قذائف الطائرات وقطع الأسطول. وفرقة الترثيو اختفت فى الشقوق والوهاد. إلى اليسار، يطلق المغاربة وابلهم المميت بعد أن التقطوا أنفاسهم، لكنه لا يصل إلينا إلا نادراً ومع ذلك هنالك جندى جريح. فتدك مدفعيتنا تلك المواقع الجديدة. أحضروا لنا المزيد من صناديق الذخيرة. تدوى عدة انفجارات فى الخنادق التى هاجمها جنود الفرقة. أتقصفهم مدفعيتنا؟ إنها ألغام تركها وراءهم المغاربة. تخرج مجموعات من الترثيو وتركض إلى الأمام وقد ألهبها الذعر نفسه. بعض منهم يحمل البندقية على كتفه وسكينا رهيبة فى يده، ويسقطون هنا وهناك. مجموعة اشتباك جديدة من النظاميين تجاوزهم. نيران المدفعية تراجعت إلى الخلف، ورتل الدعم لم تعد بقعته السوداء تلوح فى أرجاء السهل.

حتى الآن كان العرض رائعاً. وبيانشي يعلم تماما أن شيئا لم يبدأ بعد، وأن تلك كانت افتتاحية عذبة ومتناغمة. على الجانب الأيسر، مازال العدو يدك التل الذى فى المواجهة. يعن الآن طابور آخر، صف طويل من البغال التى تحمل الواحاً خشبية وصناديق وبكرات أسلاك شائكة وأكواماً من الأجولة. يتقدمها البغالون الذين يجرونها من لجمها ويسير كل منها حسب سرعة الذى يسبقه. يصدر -بغتة- امر. يأتى إريارتى ويكرر: "هيا، انهضوا". تنهض مجموعات الالتحام وتهبط نحو السهل. طوفان من الرصاص يسقط فوق هذا المنحدر. يحمل إريارتى فى حزامه قنبلة يدوية "لافيت" كعادته كلما هاجمنا؛ ويكفى أن تُحل "الدوبارة" السوداء التى تحيط بها كى تنفجر وتشطره نصفين. اى شيء إلا الوقوع فى الأسر. تصفر الطلقات، تزأر حولنا. يدور جندى ثلاث مرات فى الهواء متخشبا ويسقط كجوال. يقول بيانشى من بين أسنانه:

– فى القلب، فى مقتل.

حين ننتبه نكون هبطنا، ولدينا انطباع بوجود شيء أبيض، جاف، جيرى -التراب- فى العيون المحتقنة.

طابور جنود سلاح المهندسين يصعد وراءنا، فى عجالة. سيقيمون برج مراقبة. تسدل المدفعية ستاراً من الشظايا وراء الأكمة. ونحن نرتقى الوهاد، نعرج ونتزلق مغبرين ولاهثين. فى احد الوهاد شق ضيق ومستطيل. يلقى لوكاس بنفسه داخله ومعه عدد من الجنود. يلج الشق ومعه جندى واحد بينما يظل الآخرون خارجه. تشق الوهدة طريقاً ضيقاً ومعتماً ينحرف فى منعطف قائم الزاوية ويتلاشى فى كهف رهيب ويتسع لخمسين أو ستين رجلاً. تحصينات ضد الطائرات. يمكن لعشر قنابل طيران او اثنتا عشرة أن تسقط فى نفس الشق دون أن تصيب من بداخل الكهف باقل ضرر أو تسد عليهم طريق الخروج. لم يزل جنود سلاح المهندسين يرتقون

الأكمة. داخل الكهف كان ثمة مغربيان جريحان وآخر ميت. كانت ثمة كذلك سترة من الجوخ الأزرق، جزء من بذلة التشريفة، على ياقتها رقم 42، قديمة ورثة. حين نصل إلى أعلى تتلقانا شحنات متتابعة تخترق حائط الدخان وشظايا المدفعية بلا كلل. والجندى الذى كان يناقش الآخر الذى يحمل النقالة يسقط وقد أصيب فى قدمه. إريارتى يصرخ:

– أيمكنك السير؟

– ممكن ...!

– اذهب إلى نقطة الجرحى.

– سيلتقطوننى فيما بعد.

– اذهب يارجل أو على الأقل ابحث عن ساتر.

يهز إريارتى كتفيه، والجندى يمسك قدمه بكلتا يديه ويتخذ موقعه خلف بروز، ثم يزحف ويهبط إلى أن يسقط فى حفرة مستديرة حفرتها قذائف الطيران. وينتظر وهو يفكر فى تصريح بثلاثة أشهر وفى ذلك الجندى الذى سيضطر إلى حمله على نقالة.

رجال سلاح المهندسين يتركون الحمولة تسقط على الأرض، ونحن، المتمركزين أعلى، نتلقى أمراً بمواصلة التقدم. ومهمتنا؟ أليست حماية إقامة برج المراقبة؟ لكن إلى الوراء، ثمة مجموعات اشتباك أخرى. على الأكمة، ليس هنالك سوى وحدات رشاشاتنا. ونحن علينا التقدم حتى حاجز الشظايا.

أسلاك هاتف هنا وهناك. ورجال سلاح المهندسين يلقون حمولتهم

ويعملون فى فوضى متوقعة ومنظمة، فى عجالة ولكن بلا توتر. يحملون البنادق على أكتافهم، وبالعتل والمطارق والمعاول يخططون لإقامة برج المراقبة، فيما يملأ آخرون أكياس الرمل بالفؤوس. وقوفاً، دون أن يحموا أجسادهم، يذهبون ويجيئون، يقودون البغال بتلك الأصوات "الزراعية" التى تتشكل فى الحناجر بحكم العادة، فيما نحن، ملتصقين بالأرض، نصوب طلقاتنا، وسط القذائف، على ظلال عنيدة. بعض الانفجارات تلطم وجوهنا بسياط الهواء. وأزهرت فجأة على صدر الحكمدار الذى كان يقترب أربعة أوسمة حمراء. بيانثى يحذره وحين يجيبه الحكمدار يسقط دم من فمه. أربع طلقات من مدفع رشاش أصابته فى أربعة أماكن متناسقة. يهم بالتراجع لكنه يسقط على وجهه ويرقد فى مكانه. يضغط بيانثى صدره على الأرض ويتابع إطلاق النار. يأتى فصيل المدافع الرشاشة ويلبث مستوى الأرض مكشوفاً. الأفواه يحرقها نفاد الصبر. يتجاوز بغل يحمل ستة صناديق ذخيرة المنحنى الواقى فيتلقى عدة أعيرة فيقفز فوقنا دون أن يطأنا ويركض على غير هدى. يطل الضابط من وراء أكياس الرمل المعبأة الآن ويصرخ فى بيانثى:

– وذلك البغل!

يركض الحيوان صوب خنادق المغاربة وسط طوفان من الرصاص الذى "يكشط" الأعشاب الواطئة ويطن بين أشجار الزعتر. يلبث بيانثى بلا حراك فيصر الضابط:

– أأنت أعمى ؟ الا ترى ذلك البغل؟

– ماذا؟

– اذهب وأحضره!

وبيانثى –آليا– يهم بالنهوض؛ لكن سرباً يطن فى أذنه. يقلع عن عزمه، ودون أن ينصت للضابط يصوب نحو البغل ويرقده بعيار فى ساقه.

يزمجر الصوت المعروف:

ـ سأحولك الى مجلس تأديب!

يعمل رجال سلاح المهندسين بلا توقف، تحت النيران. الجرحى، الموتى، يستبدلون. سقط أحدهم من أعلى ساتر كان ارتقاه من توه ليرفع فوقه عارضة خشبية. من سيمكث عند حلول الليل في هذا البرج بعد الانسحاب؟ من سيمكث لن يسعه الوقت ليحكي مارآه. تخف حدة القصف والرشاشات تقيس الأرض في صمت وتنتظر. تعن مجموعتا اشتباك لدى مرورهما بسفح المرتفع. من الخنادق، من الشقوق الكبيرة غير المنتظمة التي دمرتها الانفجارات التي أطاحت بالأرض في الهواء كنوافير ضخمة، تنطلق النيران جزافاً. والمدفعية؟ وفيم كان كل ذلك الصخب؟ مجموعات الاشتباك تنتشر في قفزات طويلة: يسقط بعضهم والبعض الآخر يرفع سواعده ويلقي قنابل يدوية يزلزل دويها المكتوم والناعم قلب المرء. لكن المغاربة يتصدون لهم، فيلبث أكثر من نصف عددهم منبطحاً. واحد منهم، جالساً، يطلق النار في سكينة إلى أن يسقطه آخر بركلة.

يعود القصف. ويسمع طنين القنابل التي تسقط على مسافة ثلاثمائة أو أربعمائة متر فتمزق أوصال الطبيعة في وحشية. تصمت بنادقنا. يصل أمر. تشتد نيران المدافع. ومرة أخرى: الطائرات. وشحنات الرشاشات تخيط أجسادنا في الأكمة. نصف الساعة، ساعة. وإلى الخلف، صوب البحر، إلى الأمام، ناحية الجبل، تثب الأرض كذلك وتتحطم الصخور. وحين تقترب الانفجارات تتبعها دمدمات معدنية مختلفة ومتخافتة: أعيرة صغيرة، شظايا. يتكرر الأمر. إلى جانب برج المراقبة الذي يجري العمل في بنائه، تعمل خطوط الهاتف الآن. يقدم الضابط على ظهر الحصان، محتمياً بمنحنى الأكمة، ويشير بذراعيه. سكتت المدفعية. أرض طحنت وانتثرت عشوائياً. في مكان ما، يصعد دخان من بين الأنقاض. لا أحد هناك، محال

أن ينجو أى كائن حي.

هذه ساعتنا، ساعة المشاة. فى قطاعنا -جزء صغير من جبهة القتال- يرد الصمت إلى الأرض شراستها المهدّدة. تمر دقيقة. الخوف يشل القلوب المنبطحة على الأرض.

نتقدم بعد أن شهرنا السونكي. إلى الخلف، إلى اليمين، يستمر قصف المدافع. بين شحنات النار يسمع صوت اصطدام كتل الفولاذ المقلقلة للعربات المصفحة، التى لايعرف أحد مواقعها. الأديم الذى نطؤه ساخن، ليس لحرارة الشمس بل بفعل حديد القنابل الملتهب. لا يطلقون النار علينا، لكن البنادق والرشاشات مصوبة نحونا ولن تلبث أن تحصدنا. نتقدم فى تشكيل باقصى سرعة. هناك أمر بعدم التوقف فى الخنادق، إذا كانت مهجورة. كالآلات، محمومين من الشمس ومن التعب، متهيجين من جراء الدوى والنوم المؤجل -بيانشى لم ينم منذ ثلاثة ليالٍ تقريباً- نتقدم فى طابور طويل وغير منتظم. الخنادق على مرمى حجر، تمتد إلى الخلف فى زجزاج طويل صاعد يسمح للمغاربة بالانسحاب دون أن يضطروا إلى الخروج فى العراء ودون أن يتخلوا عن التصويب علينا بنيرانهم. لكن أحداً، الآن، لا يطلق الرصاص.

هنالك جفاف جيرى فى الأعين. وبغتة يتناثر الهواء فى شحنات كأنه من زجاج. تعود ريح الشمال منخفضة. تهبط طائرة وتصب عدة شحنات من الرصاص فى الخنادق الخلفية. تسقط عدة قنابل يدوية داخل أول خندق فرعي، ويقدم عدد من الجنود ويرفع البندقية فوق رأسه. داخل الخندق نرى جندياً يحاول إخراج سلك من الأرض. ألغام؟ بيانشى ينظر إلى الخلف بلا اكتراث. والانسحاب؟ سيكون الانسحاب صعباً. أسفل الأكمة التى قمنا بإخلائها فى التو يمر قول الخسائر: إنهم النظاميون الذين سقطوا تحت نيران مدافعنا الرشاشة نفسها.

إلى جانبه، يسير القائد أنسواجو على متن جواده، ثم ينطلق صوب الأكمة التي تحتلها الآن كتيبة استطلاع. ونحن؟ أمازال علينا أن نخرج؟ حين يرى بيانشي نفسه وحيداً في الخندق يزحف إلى الخارج. سقط كثيرون. عدة خنادق متفرعة تجتمع نحونا في خط زاوٍ. هنا وهناك شقوق في الأرض صنعتها الانفجارات. مجموعة من خمسة عشر أو من عشرين، منتشرة في شكل جناح غير منتظم، تتردد، تجثو على ركبتيها، تعاود النهوض والتقدم. الضابط B الصغير –ثمانية عشر عاماً؟– يتقدم الهجوم ومسدسه في يده، يتبعه الآخرون. لا يلبث أن يسقط. محال التقدم خطوة، لم تصدر أوامر جديدة ونستعد لاحتلال الخندق العمودي الذي يؤدي إلى الخنادق المتقدمة. ومن هناك نلتفت إلى أن جثة الضابط الصغير سحبت إلى هناك. جندي الإشارة الذي يرافقنا يبسط ملاءة الإشارة على أحد جانبي الخندق حتى لا يقصفنا الطيران.

يداخلنا شعور بالأمان. لا أحد يتكلم. تحت العرق والغبار الذي يغطي العيون المحتقنة والأشداق وتحت هالة متورمة حول العينين من أثر التراب، لا يتعرف بعضنا بعضاً ونحن نلهث. إلى أعلى قليلاً ينعطف الخندق في خط زجزاجي. يحتل المغاربة هذا الخندق الفرعي ولا ريب. على نحو غريزي، يراقب جندي من الفرقة الأولى هذا الجانب، وبندقيته على الأرض وفي كل يد قنبلة يدوية. هدمت الانفجارات الخندق لكنه عميق في بعض أجزائه. تحت نيران المدفعية التي تعاود إطلاق قذائفها، يرى بيانشي اقتراب طائرتين. توافينا القنابل من الخارج بأمواج حقيقية من التراب، الرطب أحياناً. وجميعهم يحنون رؤوسهم ويرفعون أكتافهم. جنود المدفعية هؤلاء لا يعرفون ماذا يفعلون. على مسافة قريبة، ثمة فتحة كنهف حامية من الطائرات. ترجف جوانبها. في الداخل رجل مسن رشقت حنجرته بطلقة لا يستطيع الكلام لكنه يأتي بإيماءات ودود ويضحك. فيما بعد، يخرج

خنجراً عربياً ويقدمه لى. وراء وداعته الكاذبة يدارى رعباً وحشياً. إلى جانبه يرقد مغربى آخر، فى صمت كذلك. يشير العجوز بإيماءات إلى أن الآخر جريح، يدور حوله ويقلبه على ظهره. الآخر جثة هامدة. يومئ العجوز فى مفاجئة جامدة ثم يغمض عينيه ويشيح بوجهه ليخبرنا بأن زميله مات. ثم تمر بعينيه السوداوين والساكنتين سحابة بعيدة. إلى أعلى، فوق رؤوسنا، تتلاحق الانفجارات. وحينما تشتد يشير العجوز إلى السقف ويبتسم. إنه ينزف، كلما ابتسم انثال خيط جديد من الدم من البقعة الجافة فى حنجرته. لكن لم تسمع له شكوى. فجأة، يصيخ جندى الفرقة الأولى السمع.

– العربات.

بالفعل، يسمع إلى أعلى صرير الفولاذ وسط نيران مدفع ورشاشات العربات المصفحة نفسها. نخرج من الخنادق، ترى على مسافة ثلاثين خطوة عربة مصفحة تتقدم وثباً وتهدر تحت نيرانها. لكن خمسة عشر مغربيا أو عشرين صعدوا فوق العربات، ويطلقون النار بوضع المسدس أو البندقية من بين فتحات العربة ويسيرون فوقها فى شغف كوحوش فوق جسد وحش جريح. نفتح النيران عليهم ونصيبهم. أمر بناظرى على مجموعة الالتحام الصغيرة قبل أن أحاول الخروج، يغيب أحدهم، العريف حامل الراية، صبى خشن، يحترم النظام والأوامر، أظهر دوماً روحاً عسكرياً مثيراً للإعجاب. من العربة يرسلون إلينا دفعتين من أعيرة الرشاشات. لعنات، تهديدات. أهكذا نثاب؟ ألم يروا أننا أنقذناهم؟ حامل الراية؟ إذا أطل حامل الراية سيرون أننا من 42. أهبط الخندق وأدخل الكهف. أرى العريف من ظهره يعالج الشيخ العربى بطاقمه الطبى الخاص. بعد أن يصب اليود فى الجرحين يضمد حنجرته بالشاش فى عناية. ثم يربت على كتفه ويصرخ فيه كالمصروع:

– أنتم على حق!

ينتبه إلى وجودى من نظرة العربى. يلتقط بندقيته ويقف فى وضع انتباه كأننا فى مناورات. يتقدمني في الخروج. فى الخارج يقول لى:

– شعرت نحوه بالأسى!

ثم يحاول تبرير أمر رهيب فيضيف:

– أى رجل على وشك الموت يستحق أن نقول له إنه على حق. أليس كذلك؟ وهو أظهر امتناناً لذلك. ألم تر كيف كان يبكى ياسيدى الرقيب؟

وأنا وددت لو عانقت العريف، لكن أعذاره نفسها حالت دون ذلك. أقول له بلا أقل جفاف:

– لم يكن يبكى امتناناً بل من أثر اليود الحارق على الحنجرة.

تتسلق العربة المصفحة المفلطحة ببرجها الدائرى، كأنها سرطان بحري كبير. ونحن ننتظر إلى أن تصعد وتبلغ الخنادق الأخيرة، لكى نخرج. تطرقع الأعيرة على سطحها بصفير كصفير الصفيح.

يضرب مدفعها الخنادق الأخيرة. وسط موتانا قتلى مغاربة وجلابيب وسيقان عارية. نحن الآن فى مأمن بعيداً عن مرمى النيران؛ ومع ذلك، أحياناً، ترتعد أوراق شجيرة وفى الداخل يزأر عيار يود عبثاً لو شق الأرض. يتأخر سرطان البحر فى تسلق الخنادق الأخيرة حوالى نصف الساعة. وانفجارات القنابل اليدوية الآن بعيدة.

نخرج ونرى، صوب أحد الأرجاء، مجموعة التحام كتيبة الاستطلاع تتقدم في سرعة. نصعد. بعد زرقة الظهيرة الشديدة، يزرع دخان القنابل اليدوية أشجاراً سريعة الزوال، لونها ضارب إلى الرصاصى. تهبط العربة على الجانب الآخر من المنحدر. هناك، تحتل بقية الكتيبة خياماً بائسة لقرية. بعضها يحترق. جنود ارتقوا سقوفها يفتحون النار. خلف ظهورنا يشتد

إطلاق المدفعية الثقيلة ويعمر الهواء برعد عميق، غير منتظم، دائم. رائحة دخان الخيام تذكر برائحة حطب المدفأة في الشتاء. وفي الحال: رائحة أخرى، كاوية، لاذعة؛ والصيدلي يظهر بلحيته ونظارته الطبية السميكة، يسد فمه بمنديل متسخ:

– هايبريت، اللعنة، هايبريت. أطلقوا على مسافة قريبة غازات حارقة.

توقع. أنتقدم؟ أحد رجال الفرقة الأجنبية –يحمل البندقية من حاملها ومعصمه الأيسر في ضمادة– يتقهقر، ويسحب بحبل بقرة وعجلاً صغيراً: غنيمته. يتخذ موقعه لينسحب ولينقذ كنزه من الغازات. يقول وهو يغمز بعينيه:

– جئت في الوقت المناسب. من يعتقد أنه سيجد شيئا، الويل له. كل الحيوانات الآن ماتت وبطونها انتفخت.

هنالك أمر مبهم ينتقل وأنقله أنا إلى رجالي. برج الحراسة أقيم الآن وأضحت الأكمة مسلحة جيدا بالرشاشات. في آخر زجزاج بالخنادق يُسحب خط الهاتف. تسقط أربعة قنابل يدوية على مسافة مائتي خطوة إلى الأمام. شائعة: الدعم دخل لتوه في موقع T. بعيداً عن قطاعنا يشتد إطلاق المدافع. وفي الأفق قامت كل الزوابع المدارية.

اصبح برج الحراسة الآن مؤمناً. الركض، الركض، ترشدنا آثار أقدامنا نفسها. من جديد في الخنادق التي استولينا عليها. الدبابة هبطت وتتقهقر صوب المكان الذي انتشرنا فيه هذا الصباح. يشعر بيانشي وهلة بالرعب حين

يتذكر أنوال. الفرار، الفرار. لكنه فرار منظم بلا ذلك اليأس المحموم. لا أحد يهاجم إلى الآن. من بوسعه ان يهاجمنا إذا كانت الكيلومترات العشر التالية غارقة في الغازات الحارقة والشظايا؟ نهبط. والجريح الذى حاول حامل الراية مداواته هو الآن خارج الكهف، ميتاً. نعدو بلا نظام. وأكمة برج الحراسة لا ينبغي تسلقها. تسلك مجموعة الإلتحام على دفعات الطريق الأسهل ونلف حول الأكمة إلى أن نواجه الوادى. تبدأ المدافع الرشاشة في إطلاق النار من برج الحراسة والطلقات تمر فوق رؤوسنا. لقد وصلت إلى هناك. نيران الردع أبلغ دليل على ذلك. يسمع نداء بوق مجهول يحمل شفرة 42. يزأر بيانثي:

– لا تثقوا، فربما كان نداء لكتيبة أخرى. فاولئك البواقون الملعونون هم هكذا.

لكنهم جميعاً يسترشدون باتجاه صوت البوق. قف. الآن لا محيد عن إيقافهم. تحدينا الطلقات التى تنقر الأرض أمامنا. ننبطح أرضاً مرة اخرى. فوقنا تقوم المدافع الرشاشة بمهامها. يقبل المغاربة في موجات طويلة، ويطلقون نيراناً منخفضة وكثيفة. تبحث فوهات الرشاشات عن كتلهم وتسقط عدة قنابل يدوية وسطهم فترفع أردية وأشلاء. صوب اليسار، إلى جانب مريض لم نكن رأيناه، شتتت المدفعية الخفيفة جماعة من الفرسان المغاربة كانت آتية ركضاً. وقائدنا –لا نرى الضباط– يحافظ على معنويات السرية بشجاعة هادئة على نحو زائف، غير طبيعية من فرط هدوئها.

يهجر المغاربة الميدان، المزروع بالقتلى، يجرون صوب المربض تتعقبهم نيراننا. لايزال الانسحاب قائماً. جاوزنا برج المراقبة. امكثوا هناك أيها الغلمان. لو شعرتم بالملل سنحضر لكم مع أول دعم جراموفون وقردة. ليس لأحد أن يصدق اللامبالاة التى ننظر بها إلى الجنود فوق التل وهم

يدفنون أحياء وسط أكياس الرمل تلك. إن عبثية كل هذا لتجعل الجنود متشككين وقساة.

الانسحاب وعر. تشتعل الجبهة جميعها صخباً. على جبهتنا تسيطر نيران المدافع الرشاشة. ورشاشات النظاميين تتحرك بلا توقف وتقاوم بجسارة خارقة، أحياناً على مسافة خمسة عشرة قدماً من المغاربة. الركض، الركض. لكن الطلقات أسرع. من أين خرج كل هؤلاء المغاربة؟ نتوقف من جديد. تمر وسطنا مجموعة التحام أخرى فارة هلك معظم أفرادها. إنها من نفس فرقتنا. بعيداً، يسمع البوق مسبوقا الآن بنداء الاستحضار العام. لابد أن صفوف الفرقة انتهت من الانتظام الآن. ونحن هنا ساعة، مايربو على الساعة، فيما تتوقف مدافعنا الرشاشة والترثيو، كما اعتادت، عن أداء مهامها فى اللحظات العصيبة. رجل الفرقة الأجنبية، صاحب البقرة، يكابد أهوالاً فى الإمساك بها. ثم تطلق مدافعنا نيرانها وتتقهقر الترثيو نهائياً. نحن الآن فى قلب الوادى، وسط السهل الذى يرتفع فيما بعد صوب الموقع الذى بدأنا منه الانتشار، والآن تصوب المدفعية قذائفها بدقة، لابد أن برج المراقبة أرشدها. وحين نهم بالانسحاب تحت المدفعية تفاجئنا نيران مكثفة من أحد الجوانب. نشكل جبهة على قدر استطاعتنا، زحفاً. وبيانثى يختبئ، يلبث إلى جانب جثتين من 42. إحداهما جثة جندى "بدء النوبة" الذى من مقاطعتى والذى كان يربي قطة فى قنداسة. هو الآن منعزل عن بقية السرية، لايرى أحداً، لكن رفقة الجثتين أنسته أنه انفصل عن السرية. انتهت ذخيرته، والبندقية حارقة. يستبدلها ببندقيتى الجنديين الميتين ويطلق ذخيرتهما أيضاً. أحياناً، يعتقد أنه أصاب أحداً لكن أغلب طلقاته تضيع هباء، سحابات طائشة. يقتل بغلين كانا "يستسلمان للمغاربة" بحمولتهما. متعباً، يتهاوى فيما بعد فى وهدة. تمر أكثر من ساعة. والجنديان القتيلان لهما ذلك السمت المهدئ لقتلى الحرب. من خلال

الغبار والدم يمكن تقريباً ملاحظة تورد لونهما. وفكرة "رحلة القنص" تعاوده. دم طازج من أجساد لم يقضِ عليها المرض.

النيران المنخفضة كثيفة للغاية حتى إن بيانشى لا يتمكن من الإطلال برأسه وينتظر مرور الوقت بلامبالاة بهيمية، بلا روية. ثم تصفر القنابل اليدوية وتنفجر فى صخب دفين أو واضح حسب ارتشاقها فى التراب أو فرقعتها فى الهواء، وأحياناً تكون قريبة إلى حد أن المظروف الفارغ يمر قريباً وهو يئز. "جندى النوبة" حرك رأسه، شظية سميكة مرشوقة فى جبهته. وبيانشى يحمى رأسه بذراعيه وينكمش فى القاع. عشر دقائق أخرى من القذف المكثف ثم تتباعد القنابل اليدوية فى اتجاه العدو. هنالك صمت مباغت تحت الصخب البعيد الآن. صمت مميت. يطل: لا أحد فى السهل. لابد أن الطابور بلغ الآن المرتفع الذى بلغه صباح اليوم، ومن هناك -ثلاثة كيلومترات؟ أربعة؟- لم تزل بطاريتا مدفعية تطلقان قذائفهما التى تمر عالية، طويلة جداً. يعود إلى الوهدة ويلتقط بندقيتين ويرفعهما إلى كتفه ويخرج. ثمة بعض قتلى مجتمعين، كأنما الموت فاجأهم وهم يتناجون. أصوات بشرية تزحف فى السهل، ولكن: أهم جرحى أم ضباع؟ مزيد من القتلى. جواد مبقور، وإلى جانبه مباشرة، صريعاً على الأرض وخده وسط بركة من الدم، الرائد أنسواجو. بيانشى ينحني وينهضه، جسده نحيف وصغير، لا يزن كثيراً. هل مات بالفعل؟ بغتة تداخله رهبة عظيمة. يرى أنسواجو مختلفاً، نفحه الموت نبلاً. ذلك الرائد الوقح، الدائم الشجار مع الجميع، لا يمت بأية صلة إلى هذا الرجل. وملامح الوجه النبيلة تشى

بأنسواجو الحقيقى، الذى أخفته التقاليد العسكرية وضرورات الانضباط. يحمله على ظهره، يحكم حمله جيداً ويواصل الجرى. فى منتصف الطريق يتوقف، يأتى عيار نارى من بعيد ويمر من أمامه. إلى أعلى، يرى بطاريات المدفعية الصامتة الآن ومجموعات من الفرسان تذهب وتجئ وتتوقف لتراقب السهل. مازالت هنالك مدافع ترعد ناحية البحر. وقول من الجرحى، الأخير، يتسلق منحدراً صوب عربات الإسعاف. يعاود بيانثى التوقف، تنزف ركبتاه من ناحية الخارج. أأصابوه؟ يتابع الركض. بغتة، يكتشف أن الجروح يصيبه بها مهمازا أنسواجو مع حركة الساقين البندولية. يبطئ في سيره، لكن اصطدام المهمازين لا مفر منه. وتسبب له ضربة مهماز ألماً شديداً حتى إنه يكاد يخر على الأرض. يلعن ويلقي الجثة على الأرض ويستمر في الجرى. يفكر بعد أن يعدل عن فكرته: "طبيعى، هكذا كان دائما معى!".

حين يرتقي المرتفع يسلم نفسه للرقيب لوكاس. يبدأ حلول الظلام. والطابور، المصطف الآن، يعود بخطوٍ مسرع. مدافع، فصائل، تشكيل حرب. قول طويل من الجرحى الذين يأخذون أماكنهم فى العربات ما إن نصل طريق السيارات، وقتلى مكومون أعلى، فوق "شبكة" العربة. يحل المساء والجيش يسرع الخطا. أوامر جديدة. جياد تمر فى الوسط وتجبرنا على إفساح الطريق لها، على متنها المساعدون والقادة. فجأة نترك طريق السيارات. يجن الليل. نتجه صوب ربوة رحيبة، واضحة المعالم. لا وقت هنالك لبلوغ أى معسكر. سنعسكر هناك. نسير بالخطوة السريعة. أصوات جرحى تستغيث من أعماق ظلمة الوهاد، تصرخ، تهدد، تئن، تستعطف أن نتوقف لإسعافها. لكن الأوامر قاطعة.

بعد إقامة المعسكر -ونصف الطابور يقوم بالحراسة-، يذهب بيانثى إلى الرقيب لوكاس، الذى يقف برفقة القائد. يسلم بندقيتين، راضياً. يدون

الرقيب رقميهما: 72340 و8211 فيما بعد يبحث عن قائمة الأسلحة ويتصفحها ثم يسأل:

– وبندقيتك؟ أين بندقيتك؟

إنها هناك مع الجثتين. فقد بندقيته، ليس أقل من بندقيته. وإن هو أحضر بندقيتين أو مائتين لا يهم ليس لذلك أية علاقة بالواقعة الإجرامية المتمثلة في فقده لسلاحه هو. يسأل القائد:

– أهما على الأقل من بنادق السرية؟

يجيبه الرقيب بالنفي. والقائد، بإيماءة حاسمة، يقول لبيانثي دون أن ينظر إليه:

– حسن، اذهب. سنرى فيما بعد.

وحين يذهب يناديه:

– أأنت الذى حملت الرائد؟

– أجل ياسيدى.

– وكيف لم تحضره إلى هنا؟

بيد أنه لا ينتظر حتى يجيبه، فيضيف، كئيباً، بحسْ محذر لطيف، مشيراً إليه بأن يذهب:

– يبدو لى أنك فى مأزق.

فى المعسكر نتحدث ونحن نأكل أو نشرب الماء القليل الذى أحضرته عربات الماء. يرددون فى كل مكان: "أدخلنا القول". من بين المفقودين هنالك ذلك الصبى الذى كان يناقش حامل النقالة والذى كان بوسعه الانسحاب على قدميه لولا أنه فضل أن يحمله صديقه على النقالة. يقول بيانثى فى جمع من الجنود وهو يحكى لهم ما حدث لهم:

– اللعنة... لو أطالوا مدة خدمتى سأقتل نفسى برصاصة.

يأتى عريف العيادة ويضمد له ركبته ويحقنه حقنة سوداء فى بطنه.

(١٥)

عنبر المشاه نظيف، مريح تقريباً. ثمة عدد قليل جدا من الجنود. "تلامذة" فرقة البواقين يتلقون تدريبهم فى ساحة كابريريتس. يحمل هواء سبتمبر المشمس نغماتهم البعيدة. اعتادوا أن يبعثوا الحياة فى العنبر، فهم من يسكنونه زمناً أطول. منذ وقت الظهيرة والثكنة خاوية تقريباً: ذهب إلى المدينة من يعملون فى المكاتب والقادة والضباط القليلون غالباً. موقع الحراسة بعيد. صمت شرقى ورطب وحارق ومتألق ينشر جناحه على الثكنة. والفناء يرتب ظلالاً مثلثة طويلة من العنابر بسلالمها الأسمنتية، عباءات رهبان مدببة ترابية اللون وداكنة، الأفواه السوداء الهائلة مفتوحة دائماً.

أصعد إلى عنبر المشاة مرة أخرى، لأن السكون المميت فى الخارج يثيرنى. أسرة غير مرتبة بعضها فوق بعض، مغطاة ببطاطين، مصطفة فى صرامة. جندى يكتب واقفاً، وآخر يخيط سترته. يرقد جنديان فى نهاية العنبر وعلى وجه كل منهما منشفة، وهناك إلى اليسار، جالساً على ألواح السرير العالية، الجندى المذهول المعتاد. عاد مع أسرى آخرين منذ ثمانية أيام أو عشرة وأعطوه طاقماً كاملاً من الملابس: سترة من الجوخ وسراويل جديدة وطاقية ميدان بلون الجلد الطبيعى. تعزز الطاقية المصقولة الملونة البياض المميت، المتورم والمنتفخ، لوجه خال من التعبير. والسترة مفرطة فى حجمها وبها طويات متيبسة فوق صدره الغائر كأنه دمية. والسراويل بلا طماق أشبه بأنبوب أخضر مرتفع فوق الكاحلين المتورمين وحذاء الميدان

المفتوح لغياب رباطه والذى يظهر أيضا مشط القدم الملتهب. وهو جالس هكذا، وفى حجره طبق من الصفيح وفى الطبق نصف رغيف من الخبز. ينظر إلى نقطة غير محددة فى الهواء، وكثيراً، كل دقيقتين أو ثلاث، ما يسعل دون أن يفتح فمه، من بين أسنانه. فى البداية كان الآخرون يتحدثون إليه، ولكن، نظراً إلى أنه كان يجيبهم فقط بنعم أو لا دون أن ينتهى خيط الكلمة إلى الاتصال بالنظرة أو الإيماءة، راحوا يتناؤون عنه. وهكذا يلبث ساعات وساعات. يقولون إنه ينتظر جواز السفر ليذهب إلى إسبانيا فى إجازة.

لحظة واحدة فقط تنعشه: توزيع الوجبة. ما إن يسمع صوت البوق يركض ليكون أول الصف، وإذا كان ثمة زحام لايزاحم أو يحتج، يقف فى المكان الذى يترك له ويملأ طبقه الجديد وطبقا آخر قديماً وبقايا معلبة ثم يأكل فقط ملعقتين بسمت غير مكترث. "ثمانية عشر شهراً أسيراً –يقول أحدهم– وحسبما قال الرقيب مازال يفكر فى الشفاء فى قريته".

من آخر العنبر يظهر كائن مسلول لكنه متوقد. تتبعه ستة كلاب قبيحة من سلالة غير معروفة، ترفض أن تفارقه لحظة. أطلق عياراً نارياً على كف يده اليمنى وينتظر نتيجة التحقيق، العقوبة أو الإعفاء من الخدمة، حسبما تكتشف الحيلة. علاج اليد كان نسبياً لأن "أصابعى بقيت مطوية ولا استطيع بسطها". نتحدث. حينئذ تجلس الكلاب الستة فى شبه دائرة وتنتظر وهى تنظر إلى وجهه. يقول فى رضى زنخ:

– انظر إليها حضرتك، فيما عدا الكلام هى كالأشخاص.

محتال، تارة خفيف الظل وتارة مثير للغثيان. يقول للضباط إنه يصلى الصلاة المقدسة أيام السبت فى دوكر مع ابنة عمه الراهبة وبهذه الذريعة يتركونه يخرج. لكنه فى الحقيقة يذهب بحثاً عن رواتب كتائب الاستطلاع ويستولى على أموالهم بورق لعب نقشت عليه زهور.

يقول بإيماءة عذبة يعرفها من يعرف حيله:

– الله حكم عدل، فكما أنه وهب آخرين القوة وضخامة الجسد وهبنى مهارة اليد القليلة هذه لكى ابحث عن رزقى.

إلى جانبنا، يستدبرنا، ينحني جندى فوق سريره ويخيط، بمعزل عن الجميع . دون أن يلتفت، يطلب من الجندى المحتال خيطاً باللون الكاكي.

أنا أعرف الصوت: "ماهذا يا بيانشى؟" .

أصبح ضامراً، شديد الشحوب، بسبب ذلك النوع من الشتات الذى يمحو الملامح، قسمات الوجه. يلبس سترة كانت يوماً لضابط لكنها فقدت لونها ألف مرة تحت الشمس وبفعل الغسيل المتكرر بالصابون والماء الحارق لقتل البق. ومع ذلك، تبدو كأنها صنعت من أجله، لكن أناقتها العذبة لا تناسبه وتنفح بيانشى هيئة مخنث هزلية. هو يعتقد نفسه أنيقا. يضحك دون أن يتكلم، دون أن يباغت. أكرر سؤالى:

– ماذا تفعل هنا؟

– كما ترى. انتهت خدمتى العسكرية –يزداد شحوبه، يداه ترتعدان.

– متى ؟

– نرحل هذا المساء، حوالي ثلاثين جندياً.

منذ بدأ الحديث أراه وجلاً، لكنها حيرة داخلية، ليس حياء. لو أننى ربت على ظهره وقلت له بضع كلمات لأشجعه وأسرى عنه ربما أجهش بالبكاء. ماذا جرى لهذا الفتى؟ يتكلم باقتضاب شديد ولا يسهب. فضلاً عن أنه كان يثق بى دائماً.

– لم أكن أعرف إلى أين أذهب فى الحقيقة. قال لى الرقيب إن على أن أعطيهم عنوانى كى يسجلوه فى جواز السفر. إلى أين؟ كيف لى أن أعرف؟ كيف يبدو ذلك الأمر؟ إلى أين بوسعى أن أذهب؟ قلت له أن يكتب عنوان قريتى، وهاهم أعطونى الأوراق وسبع بزيتات. إلى القرية إذن!

-أأنت سعيد ؟

لم يعد ينتظره أى شئ مما تركه هناك، فكم تبدل كل شئ! تنتظره سلسلة من الأشياء المنفصلة عن حياته وهو ذاهب إليها بإحساس مبهم.

– أنا سعيد كما لو أننى أنهيت خدمتى العسكرية.

– ولكن، ألم تنهها بالفعل؟

– لم ينه خدمته العسكرية أي من جاء إلى هنا، ولا أنا. فمن يأت يبق هنا، ثم يشحنون إلى إسبانيا دمية، شخصاً ممتصاً، بلا عصارة.

الجندى صاحب الكلاب يركل ألواح الأرضية بقدمه، تنبح الحيوانات الستة، ويقول ولا أحد يعرف أفى جد أم فى هزل:

– اللعنة، أنا أيضاً كنت أفكر فى ذلك!

-الديك خيط كاكى؟ –يصر بيانثى على سؤاله.

ثم يحكى أنهم عاقبوه بتمديد خدمته العسكرية على مسألة البندقيتين ولأنه نفض الجثة عن كاهله. إذ إنهم أصروا على أن الرائد كان حياً.

– إذا كان حياً لمَ لمْ ينتشلوه هم؟

يدخل الخيط فى الإبرة. يسعل الأسير السابق فى ركنه، بلا حراك، بحشرجة ربوية. يلتقط بيانثى من فوق السرير قطعة قماش خضراء ويعاود الخياطة.

مضى عام منذ أن اختصني بنجاواه. معنوياً وجسدياً بيانثى أصبح

"روتينا" ، على الرغم من أنه مازال يحفظ توازنه، مازال يقف على قدميه.

ـ ماذا تخيط؟

عثر في مقلب القمامة على ميدالية نحاسية، وكان يبحث عن زر. وسام بلا أية قيمة، يعطى لكل من يطلبه. رغم أنها سحلت وديست بالأقدام، كانت شديدة النظافة، وبعد بعض اللعاب والحك أصبحت على ما يرام. والآن يشبك في العروة قطعة قماش خضراء.

ـ إذا رحلت خالي الوفاض يبدو كأنك كنت قليل الشأن.

يسود صمت فيما يخيط هو بمهارة خرقاء. المساء عذب. يأتي من أسفل، من المدينة، صوت صافرة لا يهدأ. يرفع بيانثي رأسه ويصغي، فيما يزداد شحوبه:

ـ إنه قطار دراوشة .

ـ كلا، إنها قطارات سان خوان دى لاس ميناس تحمل الحديد إلى الميناء.

يتحدث دون أن يسمع كلماته. الميدالية أصبحت جاهزة. يضعها في صدره.

ـ كلا، يارجل. على الجانب الآخر.

ثم يخرج إلى الفناء. قبل ذلك، أعانقه وأعطيه عنواني "المدنى" لعلنى "يوماً ما أستطيع أن أمد له يد المساعدة" . أدخل حجرة ضباط الصف. تحدوني رغبة في القراءة: لكن قدميّ تحملانني إلى النافذة المطلة على الفناء. يهبط بيانثي، يلتفت ليراني متيقناً من أنني أقف وراء النافذة. عدد من الجنود يصطفون في بهجة وسط الفناء صائحين. عريفٌ أول ينظمهم. للثكنة صمت أشد كثافة، وحميمية ما بهيجة رغم كل شئ. والفراغات الرحيبة التي تخلفها فيما بينها العنابر تكتسي زرقة في السماء البعيدة وفي البحر. يراهم أحد جنود الحراسة مصطفين ويناجي نفسه في صبر نافد :

- آه، ياالله، فليرحلوا مرة واحدة!

ينضم إلى الصف. يخرج رقيب مسرعاً وهو يحكم أزرار سترته وقبل أن يصل يصدر الأمر:

- انتباه! فى أربعة قطارات إلى اليمين!...للأمام! طابور رحلة!

صراخ، هتاف، عبارات وداع صاخبة. يسقط جندى، وآخر معه،ضاحكاً:

- ليس هذا من شرب الماء!

شربا خمراً؟ يذهب إليهما الرقيب. أحد الجنديين لايزال راقداً على الأرض؛ ينهض فيما بعد. يسمع من جديد صافرة قطارات المناجم والضابط المنوب يطل فى ضجر.

(١٦)

أربعة أيام وثلاث ليال فى السفر . الطبيعة باردة ومحددة وخالية من التعبير، وفى الليل: إسبانيا سوداء ومجردة وغير مسؤولة فى عتمة شرفة القطار.

دخل بيانثى من مالقة البيضاء والزرقاء. كل متاعه، علبتا تبغ، صودر فى الجمرك. قبل أن يستقل الخط الرئيسى، كانت القطارات قديمة وبائسة والعربات تغلى تحت شمس حارقة من العفونة. وكانت رُكب المسافرين يصطدم بعضها ببعض، فقد كانوا متلاصقين إلى حد كبير وكانت مسألة أن يديم بعضهم النظر إلى بعض عن مثل ذلك القرب فى غاية الغباء.

سأله شخص هل ذلك الوسام بمعاش استثنائى. وبيانثى كذب، قال: نعم، فراح رجل من إقليم قطلونيا يشرح أن مثل تلك "الخردة" تكلف ممولى الضرائب غالياً. فى خط القطار الرئيسى العربات مكتظة. اعتياد النظام وحده خفف قليلا من وطأتها.

أخيراً، وحيداً فى عربة أحد خطوط القطار الفرعية كان يحمله إلى المحطة الأخيرة، وهو ينظر إلى السهل الجاف والداكن، استعاد وعيه بنفسه. لا أحد ينتظرنى، هذه ليست الأرض التى كنت أتذكرها، التى خلفتها ورائي. كل شئ غريب. ومع ذلك أتعجل الوصول ولا تثيرنى فكرة أننى اقتربت. تحدوه رغبة فى بلوغ طريق السيارات فى الحال، أن يسير عشرين كيلومترا من الطريق الريفى الوعر والعقيم ليبحث، خلف منعطف، عن قريته، أوربييس، التى لا يعرف حتى الآن ماذا هو فاعل فيها أو كيف سيستأنف حياته...

يستوى الأمر. لقد ارتحل إلى كافة أرجاء إسبانيا. رأى سهولاً وجبالاً، كما في أفريقيا، ومزارعين متغطرسين ومتجهمين كالمغاربة. لا فرق هنالك، هنا كهناك، ولكن:لمَ يكون الرجال هنا بمثل هذا الخضوع؟ أيكفى مضيق جبل طارق، "قناة" ماء، كى يتبدلوا على هذا النحو؟ تخميناته مبهمة. صراع تاريخى: القوطى ضد الأفريقى. أرستقراطية الشمال تتآمر مع اليهود فى مزيج من الكاثوليكية ضد الأخ الأفريقى، توأم الإسبانى البدائى والأخ الأكبر للإسبانى الحديث الحقيقى. حالة إسبانيا هى نفس حالة المغرب. فالأرستقراطية "تستغل" المغاربة سعيا وراء الألقاب النبيلة، وفى إسبانيا تستغل الإسبان وتبحث عن سندات الدين طبقاً للبربر الحقيقيين فى الشمال. بسبب جهله يضل عقله فى متاهات. ويرى فى النهاية أن كل شئ فى هذه العودة إلى إسبانيا له شكل جديد تماماً وكئيب.

حين رحل إلى المغرب كان كل شئ جد مختلف. كانت لديه حمية الشباب، ضمير متفائل. كان مبعث فرحه العجائز اللائى كن يبكين فى محطة القطار وهن يودعن أبناءهن أو أحفادهن. القطار العسكرى بلا نظام ومبهج. سرق أكواباً وزجاجات فى المحطات كى يرمى بها فيما بعد حراس المزلقانات. دخان المداخن فى الريف كان يشى بالصحة والحياة المنزلية المريحة والآمنة. كانت هنالك قوة متجددة فى طرقعات القطار، فى الجسور الفولاذية التى يخلفها وراءه وسط الهمهمات، فى الأغنية وفى قربة النبيذ .كان ذاهباً إلى الحرب بكلمات لها وقع ملحمة "السيد" وعلى رصيف المحطة رهط من العجائز المتجهمين يقول دون أن يظهر سخريته:

– إلى المغربي، يا فتى، إلى المغربي!

سرق من إحدى الحانات كرسياً ولاقى نجاحاً كبيراً فى عربة القطار. سرق آخر مبولة ولبسها فى رأسه كأنها خوذة هزلية. كل شئ كان بهجة، طمأنينة، ثقة بالنفس وبالغد، أما اليوم...

يتوقف القطار. محطة صغيرة. دجاج على الرصيف، أصص الحبق فى الشرفة. يودع مزارع زوجته ويصعد فى رشاقة مغامر. من عربة متهالكة إلى جانب الطريق يقترب عامل يومية يجرر طرف سوط.

– عد فى الحال وفى تمام الصحة ، فهذا هو المهم.

يلاحظ فى عين المرأة شرود شهوانى. ها هو الذكر راحلاً. وبيانشى يتأملها. يقلع القطار. تصرخ المرأة بعبارات وداع على نحو صرعى تقريباً، يجلس المزارع ويقول برضا:

– النساء...!

يتوقع بيانشى أن تستسلم الزوجة لعامل اليومية صاحب السوط بذات اللحظ الشهوانى. يبدو له المزارع رجلا سليم الطوية فهو لا يرى فى النساء سوى الرذيلة والشر، ويرى فى الرجال جبناً وغباء مؤذيين. ومع ذلك هم وهن فى نفس الوقت –وهذا هو الرهيب– يحيون ويتحركون فى مستوى أعلى وثابت وتصاعدى وآمن.

يبسط المزارع ورقة ويخرج عجة فى رغيف خبز ويشطره نصفين ويقدم نصفاً له فى هدوء. مذهولا، يتردد بيانشى. تستريح عينا المزارع الحازمتين على عينى بيانشى فى دعة:

– كل حضرتك فى سلام، وفيما بعد سأعطيك جرعة من القربة.

يقبل بيانشى بلا امتنان، بتأن حذر. يسأله الآخر:

– كم مكثت فى المغرب؟

– انتهيت لتوى من الخدمة العسكرية!

-ثلاث سنوات؟

يجيبه بنعم. لايجرؤ على الاعتراف بعقوبات تمديد الخدمة، لأنها دليل على سوء السلوك.

ـ لدى ولدان.

ـ ولدان. إذا كان لديك ولدان فحاول ألا يذهبا إلى الحرب.

ـ ماذا بوسع المرء أن يفعل حيال ذلك. ـيجيبه بسمت متشكك.

ـ اقتلهما!

يفاجأ المزارع بشدة ويستدرك بيانثى وقد احمر خجلا:

ـ أو أرسلهما إلى أمريكا.

لم يزل الريف يطل على جانبى القطار داخل إطار شرفاته. أسطوانتا جرامفون عظيمتا الحجم، إحداهما عليها أغنية شعبية من إقليم أراجون وعلى الأخرى خوار طويل وبطئ. يطل المزارع برقبته نحو الخارج:

ـ انظر حضرتك إلى قناة "لاس بارديناس".

ـ وهل وصلت أعمال الحفر حتى هنا؟

ـ وإذا واصلت إلى الأمام سترى أكثر بكثيرا

لقد انفقوا عدة مئات من ملايين البزيتات منذ شهر مارس، ينفقون على كافة الأعمال مليوناً يومياً.

يعب بيانثى من قربة النبيذ. نبيذ متدفق وخشن وقوى، يبدو أنه يبلغ العروق وهو يفور. طنين بعيد وحاد. رغبة فى الكلام، تثاقل فى اللسان وحيرة حول موضع استقرار النظر. تنزلق ذبابة على الزجاج وهى تضرب بأجنحتها. يسحقها بيانثى بيده، ينفجر فى الضحك ويمسح يده فى سرواله. ينظر المزارع فى اتجاه آخر ويعض نواجذه. القربة مازالت على حالها، مصقولة ومتخمة. لكن بيانثى ثمل.

يهبط. وبعد أن أصبح على رصيف المحطة، يتوقف لحظة. يعكس زجاج أحد الأبواب سترته المجسمة، سترة ضابط غسلت وخيطت وانكمشت فوق سرواله القذر. عاملة المحطة تنظر إليه وهلة في غرابة، تدعو أخرى وتنفجران في الضحك. يجفل بيانثي. ود لو قال لهما عبارة لطيفة ولكنه يطلق كلمة بذيئة. غريزة الانتقام تقهر الرغبة في التهذيب. ينتابهما ضيق ويسمع بيانثي سبابهما بعد أن بلغ الطريق مستدبراً محطة القطار.

الريف، الطبيعة، ليسا كما تصورهما في المغرب. لا فارق كبير بين ذلك الريف وهذا. عشب، زعتر، أرض بنية اللون، بيضاء، ضاربة إلى الحمرة أحياناً. غربان كالتي هناك. كان يأمل أن تخاطب هذه الأرض قلبه. في دهشته المحيرة هنالك بؤرة جاذبية. يعلم إلى أين يذهب لأول مرة بعد زمن طويل. له وجهة، اتجاه. هو ذاهب إلى قريته، إلى المرابض التي شهدت طفولته، المنزل العتيق، الحقول التي زرعها والده، نفس الجبانة الصغيرة: حوش ليس أكبر من الأحواش الأخرى، ببابه الخشبي المشقق وفوقه الصليب الصغير. والطريق لا يعني شيئاً، ينبغي أن يقطعه دون أن يتعرفه، دون رغبة أيضاً في فهم عذوبته أو خشونته. السير، السير في اتجاه القرية. هناك سيكفيه أن يصغي إلى العصافير فوق أسطح القرميد وأن يرى هواء مميزاً يرسم كل شارع ويؤطره.

من جديد يبسط نظرته على ما حوله. هناك إلى أعلى، توجد القلعة. لها مظهر موحش وبارد. وسط أطلالها في زمن آخر، كان بيانثي يكمن للطيور الجارحة. إلى أسفل قليلا، في مستودع قمامة بيكار -القرية المجاورة لقريته- اعتاد أن ينتظرها مختبئاً ومعه الطعم من اللحم وجرس وطوق من

الجلد. وحين يقترب أى نسر بما فيه الكفاية كان ينقض عليه. فالنسور تحتاج إلى حوالى عشرة أمتار لكى تستطيع التحليق، فى أثناء ذلك كان يمسك بها ويصارعها وحين يتمكن من تعليق الجرس فى عنق النسر يطلقه. فيما بعد، فى ميدان القرية، حين يرى الناس نسراً يسبح فى الزرقة ويسمعون صوت الجرس، كان بيانثى يستقبل المجد فى حماس الصبية الآخرين وفى استحسان الرجال المبتهجين.

هذه الذكرى تقع الآن خارجه، كأنها تخص شخصاً جد مختلف عنه. يغز الخطا. يفكر: "شئ لا يصدق. يعتقد المرء أنه سيجن حين تحين اللحظة، ثم يتم كل شئ على نحو اخرق والأشياء الهامة تصبح بلا معنى". يغز الخطا على نحو اشد. على غير وعى منه ينتظم خطاه إيقاع عسكرى وفى مسامعه يتردد صدى نفير.

يجلس منزعجاً، على حافة الطريق، وينظر بحنق فى كلا الاتجاهين. الجبل، الوادى، السماء، الشجر، الطير، كلٌّ منصرف إلى ما يخصه فى برود محنق. أمر طبيعى فى الحقيقة. هو أيضا كان سينصرف إلى ما يخصه، لولا أنه الآن لم يعد يدرى ما هذا الذى يخصه ولا أية اولوية خاصة للأشياء عنده. ذلك الرجل الذى يقترب منه بهذا السمت الواثق وغير المكترث هو بلا ريب رجل بائس. يجوع وسط الجياع ويواجه البرد والحر فى العراء؛ زوجته تحتقره؛ أسياده يعاملونه كحيوان بائس؛ ويوماً ما سيشقون جسده ويرشقونه فى واحد من أعمدة التلغراف، كما كانوا يفعلون في المغرب. هو بدين والغربان ستجد فى أحشائه غذاء أوفر مما وجدته فى أجساد أولئك التعساء الذين سقطوا عند مدخل برج المراقبة فى درواشة. ومع ذلك، يسعى، يكافح، يعمل:

– فى رعاية الله! أمعك سيجارة؟ –يقولها فى نبرة مستجدٍ لا ريب فيها.

يقيسه الغريب بعينيه ويواصل طريقه، تاركاً وراءه كلماته:

- لا أدخن.

... بل إن لديه نحواً من الخيلاء الاجتماعية، نحواً من الرضا كرجل جاد. في الحقيقة، هو يعتبر نفسه "شخصاً مهماً". "شخص مهم"، يردد ضاحكاً. ينهض ويواصل طريقه. كيلومتراً فآخر، آلياً، ثم يتوقف فجأة:

- "من أنا؟ أين أنا؟ لأن أى شئ من هذا ليس أرضي. أأنا أجنبي؟"

تقترب سيارة مسرعة وتتوقف إلى جانبه. شخص ما يناديه فيؤدى التحية العسكرية. يسأله السائق هل قطع شوطاً كبيراً فى طريقه إلى أثوارا؟ وبيانثى يجيبه:

- أجل، ياسيدى! عند المنعطف ستظهر بيكار: بعدها خذ طريقاً قبل أن تصل إلى أوربييس، قريتى ثم واصل طريقك حتى أثوارا، ثالث قرية.

- أأنت ذاهب إلى هناك؟

- أجل يا سيدى، إلى أوربييس.

يخبره أحد الركاب أن بوسعه الصعود وإرشاد السائق إلى الطريق يسأله السائق:

- أأنت فى إجازة؟

- كلا ياسيدى. أنا عائد من المغرب.

- إذن، لابد أنك محمل بالقمل.

لكن بيانثى يريد أن يوضح:

- لكننى يا رجل...!

لكن السائق لا يسمعه. يقول لمن بالداخل:

- أنا أعرف الطريق ياسيدى؛ لا داعى لذلك.- ثم ينطلق.

مع حلول الظلام، يصل إلى مفترق طريقين فرعيين، بعد أن ترك طريق السيارات. مائة خطوة أخرى وتظهر مشارف الوادى، برج الأجراس. هناك كومة الحجارة التى يقولون إن قاطع طريق مدفون تحتها. مازالوا يحافظون على العادة الرومانية، وكل من يمر يرميه بحجر. يركض بيانثى وبقفزتين يقطع آخر مسافة ويطل أخيراً على الوادى بصبر نافد. أسفل، هنالك بحيرة ساكنة، قذرة، تتلألأ تحت الضوء الأخير. والقرية؟ يعاود النظر حوله. الانطباع بالغ فى شدته حتى إنه يمسى لامبالاة. قريته هناك، تحت تلك المياه الساكنة. وحين يتناهى إلى سمعه من أعلى صرير الشاحنات يتأكد من الفضيحة. نزعوا ملكية القرية لتتلاشى تحت أحد خزانات مشروع الرى. أوربييس اختفت.

منزله، الأديم الذى وطأه آباؤه، كل شيء الآن طمى، طين، أعشاب. سرقوا قريته. وتلك الذكريات الحية التى كانت تهيم فى كل ركن، فى بئر الميدان، فى الدير، والتى كانت نقطة انطلاق حياته كلها، اختفت الآن وإلى الأبد.

هاجس يجعله يهبط حتى الماء، ثم يتوقف بغتة إلى جانب سيل من "المونة" يهبط لا أحد يعلم من أين، فيصرخ صوت من أعلى:

– إيه، أيها المعتوه!

تطل شاحنات. يصعد بيانثى مترعاً بفضول يائس. أعلى، يكبح جماحه فضول العمال الوقح. يسأله أحدهم وهو يمضغ عقب سيجارة:

– إلى أين كنت ذاهباً؟

– إلى هناك، إلى قريتى!

-إلى قريتك؟

– نعم، إلى أوربييس .

– أتجيد السباحة ؟

يضج الآخرون بالضحك :

– فالمياه تعلوها بحوالى خمسة عشر مترا على الأقل، أنسيت هناك شيئا؟

يعاودون الضحك . والآن يضحك بيانشى أيضا؛ لكن ضحكته تثير أسى الذى يتحكم فى قافلة العربات الذى يفسر له :

– يغطي خزان أوربييس كل المنخفض ويمتد إلى مايربو على عشرة كيلومترات إلى اليسار، هناك، يوجد السد الرئيسى . وبما أنهم سدوا بعض الوهاد وشقوا منخفضات أخذت المياه تتجمع هناك، لكن هذا ليس كل شئ . أهل القرية ذهبوا للعمل فى برشلونة . بعضهم مكث للعمل فى المشروع، أليس كذلك؟

– بلى، لكنهم فى تورموس . عائلتان، على حد اعتقادى، تعملان فى لابيولادا . إذا كنت تود الذهاب إلى هناك، إلى أوربييس، بوسعك صعود أية عربة .

– إلى أوربييس؟ –يصر بيانشى حائراً .

– دفاتر البلدية وكل ما يخص القرية انتقل إلى القرية العمالية فى هذه المنطقة، التى يمكن اعتبارها أوربييس نفسها، بل ربما كانت أفضل من أوربييس، لأن القرية الجديدة بها مقهى به فرقة غنائية ويمكنك تناول شراب فاتح للشهية وكل شيء .

عنابر كبيرة من الخشب والآجر يتكدس فيها العمال مثل الجنود فى الثكنات. بين الحين والحين، عنابر بسلالم ناتئة من الفولاذ. كل شيء عارض، بارد، بلا شخصية.

- أهذه أوربييس؟ -يسأل بيانثى بضحكة ذاهلة.

تقترب جماعة من العمال الشباب. وبيانثى -الأشد إثارة للأسى فى ملبسه، السترة القصيرة كسترة امرأة تقريبا- يتوقف. يغنون هنا وهناك، والشباب الصغير تحدوه رغبة فى الشجار. يصرخ أحدهم:

- يحيا الجيش!

فيما يصحح آخر فى صوت رخيم:

- الجيش لا! الميليشيا، السيدة ميليشا!

بيانثى ينتفض:

- من ابن الـ... الذى...؟

يتقدم أحدهم:

- أنا، ماذا تريد؟

يشد الانتباه إليه، وينتظر الجميع رد فعل بيانثى، وحين يرون تردده يصنفونه فشلاً حاسماً. ود بيانثى الاحتجاج لكن صوته لا يخرج من حنجرته، وهو نفسه أول من يلاحظ بؤسه الجسدى ونقصه. إلى جانب هؤلاء الشباب المفتولى العضلات، هو عجوز مريض وغير نافع. يفكر: "ما الهدف؟" كل شئ بعيد وغريب عنه حتى إنه لمن الغباء أن يتشاجر مع أحد. "بأى هدف؟". مازال متردداً، حائراً. يقول أحدهم فى تثاقل:

- لا تبك يارجل! هيا نتناول كأساً!

يضحك الآخرون. وبيانثى يسلم نفسه ويذهب معهم إلى الحانة. أحدهم ينكس قبعته بضربة كف، وآخر ينزع وسامه: وبيانثى يعتقد أنه سقط، يشرع فى البحث عنه. يشعل ثقاباً ويحرق أنامله ويتحسس فى

الغلام الأرض بيديه. تحدث جلبة عظيمة: لكزات، ضحكات، سباب.
وحين ينتبه بيانشي يكون فى المقهى. العنبر يمتلئ عن آخره بالعمال. فى أحد الأركان يرتفع مسرح خشبى حتى مستوى المناضد. فى خلفية المسرح مفرش سرير منقوش عليه أغصان باللونين الأصفر والأخضر. بين حين وحين تظهر من ورائه امرأة –بقميصها الأحمر وأنفها المتسلخ من "الهربس"- فتتلوى على نحو أخرق يصاحبها عجوز يخبط على البيانو. يحمل الزبائن فى ملابسهم جيراً وطيناً فى أيديهم ووجوههم.

يمر بيانشى دون أن ينظر إلى أحد. يشعربالدوار من شدة فضوله بما يجرى فى المقهى، فيتعرض لسخرية لاذعة. لمه؟ وحين ألفى نفسه وحيداً جالساً إلى منضدة بعيدة أحس بالارتياح. إلى جانب المسرح الخشبى لبث الشباب الصغير بأعين شبقة. لايكاد يستطيع التفكير فى الأحداث الأخيرة. بين مزق من الموسيقا وعواء المغنية يمسك بخيط حيرته: "قريته، أوربييس، ماتت تحت الخزان، قبور آبائه مقبورة بدورها تحت المياه القذرة: كل شئ انمحى، تلاشى إلى الأبد". من قبل، حتى فى أحلك لحظات الحملة، كان لديه أساس معنوى راسخ: طفولته، قريته، حقول الأسرة، الشوارع، أطفال الأمس وقد أصبحوا رجالاً. والآن يعتقد أنه يسير فوق الضباب، فى الهواء. تبدأ حياته فى اللانهائى، بلا أساس، ولا مكان لقدميه كى ينطلق.

معه سبعون سنتيماً. والعمل؟ أسيكون من اليسير الحصول على عمل هنا؟ على المنضدة الأخرى يجيبه مصادفة ما يؤكده مزارع:

– لا يريدون اى عمال، ثمة فائض عمالة فى كل مكان، وهم يقبلون فقط من لديه بغل أو عربة على الأقل.

يعلق بيانشى نظرة كلب فى اللمبات الثلاث المضيئة والملفوفة فى شاش أزرق. يشعر بانه معلق فى الهواء، كالمشنوق، والحبل هو السر الذى يحتفظ به فى اعماق مقلتيه، سر يرفعه فوق الآخرين؛ غير أنه يرفعه –آه!-

من رقبته. الحياة، الحب، النجاح؟ هذا السر اجتث جذور كافة محفزاته، وأطل به على الاستسلام القدرى الأعظم الذى يحكم الحياة فى الكواكب الخاوية، الكواكب الميتة.

تظهر الآن المغنية وهى تنشد أغنية "صليب الاستحقاق"، كوبليه وطنى شهير يتحدث عن الجندى الضرير تحتضنه ذراعا خطيبته. تحمل المغنية فوق نهدها الأيسر ميدالية بيانثى مشبوكة فى قميصها. وحين تقلد الخطوة العسكرية باهتزازات مبالغ فيها تهتز الميدالية فى توقيع. يقول مذهب الأغنية:

قلوب النساء..
وأبواق الشهرة
حين تنظر مرور الجنود
تردد دائما: "تحيا إسبانيا"

تردد ثلاث مرات بتنغيمات من الفلامنكو، وهى تهز ردفيها، عبارة: "تحيا إسبانيا".

المشروع القومى للترجمة

١- اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥- ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١- مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥- الحركات الفنية	إدوارد لوسى سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦- أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف أحمد عتمان
١٧- مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨- الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت : يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨- رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الطوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢- الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣- التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧- واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨- نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩- الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠- قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١- ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢- عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣- اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤- بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥- التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦- عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨- حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩- الإسلام في البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠- ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثماني الميلود ويوسف الأنطكي
٥١- مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢- العلاج النفسي التدعيمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣- الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤- المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥- ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦- الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧- الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطي
٥٨- مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩- المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠- التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١- موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢- لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣- تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤- برتراند راسل (سيرة حياة)	الان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥- في مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦- خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧- مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨- نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩- العالم الإسلامي في أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠- ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١- السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢- السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣- نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤- صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٧٥- فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦- جاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧- تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨- العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩- شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠- بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١- الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢- مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣- مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤- موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥- منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦- طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧- نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨- الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩- الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠- وسم السيف	ميجل دي ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١- المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢- أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣- محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤- الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥- مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦- ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧- هوية فرنسا مج ١	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨- الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩- تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠- مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١- النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢- السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣- قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤- أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥- مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦- الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : د. أشرف علي دعدور
١٠٧- صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨- ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩- حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠- النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١- المرأة والجريمة	فرانسيس هيدسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢- الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣- راية التمرد	سادي بلانت	ت : أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنانوفيتا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديفي	ت : سمحه الخولي
١٢٦- فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١- مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيثلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٤٠- حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣- قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديرك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤- صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥- موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبدالرؤوف البمبى
١٤٧- خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١- هوية فرنسا مج ٢ ، ج١	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا مج ٢ ، ج٢	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩- الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١- من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت : مجموعة من المترجمين
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب	أ. ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت ب. ليتش	ت : محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة	و.ب. ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحى العشرى

١٨٤- القاهرة... حالة لا تنام	هانز إبندورفر	ت: دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت: عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت: إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة	بَزرْج علوى	ت: علاء منصور
١٨٨- موت الأدب	ألفين كرنان	ت: بدر الديب
١٨٩- العمى والبصيرة	بول دى مان	ت: سعيد الغانمى
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت: محسن سيد فرجانى
١٩١- الكلام رأسمال	الحاج ابو بكر إمام	ت: مصطفى حجازى السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بيك جـ١	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
١٩٣- عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت: محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت: ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت: محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت: أشرف الصباغ
١٩٧- الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت: جلال السعيد الحفناوى
١٩٨- الاتصال الجماهيرى	ادوين إمرى وآخرون	ت: ابراهيم سلامة ابراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت: جمال احمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت: فخرى لبيب
٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت: أحمد الأنصارى
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت: مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	الطاف حسين حالى	ت: جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	م. سولوفيتشيك، ز. روبنشوف	ت: أحمد محمود هويدى
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافالي- سفورزا	ت: أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علما جديدا	جيمس جلايك	ت: على يوسف على
٢٠٧- ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت: محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت: محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت: يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت: محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢- قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت: يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	ت: سيد أحمد على الناصرى
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت: محمد محمود محى الدين
٢١٥- سياحت نامة إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت: محمود سلامة علاوى
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت: أشرف الصباغ
٢١٧- عولمة السياسة العالمية	جون بايلس و ستيف سميث	ت: وجيه سمعان عبد المسيح
٢١٨- رابولا	خوليو كورتازار	ت: على إبراهيم على منوفى
٢١٩- بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت: طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت: على يوسف على
٢٢١- شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت: رفعت سلام

رقم الإيداع : ٢٠٠٠/١٦١٤٥

الترقيم الدولى I.S.B.N. / 977 - 305 - 271 - 0 /

مطابع إدارة المطبوعات والنشر ق . م